

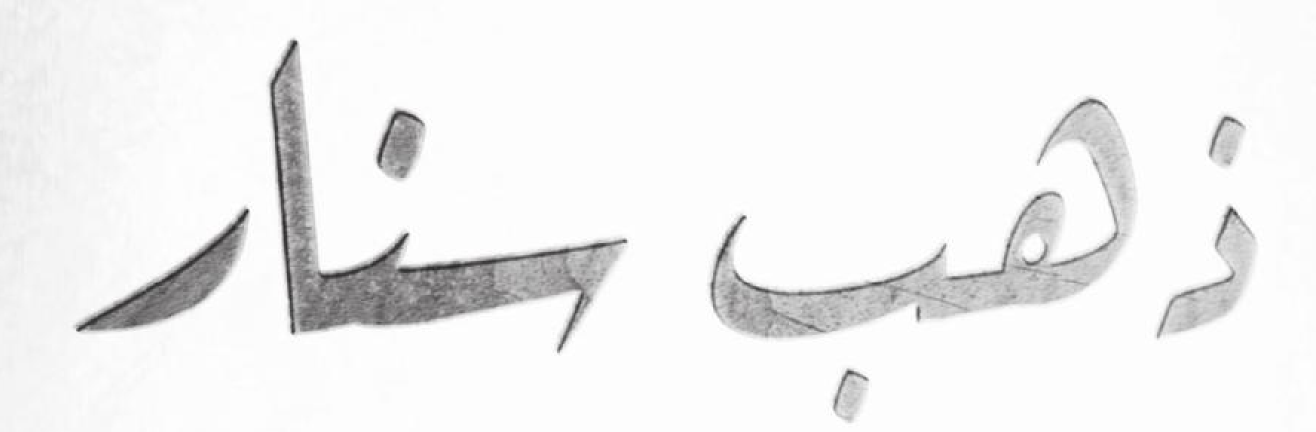


قصة أول مصنع روسى
لاستخلاص الذهب فى عهد محمد على

ترجمة : وليد أحمد طلبه

دار نشر أنباء روسيا
Russia News
بالتعاون مع
معهد الاستشراق
أكاديمية العلوم الروسية

أ. ف. أنتوشين



ترجمة : وليد أحمد طلبه

بالتعاون مع
معهد الاستشراق
أكاديمية العلوم الروسية
دار نشر
أنباء روسيا
Russia News

الناشر



رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير

د. حسين الشافعي

h.elshafie57@mail.ru

المراسلات

القاهرة – مدينة العبور

44971 مكتب بريد جمعية أحمد عرابي

ص. ب. 72

Tel. & Fax: + (202) 24 77 38 70 & 71

E-mail: secertary_ert@yahoo.com

التصحيح والمراجعة

حامد أحمد محمد

الإخراج الفني

مى مجدى

تحرير

شيماء محمد الشافعى

الطباعة

دار الطباعة المتميزة

مدينة العبور – القاهرة

Tel. & Fax: + (202) 4478 96 44 & 46

الطبعة الأولى 2006

إصدار مؤسسة «الآداب الشرقية»

أكاديمية العلوم الروسية

الطبعة الثانية 2014

دار نشر أنباء روسيا

بالإشتراك مع



معهد الاستشراق - أكاديمية العلوم الروسية

(تأسس عام 1818)

رقم الإيداع

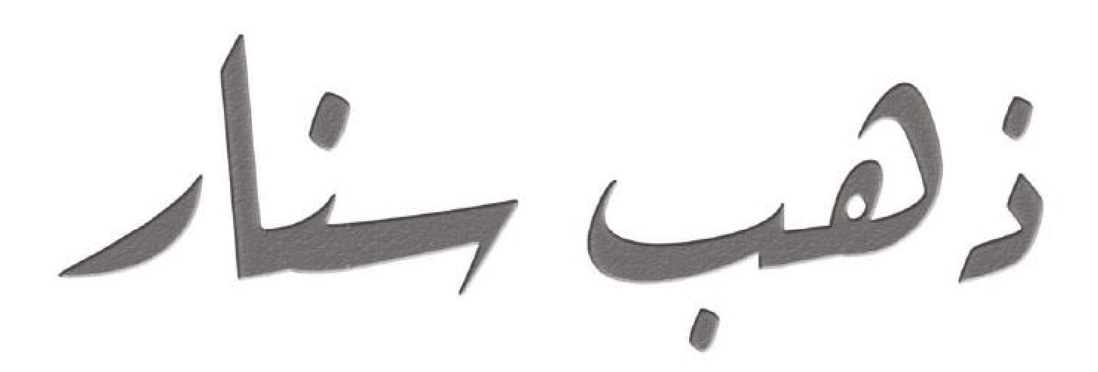
2014/4306

بالتعاون مع

الجمعية المصرية الروسية للثقافة و العلوم

При содействии
египетско –российской
ассоциации по культуре и науке

أ. ف . أنتوشين



ذهب سنار

مصر و السودان بعيون خبير استخراج الذهب من الأورال فى القرن التاسع عشر

ترجمة : وليد أحمد طلبه

أنباء روسيا
2014

الترجمة العربية للكتاب :

ФЕДЕРАЛЬНОЕ ГОСУДАРСТВЕННОЕ
БЮДЖЕТНОЕ УЧЕРЖДЕНИЕ НАУКИ
ИНСТИТУТ ВОСТОКОВЕДЕНИЯ РАН

А. В. АНТОШИН

ЗОЛОТО СЕННАРА

Египет и Судан
глазами уральского мастера
Золотодобычи XIX века

Библиотека журнала
" Восточный архив"



أ. ف. أنتوشين
ذهب سنار
مصر والسودان من منظور خبير استخراج الذهب من الأورال في القرن التاسع عشر

يتناول الكتاب تاريخ العلاقات الروسية المصرية فى منتصف القرن التاسع عشر. ويتركز محور الحديث علي يوميات أحد خبراء المناجم من الأورال- " إيفان بارودين"، والتي تتناول فترة تواجده فى مصر والسودان فى ظل بعثة " ى. ب. كافاليفسكي" فى الأربعينيات من القرن التاسع عشر.

يخاطب مؤلف الكتاب المستشرقين والمتخصصين فى تاريخ التعدين بالأورال، وكذلك كل من لديه اهتمام بعلاقات روسيا مع دول الشرق العربي ، كما يمكن استخدام الكتاب كوسيلة تعليمية عند الإطلاع على تاريخ التعدين فى الأورال ، وتاريخ العلاقات الروسية العربية .

المحرر العلمي :

ج . ف . جورياتشكين . حاصل علي دكتوراه التاريخ وأستاذ قسم تاريخ دول الشرق الأدنى والأوسط التابع لمعهد دول آسيا وأفريقيا بجامعة موسكو الحكومية باسم " م.ف. لامانوسف " .

المراجعين :

ف . ف . بيليكوف

دكتور التاريخ (معهد الاستشراق بأكاديمية العلوم الروسية)

ن. أ. جيرليتسينا

حاصلة علي درجة الدكتوراه فى التاريخ (معهد أفريقيا بأكاديمية العلوم الروسية)

ترجمة : وليد أحمد طلبه

مدرس مساعد بكلية الألسن- جامعة عين شمس

مراجعة وتقديم : دكتور حسين الشافعى

رئيس مجلس ادارة و رئيس تحرير مجلة أنباء روسيا

تقديم : دكتور حسين الشافعى

رئيس مجلس إدارة و رئيس تحرير أنباء روسيا

رئيس الجمعية المصرية الروسية للثقافة و العلوم

بدايات التعاون العلمى بين مصر وروسيا تزيد كثيراً عن عُمز العلاقات الدبلوماسية* التي نشأت بينهما ، و لعل بداياتها ـ وهى موضوع كتابنا هذا ـ كانت فى قصة إنشاء أول مصنع ميكانيكى لاستخلاص الذهب من الرومل ـ فالأرشيف الحكومى الروسى بمقاطعة سفيردلوفسك مازال يحتفظ ما بين ملفاته تفاصيل هذه العلاقات بكل دقة ، المؤرخ الروسى "أنتوشين" – وهو أستاذ فى التاريخ ومستشرق معروف عَكف على هذه الأرشيفات متنقلاً ما بين موسكو وسفيردلوفسك وغيرها من مدن روسية كثيرة يحكى من بين دفاتر هذه الأرشيفات قصة أول تعاونِ علمىَ بين مصر وروسيا بدأ منذ زمن .

بدأت القصة مع علم ـ الوالى المصرى "محمد على" ـ بأن الروس قد توصلوا إلى طريقة جديدة لاستخلاص الذهب من الرمال . كيف علم الوالى الباشا بهذا الأمر ؟

* تعود العلاقات الدبلوماسية التى نشأت بين البلدين إلى عام 1943 حيث إحتفل فى العام الماضى 2013 بالذكرى السبعين لإقامتها

هذا ما لا تذكره الوثائق الرسمية ، لكن أغلب الظن أن أحداً من مستشاريه قد نقل له هذه المعلومة . كان ذلك فى يونيو 1838م .

استدعى ـ محمد على باشا ـ القنصل العام لروسيا فى مصر "ميديم" بمقر الحكم بالقلعة فى 28 يونيو 1838م ، وطلب منه الحصول على وصف دقيق ، ومفصل للطريقة الجديدة والخطوات التطبيقية فى روسيا لاستثمار الرمال الحاوية ذهباً عن طريق الصهر بدلاً من الغسل .

القنصل العام الروسى بمصر "ميديم" خرج من معيَّة الوالى المصرىَ ليكتبَ برقيته التالية فى 28 يونيو 1838م لوزارة خارجيته :

رسالة إلى نائب مدير الدائرة الأسيوية

لدى وزارة خارجية روسيا السيد سينيافين

الإسكندرية ، 16 (28) يونيو 1838

السيد نائب المدير سينيافين ، ح

طلب منى باشا مصر الحصول على وصف دقيق ومفصل للطريقة الجديدة ، والعمل التطبيقى ، اللذين يمارسان فى روسيا استثمار الرمال الحاوية ذهباً عن طريق الصهر بدلاً من الغسل. واليوم اتوجه إلى الدائرة الأسيوية برجاء تطمين رغبة الباشا التى أعرب عنها بهذا الصدد. لهذه الغاية أرجو طائعاً إرسال وصف بالفرنسية للطريقة الجديدة المتبعة فى مصانعنا ، وكذلك إرسال رسوم للمعدات التى تستخدم فى العمليات الآنفة الذكر

تفضلوا ، سيدى نائب المدير ، بقبول فائق احترامى

القنصل العام لروسيا فى مصر "ميديم"

وصلت الرسالة إلى العاصمة الإمبراطورية سانت بطرسبورج.. وما بين وزارة الخارجية – ودوائرها المتخصصة – ومصانع الذهب ، وأرشيف المصانع ـ و قد إستغرق هذا الأمر ما يزيد عن ثلاثة أعوام ـ تم جمع كل ما هو متعلق بالطلب المصرى من وثائق ومعلومات أرسلت على وجه العجَل إلى مصر فى سبتمبر 1841م .

وقد كلَّف ـ محمد على باشا ـ والى مصر رجاله أن يعكفوا على دراسة ما

وصلهـم من روسـيا من معلومـات رأوا أنها تسـتحق الاهتمام ، ومن ثـمَ كـان طلبهم أن توفد روسـيا لمصر خبراء فى هذا المجال لإنشـاء معمـل لاسـتخراج الذهب من الرمال المصرية .

لكنّ روسـيا كـان لديها رأىّ آخر، إذ أرسـلت مكـتوباً يقـترح إرسـال ـ مهندسين مصريين ـ لها للإطلاع والمشاهدة لهذه المعامل الروسية ، وكـان هذا هو نص الخطاب:

إلي نيسيلروديه من أركان فيلق مهندسي التعدين

سان بطرسبورج ، 7 من ديسيمبر 1843 ، رقم 6257

سـيدي الكـريم "الكـونت كـارل فاسـيلييقيتش" ، لقد طلبتم مني، يا صاحبّ السـمو ، لدى إرسـالكـم لي فى 25 من نوفمبر الماضي (بلاغ السـيد مبعوثنا لدي الباب العالـي العثماني تحت رقم 254 مع الملحقات)، أن أبدي رأيي بصدد إيفاد مهندسي تعدين روس إلى مصر لأجل دراسة الرواسب الحاوية ذهباً و تنظيم معالجتها الصحيحة .

بعـد مطالعـتي هـذه الأوراق أتشـرف ، سـيدي الكـريـم ، و طبقاً لمحتواهـا ، بـأن أبلغكـم أنـه لا يوجـد لدينـا الآن ، فى ظـل التطور السـريع لصناعة اسـتخراج الذهب من الرواسـب الحاوية له في روسيا أشخاصّ خبيرون متفرغون ، يمكـن تخصيصهم للإيفاد إلي مصر.

فضـلا عـن أن إيفـاد مـهندسـيـن روس ، وأوروبـيـن عـلـى العـمـوم ، إلى هناك من المستبعد ـ فى رأيي ـ أن يجلب فائدة عملية وذلك بسـبب عسر المناخ المصري بالنسبة لسـكـان الشمال، وكـذا بسـبب عدم إمـكـان الأوروبي ، الـذي لا يعرف لغة هـذا البـلـد ، ولا عـبادات الشـرق ، التكـيف بسرعة مع الظروف و العلاقات المحلية، التي تتسـم دائما بتأثير شديد على نجاح المؤسسات الصناعية. لهذه الأسـباب الوجيهة ، فلو وكـل الأمر لي لإمتنعت عن إيفاد مهندسـي تعديـن روس إلى مصر ، وكـنـت قد اقتـرحت على الباشـا ، بدلاً مـن ذلك ، إرسـال أشـخاص مـن لدنه إلى روسـيا تقدم لهم دائـرة التعدين جميع التسـهيلات الممكنة لأجل أن تتم بأسـرع ما يمكـن دراسـة طرائقنا للتنقيب عن الرواسـب الحاوية ذهباً و معالجتها. وبإمكـان الأشـخاص الموفديـن من جانب الـوالى محمد على ، لـدي وصولهم إلي أوديسا ، السفر رأساً إلي مدينة "إيكـاتيرنبورج " فى ـ الأورال ـ إذا لم

يعتبر أمراً ضرورياً لهم التعريج على ـ سانت بطرسبورج ـ.

و إنني ، إذ أتشرف بأن أعيد طيه البلاغ المذكور للسيد مستشار الدولة الفعلى "تيتوف" تحت رقم 254 مع بلاغي القنصل العام "كريمير"، و بأن أرفع شكرى إلى سموكم على إرسالكم إلى دائرة التعدين تقارير بخصوص المهندسين الأربعة العاملين فى خدمة باشا مصر ، أرجوكم سيدى الكريم أن تتقبلوا فائق احترامى وولائى .

لم يمر كثيراً ، حتى وجد (محمد على باشا) من يأتمنه على هذه المهمة الجليلة. فاختار شابين مصريين هما : (على محمد، وعيسى الدهشورى) ليقوما بهذه المهمة. وكتب قنصل روسيا بالإسكندرية : فى 26 مارس 1845م كتابه للخارجية الروسية بهذا الشأن .

مراسلات كثيرة أعقبت هذا الخطاب تحوى ترتيبات لقاء الموفدين المصريين من فيينا لمرافقتهما إلى إيكاتيرنبورج ، ولأنهما موفدان من قِبل والى مصر –شخصياً فلقد تابع بعثتهما الإمبراطور الروسى بنفسه، والذى أصدر تعليماته " أن يتم استقبالهما ، وبأن يظلا تحت إشراف أساتذة معهد التعدين ، وأن يسافر مع المهندسين المذكورين مرافقين إلى مصانع التعدين فى ـ الأورال ـ ، و أن تقدم لهم كل مساعدة ممكنة للدراسة الراسخة لطرائق معالجة الرمال الحاوية ذهباً المستخدمة عندنا". كان هذا هو نص التكليف الإمبراطورى .

من فوك إلي سينيافين

الإسكندرية ، 26 من مارس 1845م ، رقم 6

سيدي الكريم ليف جريجوريفيتش

ببيان صادر في : 14 من ديسمبر أبلغ السيد نائب المستشار السيد المبعوث ـ تيتوف ـ عن اقتراح السيد وزير المالية ، الذي نال الموافقة السامية لجلالة : الإمبراطور، بأن يوفد باشا مصر إلى روسيا أشخاصاً من لدنه يمكن قبولهم في المصانع الحكومية في إيكاتيرنبورج لدراسة طرائقنا فى معالجة الرواسب الحاوية ذهباً و معالجتها .

لقد سبق لسلفى ، السيد المستشار الوزاري "كريمير" ، أنه أحاط محمد علي باشا في حينه علماً بهذا الإقتراح . و قبل الباشا

هذا الإقتراح مع الشكر و أعلن أنه سوف يستفيد منه فيما بعد .
والآن ، قبل مغادرتي القاهرة ، صرح لي محمد على باشا برغبته في أن يرسل إلي روسيا لهذا الغرض شابين من أصل مصري، هما (محمد علي وعيسى دهشوري)، وهما موجودان حالياً في - فيينا - ، و يجيدان اللغتين الألمانية و الفرنسية ، ودرسا هناك الأسس الأولية لفن التعدين .

إن باشا مصر ، فى هذه الحالة و بعد إطلاعه على إرادة السيد الإمبراطور بهذا الشأن يصرّ على إيفاد هذين الشابين بأسرع مايمكن .

نظراً لذلك ، وإذا أخذت فى الحسبان أن هذين الشابين موجودان حالياً فى فيينا، وأنهما بالتالى سيقومان برحلة كبيرة جداً و زائدة إذا أرسلا عن طريق أوديسا . فقد قررت أن أتوجه إلي معاليكم مباشرة بأشد الرجاء بأن تتفضلوا بإبلاغ سمو " الكونت كارل فاسيليييفيتش" عن رغبة الباشا ، والإتصال بوزارة المالية لتهيئة سفر الشابين المذكورين بالطريقة الأكثر راحة و دونما عائق من فيينا مباشرة إلى المكان المقصود بأقصر طريق ممكن .

إنني أبعث ببلاغى هذا ، بواسطة الإدارة المصرية إلى السيد مبعوثنا فى فيينا بالبريد المفتوح بغية إيصاله إلى معاليكم ؛ وأتشرف طائعاً بأن أطلب منكم - سيدي الكريم - بغية التنفيذ فى أقل قدر ممكن من الوقت ، تكليف السيد المستشار السري الكونت "ميديم" مباشرة بإبلاغ الشابين الموجودين فى - فيينا - جميع التعليمات اللاحقة بصدد سفرهما إلى روسيا و تزويدهما بجوازى سفر لازمين لأجل ذلك .

فوك

وصل المهندسان المصريان (على محمد وعيسى الدهشورى) ، وبعد رحلة طويلة بين المصانع والمعاهد الروسية – تخللها عثرات صحية مر بها الشابان المصريان – إلا أنها لم تُهن عزمهما على استكمال مهمتهما التى ينتظر الوالى المصرى بفارغ الصبر خبر إنجازها .

تقارير متابعة أداء (على محمد وعيسى الدهشورى) مازالت محفوظة بالأرشيف

الروسى حتى الآن ، والتى منها نجد هذين التقريرين:

(التقرير الأول)

الى الدائرة الآسيوية

سان بطرسبورج ، 18 من أبريل 1846 ، رقم 1579

أبلغ مهندس التعدين المقدم كوفاليفسكى أركان فيلق مهندسى التعدين بأن المهندسين المصريين الدهشورى وعلى محمد اطلعا فى غضون مارس الماضى على مصانع سيسيرت وكاسلى وكيشتيم ومناجم سويمانوفو لاستخراج الذهب ، ومصنع زلاتؤوست لصناعة الأسلحة ، ومناجم مياس لاستخراج الذهب ، وهما يعملان الان فى منجم أتلى ، وسوف يتوجهان بصحبة السيد كوفاليفسكى ، عند أول فرصة تستح ، إلى فرقة أبحاث جيولوجية للتنقيب والكشف عن الرواسب الحاوية ذهباً حيث سيبقيان حتى مطلع مايو أى حتى موعد توجهها إلى أوديسا .

تتشرف أركان فيلق مهندسى التعدين بأن تبلغ الدائرة الآسيوية بذلك ، وأن تطلب طائعة بإعطاء الأوامر لبعث الرسالة ، الواردة من المهندسين المصريين المذكورين والمرفقة طيه ، إلى عنوان أرتين بيه المخصصة له .

(التقرير الثانى)

تقرير المقدم كوفاليفيسكى

بتاريخ 1 من ديسمبر ، رقم 28

إلى أركان فيلقى مهندسى التعدين

طبقا للتعليمات المعطاة لى من الأركان أتشرف بأن أبلغكم بأنى مهندسى التعدين ، المرسلين من لدن باشا مصر ، الدهشورى وعلى محمد ، واللذين عملا طوال شهر نوفمبر فى مكامن بيريوزوفسك ، قد غسلا شخصياً أكثر من 500 بود من الرمل الحاوى ذهباً فى التى عسيل بدويتين ، إضافة إلى ذلك كانا يطلعان يوميا بصورة عملية على نماذج آلات غسل الذهب التى

صنعت لأجلهما لكى يستطيعا تجميعها بنفسيهما فى المكان المفروض و دراسة أجزائها بالتفاصيل فى حال صنع آلة تحت إشرافهما فى مصر. أرى من واجبى أن أضيف إلى ذلك أن دروسهما تتوقف غالباً بسبب مرض أحدهما ، و الآن أصيب الدهشورى بالذكام.

أنجزت المهمة - التى استمرت عاماً كاملاً - بنجاح. لكن محمد على باشا لم يكتف بما تحقق ، وكان يرى رأياً آخراً.

إذ عاد فى عام 1847م لطلبه القديم بأن ترسل روسيا مهندسين من لدنها للمعاونة فى إنشاء هذ الصناعة بمصر ، بعد أن تيقن أبناؤه - محمد على و عيسى الدهشورى- من أن مصر تحتاج إلى هذه الصناعة. ولم يأن الإمبراطور الروسى جهداً فى دراسة طلب الوالى المصرى وأشر عليه بخطه : "خاضع للتنفيذ".

وهكذا ..

وصل مقدم فيلق مهندس التعدين - كوفاليفسكى - الموفد بالإدارة الإمبراطورية السامية لمصر يرافقه عاملاً تعدين ، ومهندس فى العلوم الطبيعية لميناء الإسكندرية على متن باخرة قادمة من-أوديسا- فى 23 نوفمبر 1847م.

الموفدون الروس جرى استقبالهم بميناء الإسكندرية رسمياً ، وبباخرة خاصة تم نقلهم للقاهرة للقاء- الوالى- لدراسة خططهم ، وخرجوا من معية الوالى ليرسل الوالى "محمد على" بنفسه خطاباً للإمبراطور الروسى يشكره على إيفاده للمهندسين الروس الذين وصلوا بحمد الله للديار المصرية.

من بين وثائق الإمبراطورية الروسية ، نشرنا - فى معرض قراءتنا لبعض هذه الوثائق- نص رسالة طريفة تتعرض للترتيبات الخاصة بهذه البعثة إلى مصر ، و ما خصصته روسيا لتحويلها ، و كان نص هذه الرسالة ما يلى :

من أركان فيلق مهندسي التعدين إلي الكونت نيسيلروديه

سان بطرسبورج ، 23 أغسطس 1847 ، رقم 4412

سيدي الكريم كارل فاسيلييفيتش

عطفاً علي الرسالة الموقرة من سموكم ، المؤرخة في 12 من أغسطس (آب) الجاري تحت رقم 2498 ، تشرفت بأن أرفع تقريراً إلى السيد الإمبراطور عرضت فيه مايلي :

1 – أن يوفد إلي مصر لتنظيم معالجة الرواسب الحاوية ذهباً مساعد رئيس التعدين لمصانع زلاتوأوست المدير المؤقت لهذه المصانع مهندس التعدين المقدم كوفاليفسكي بوصفه ضابط أركان ملماً بإنتاج الذهب ، و مطلعاً كفاية علي العادات الآسيوية أثناء مأمورياته المتكررة إلي الخارج ، ومعروفا جيدا لدي وزارة الخارجية بتنفيذه تكليفات مختلفة . أما بالنسبة للمعونة الضرورية لضابط الأركان هذا في التكليف المسند إليه ، فينبغي أن يرسل معه معلم تعدين واحد وغاسل ذهب واحد .

2 – تعيين معاشات لهؤلاء الموظفين لقاء عملهم خارج البلاد : للمقدم كوفاليفسكي 50 روبلا ذهبا في الشهر ، و لمعلم التعدين 6 روبلات ذهباً ، و لغاسل الرمال الحاوية 4 روبلات ذهبا ، فضلا عن المعاش لقاء عملهم داخل البلاد حسب قوانين المعاشات في التعدين ، أما لدي إرسالهم فينبغي أن يخصص لهم للتنقل عبر روسيا نصف المعاش السنوي المخصص للعمل في الخارج دون أي خصم منه ، و لنفقات الطريق من حدود روسيا إلي الإسكندرية : لكوفاليسكي .

225 روبلاً ذهباً ، وللآخرين 85 روبلاً لكل ذهبا لكل واحد ، وفضلا عن ذلك وضع 250 روبلا ذهباً تحت تصرف كوفاليفيسكى للمصاريف الطارئة ولمواصلة تنقل موظفى التعدين من الإسكندرية حتى مكان وجود الرواسب الحاوية ذهبا ولشراء أدوات لازمة للأبحاث العلمية ، وغير ذلك ، على أن تترك له حرية إنفاق هذه النقود حسبما يرتأى فى حال الضرورة أو حسب تعليمات قنصلنا فى مصر، ولكن بحث يقدم حساباً مناسباً لهذه النقود .

3 ـ إن مبلغ النفقات المحسوبة وفق الكشف التقديرى والمخصص لمأمورية المقدم كوفاليفيسكى المفترضة إلى مصر لمدة عام واحد والمقدر تقريباً بسبعة آلاف وتستعمائة وواحد وستين روبلا ذهباً وأربعين كوبيكا فضة ينبغى نسبة إلى حساب خزينة الدولة .

4 ـ تكليف القنصل العام الروسى فى بما : لدى وصول المقدم كوفاليفيسكى إلى هناك إيلاء العناية اللازمة لضابط الأركان ، هذا والايعاز له بأنه إذا طرأت ضرورة تمديد إقامته فى

مصر أكثر من واحدة فينيغى أن يخبر بذلك قبل الأوان .

إن جلالته الامبراطورية تكرم فى 22 أغسطس (أب) الجارى ، بأن كتب بخط يده على التقرير "خاضع للتنفيذ".

وإننى إذ أتشرف بإبلاغ سموكم بهذه الارادة السامية ، أطلب منكم طائعاً سيدى الكريم . الاستعجال فى إصدار الأمر بإيلاء المقدم كوفاليفيسكى مع موظفى التعدين العناية الحميدة من جانب قنصلنا فى مصر ارى من واجبى أن أضيف إلى ذلك أننى أقترحت فى الحال على السيد الرئيس العام لمصانع الأورال إرجاع السيد كوفاليفيسكى دون إبطاء الى سان بطرسبورغ فور تنفيذ المهام الموكلة إلية و إرجاع معلم التعدين وغاسل الرمال إلى أوديسا مباشرة، بحيث يصلا إلى هناك فى أواخر أكتوبر المقبل ، ولدى وصول السيد كوفاليفيسكى إلى هنا يجب أمره بالحضور الى هنا و يجب أمره بالحضور الى سموكم لنيل التعليمات المناسبة للتكليف المسند إليه .

استمرت البعثة الروسية لمصر قُرابة العام – وكان يرافقها طوال هذه الفترة المهندسان المصريان (محمد على و إيليا الدهشورى) – وأنجزت البعثة مهمة إنشاء أول معمل لإستخلاص الذهب فى - كسان - حيث شيد المعمل بآلاته وأدواته وبدأ فى الانتاج فعلاً ، وعادت البعثة لبلادها لتجد التكريم الإمبراطورى اللائق .

من فرونتشنكو إلى نيسيلروديه سان بطرسبورغ ، 20من أكتوبر1848

سيدى الكريم كارل فاسيلييفيتش

إن محتوى الرسالة الموقرة لسموكم بتاريخ 6 من أكتوبر (تشرين الأول)الجارى تحت رقم 3420 بصدد مكافأة مهندس التعدين المقدم كوفاليفيسكى بالرتبة التالية ، رتبة عقيد ، لقاء الأعمال ، التى قام بها فى مصر لدى أدائه التكليف المسند إليه ، قد أسعدت بأن أرفعه إلى الرأى الرسمى للسيد الإمبراطور ، مضيفاً من جهتى أنه يوجد الأن فى قائمة مهندسى التعدين فى رتبة أعلى من السيد كوفاليفيسكى بضعة مهندسى تعدين برتبة مقدم يشغلون مناصب هامة مختلفة ويستحقون كلياً أيضاً ترقيتهم

إلى الرتبة التالية ، وقد تكرم صاحب الجلالة برحمته الفائقة فى 15 أكتوبر(تشرين الأول) الجارى بمنح المقدم كوفاليفيسكى وسام القديسة أنا من الدرجة الثانية .

واننى ، إذ أتشرف بإبلاغ سموكم بهذا العطف الملكى ، أطلب منكم طائعاً .

سيدى الكريم ، قبول فائق إحترامى وولائى

فرونتشينكو

ما بين الرسالة التى أرسلها فيلق مهندسى التعدين إلى الكونت كارل فاسيلييفيتش ، و ما بين التكريم الإمبراطورى الذى ناله المقدم كوفاليفيسكى مهندس التعدين تأتى قصة هذا الكتاب (ذهب سنار) أو (البحث عن الذهب) .

فالكتاب هو بحث تاريخى عن مخطوطة كتبها خبير التعدين "إيفان بارودين" الذى قَدِم لمصر وفقا لمرسوم صاحب السعادة الامبراطور نيكالاى بافلافيتش ، دعماً للمقدم كاناليفسكى - الذى سبقه لمصر - لانشاء وتطوير معالجة الرماد واستخراج الذهب منه .

كان إهتمام محمد على باشا بدعوة روسيا للمشاركة فى البحث عن الذهب بالسودان كبيراً ، وقد صحب بنفسه وفوداً أجنبية إلى السودان مابين عامى 1838 ، 1839 لدراسة آفاق صناعة الذهب واستخراجه ،وقد كان هذا الأمر مجال إهتمام الاوربين من الايطالين وفرنسيين ونمساوين ،وغيرهم .

كانت روسيا آنذاك - وربما مازالت - دولة متقدمة فى فى مجال التعدين ، ذائعة الصيت فى العالم ، حيث شكل الذهب الروسي اكثر من 40% مما يستخرج فى العالم قاطبة ،وصارت روسيا ذات مكانة متميزة فى السوق العالمى .

يستدعى الكتاب الذى بين أيدينا هذه القصة بإسهاب ،وهى قصة تتجلى فيها أموراً عديدة ، يحكمها الإهتمام الزائد با نجاح مهمة التعاون مصرى - روسي فى كشف أسرار إستخلاص الذهب ، وقد فاض

الكيل آنذاك بحيل غربية لنهب الثروات فى سلطنة سنار - الخاضعة لحكم الوالى كسلطنة سودانية .

قدم الروس لمصر تكنولوجيا غسيل الرمال الحاملة للذهب ، بعد إكتشاف

ذرات للذهب تحت طبقات الرواسب عبر تيارات الأنهار ، وهو ما كان يحلم به الوالى المصرى .

لكن هذا لم يكن كافياً ، فقد كشفت مخطوطة "إيفان بارودين" عن تكملة قصة "البحث عن الذهب" ، حيث لم تنته رحلة على محمد وعيسى الدهشورى بعودتهم لبلادهم ، إذ سرعان ما قدم لمصر كافاليفسكى ورفاقه لزيارة السودان عندما أوضح المهندسان المصريان - بتجارب أجرياها بنفسهما - جدوى إستخراج الذهب من رمال كاسان ،وشرق السودان .

ومابين أوديسا ،فإسطنبول ، فالإسكندرية ،فأطفيح وحتى القاهرة يحكى "بارودين" تفاصيل رحلة - مملة - عبر نهر النيل ليفاجأ بفوضى فى إستقبالهم فور وصولهم للمدينة .

لقد رأى الروس القادمون للقاهرة شكلاً للحياة اليومية فى عهد محمد على يختلف كثيراً عما ألفوه فى بلادهم :" من شقتنا نرى ميداناً غير مكتمل يتجمع الناس فيه - بعضهم يدخن والآخر يشرب عصير الليمون ،وبئر ترفع منه المياه بواسطة ثيران ".

أدهشهم أن سلطات المدينة كانت تجمع الصبيه والصبايا لتنظيف الميادين ، وكان هؤلاء الصبيه والصبايا مقسمون إلى ثلاثة أقسام ،الاول يجمع القمامة فى سلال ،والثانى يغنى ، والقسم الثالث يهرع بالسلال المملؤه بالقمامة لأماكن تجميعها ،وكانت سطوة جهاز الدولة فى الشرق هو ما لفت الأنظار .

لقد كان رأى الكثيرين أن محمد على فعل الشئ الكثير من أجل إعمار مصر. وتعجب الرحالة الروس من "عبقرية" مؤسس مصر الحديثة،الذى " استطاع بالإصلاحات الداخلية أن يتفوق على الأقاليم المجاوره له.

زراعة أشجار التوت والنخيل ،والقطن ومحاصيل انتاجية أخرى كثيرة ، التى كانت غريبة عن مصر قبل ذلك ، وكذلك بناء العديد من الورش والمحلات ، والمدارس ، والترسانات - كل هذا دليل على مجهود جبار" . بيد أنه لم يستطع القادمون من روسيا غض الطرف مرة أخرى عن ثمن كل تلك الإصلاحات :" لم يكن محمد على - الذى يحظى بالإحترام فى سوريا ، والذى يدعى بالرهيب فى الجزيرة العربية ، كما عرف با نحيازه لأفريقيا - ليبرز بين سلاطين الشرق لولا معانة الشعب بالجهد المضنى تارة ،وبالضرائب تارة أخرى ، تحت نير الإحتكار الجائر ، الذى لا تصب ثرواته إلا فى خزينة الباشا ". ومن القاهرة إلى بنى سويف

فأسيوط فجرجا فطيبة فالأقصر والكرنك ، فأسوان ، فجزيرة فيله فعبور خط الاستواء عند قرية كالابشا ، فكوروسكا ، فصحراء النوبة وصولاً إلى سلطنة سنار يحكى الروس ما رأته أعينهم فى هذه المحطات .

كان وصول الروس مواكباً للإنهيار الذى أصاب السلطنة على إثر حملة القوات المصرية التى قادها إسماعيل ـ ابن محمد على باشا .

حاولت قبائل شاريجى المقاومة ، الإ أنهم لم يصمدوا أمام قوة و تنظيم جيش إسماعيل ، فدخلت القوات المصرية الى واد – مدنى حيث استسلم السلطان بادى الخامس سلطان سنار أمام إسماعيل باشا.

لكن ثائرة الثوار لم تخمد ، واندلعت ثورات فى 1822 ولقى إسماعيل بك حتفه على أيديهم فى طريق عودته لمصر .

وقاد صهر محمد على حملة إنتقامية قضى فيها على ما يقرب من 50 الف مواطن من سنار ، وغدت سنار تحكم كغيرها من الولايات بحكمدار مصرى.

وصلت البعثة الروسية إلى شندى فى فبراير ، ومنها للخرطوم فواد مدنى فسنار ، وهى مدينة كانت تحتل المرتبة الثانية فى أفريقيا – بعد القاهرة – من حيث عدد السكان الذى بلغ مائة ألف.

مع وصول البعثة لمقصدها ، حيث بدأ العمل فى بناء ورشة غسل الرماد لجمع الذهب ، و يحكى الروس ما أحاط بهذه الورشة من تجهيزات وأعمال .

ومع بدء دورة العمل إذ بالروس يكتشفون أن أسلوب الغسل اليدوى للرمال غير فعال بالمرة ، ناهيك عن نقل الرمال بالجمال . كان الأمر يبدو وكأنه ليس للزمن أى حساب .

عمل الروس على إدخال تعديلات على عمل هذه المنظومة ، فلم يكن هناك مناص من ميكنة العمل فى المنجم . وهكذا .. تم نصب أربعة آلات و آلة مجرية أخرى ليبدأ العمل فى السير على قدم وساق.

كان كافاليفسكى نفسه راضياً عن نتائج بعثته ، وتمكن من إكتشاف رمال غنية برواسب الذهب والعمل لبناء ورشة لذلك، وهكذا فقد كان بناء الورشة فى منطقة كاسان " أمراً مفيداً جداً " .

كما أشار لذلك فى خطابه إلى الوالى محمد على ، مع نصائحه بأهمية استغلال هذه المنطقة لتطوير صناعة استخراج الذهب .

لقد شارك قرابة مائة جندى فى وداع البعثة الروسية الأولى للتعدين ، وأهدى خالد باشا خمسة جنيهات لكافاليفسكى لشراء الفودكا ، ومثلهم لرفيقه وخادمه.

قبل الرحيل كتب كافاليفسكى خطاب وداع لاصدقائه المصريين مسدياً نصائحه لهم ، مشدداً على ضرورة متابعتهما اليومية للورشة ، فالذى لا يحضر للورشة ولو ليوم واحد .. لا يستحق أن يحمل هذا اللقب ، استمروا فى التنقيب عن مكامن الذهب ، وإذا نضبت .. إبحثوا عن مناطق جديدة تتوافر بها مواد خام أكثر من سابقتها ".

أنها قصة واقعية ممزوجة بعبق التاريخ ، تنقلنا عبر الزمان ، لتقص علينا حكاية البحث عن الذهب التى شارك فى صنعها حاكم واع إستعان بمهندسيه ماداً يد التعاون لصديق كان – آنذاك - ،وأثق أنه مازال مرحباً بأن يقدم للبلاد ما تحتاجه من تكنولوجيات وخبرات .

منذ ذلك التاريخ ... وحتى الآن مازالت تتردد فى ذاكرة الشعبين المصرى و الروسي تلك المحطات الهامة التى وقفت فيها روسيا بقوة، وبمبدئية مع الشعارات التى رفعتها مصر بالاستقلال ،وساندتها فى معارك تاريخية بدءا من ملحمة بناء السد العالى ، و إنشاء القاعدة الصناعية المصرية فى الستينات ، بناء القوات المسلحة و حرب الاستنزاف المجيدة التى قادت لنصر أكتوبر 1973 ...

لقد إستمر الموقف الروسي على نصرته للقضايا العربية ،وصار موقفه من ثورتى الشعب المصرى فى 25 يناير 2011 ،و30 يونيو 2013 ، إلى جانب نصرته للشعب السورى فى معركته ضد الإرهاب صار هذ الموقف شاهداً على هذه النصرة .

فإلى صفحات منسية من تاريخ هذه العلاقات عمل على ترجمتها – لأشهر – الدكتور وليد طلبه حيث اجتهد بصياغته الرشيقة ، وترجمته الصادقة لينقلنا لأجواء تاريخية جميلة .

الناشر

رئيس الجمعية المصرية الروسية للثقافة و العلوم

رئيس مجلس إدارة و رئيس تحرير أنباء روسيا

إبريل 2014



اكتُشفت المخطوطة التي يدور حولها محور الحديث فى هذا الكتاب فى الأرشيف الحكومي بمقاطعة (سفيردلوفسك) خلال عدة سنوات بعد نهاية الحرب الوطنية العظمي* . إنه دفتر ذو غلاف كثيف بني اللون . وبعد فتحه تمكن مسئولو الأرشيف السوفييتي من قراءة مستهل ذلك المقال ، الذي سرعان ما نقلهم إلي عصر مختلف تماماً ، كمن ركب آلة الزمن عائداً للوراء مائة عام :

« بعثة خبير التعدين " إيفان بارودين" إلى مصر . الثانى عشر من أكتوبر عام 1847 . وفقاً لمرسوم صاحب السعادة " الإمبراطور نيكولاي بافلافيتش" حاكم ربوع روسيا ، وبأمر عالٍ تم إيفاده إلى مصر لدعم مهندس التعدين المقدم " كافاليفسكي" لإنشاء وتطوير آلات صناعة الذهب » .

---

* يطلق الروس مصطلح " الحرب الوطنية العظمى " على الحرب العالمية الثانية (1941 – 1945) " المترجم "

إنها عجيبة من عجائب التاريخ – تلك كانت أصداء هذه السطور على المجتمع السوفييتي بعد الحرب ، كما كانت في الوقت نفسه بمثابة تحفة مدهشة وانعكاس لأحداث ماض سحيق كان من الصعب أن يثير إهتمام طبقة عريضة من القراء . فالمناخ الذي كان يعيشه السوفييت فى تلك الأعوام يختلف تماماً عن مثيله في عصر روسيا القيصرية إبان " نيكولاي بالكين " . فعلى ما يبدو أن من نجا من التجارب المريرة في الحرب الوطنية العظمي لا يمكنه إبداء اهتمام ببعثة خبير تعدين غير معروف إلى بلد بعيد: كمصر . والأكثر من ذلك فإن البلَد المشار إليه ، حيثما كان البريطانيون يحتلون مكانة كبيرة فيه ، ظل فى أذهان الناس إحدى العجائب ، التي لا تثير اهتمام سوى قلة من المتخصصين .

تغير الموقف بشكل جذري بحلول النصف الثاني من خمسينيات القرن العشرين. أخذ الاستعمار في أفريقيا بالتلاشي علي نطاق واسع مما وضع القارة السمراء فى بؤرة الاهتمام . كما انضم العالم العربي إلى الركب أيضاً ؛ حيث بدأ تعاون كبير بين مصر والاتحاد السوفييتي تحت قيادة " جمال عبد الناصر " .

ها هي ذكريات دفتر بني اللون بسيط ملقي في أرشيف سفيردلوفسك .

ويبدو جلياً أن التعاون بين بلدينا بدأ حتى قبل إلغاء حق الإقطاع . بل من المدهش إدراك أن روسيا القيصرية كانت تقدم العون لمصر من أجل الارتقاء بصناعة استخراج الذهب عن طريق إيفاد متخصصين إلى البلد العربي البعيد. كل هذا كان متزامناً مع عملية التقارب السوفييتي العربي الذي تطور فى النصف الثانى من الخمسينيات .

كان " أناتولي جريجوريفيتش كازلوف " (1925 ـ 1984) أول من عرَف القارئ السوفيتي على مخطوطة " إيفان بارودين ". ويجدر الحديث عن هذا الرجل بشكل خاص . فقد ولد بمنطقة كيروف*، وأنهى الدراسة فى كلية التاريخ بجامعة الأورال الحكومية عام 1956 . عمل أكثر من عشرة أعوام مساعداً لقسم الأرشيف بمحافظة سفيردلوفسك . علم "أناتولي جريجوريفتش " فى تلك الأعوام تحديداً بوجود هذه المخطوطة. وقام " أ. ج. كازلوف " فى عام 1955 بنشر رسالة معلوماتية قصيرة عن هذه التحفة علي صفحات جريدة «عامل الأورال»؛ حيث أشار إلى أن « يوميات مسافر» ـ (كما حالف التوفيق موظف الأرشيف الأورالي فى الإشارة إلى مقال بارودين) ـ « تصف الكاتب كشخص قوي الملاحظة».[1]

1 - انظر: أ. كازلوف. رحلة خبير التعدين إ. بارودينا

* - كيروف – إحدى الكيانات الفيدرالية فى غرب روسيا . (المترجم)

تمكن " أناتولي جريجوريفيتش " بعد عدة سنوات من نشر معلومات محدودة عن هذه المخطوطة على صفحات مجلة « قصاص الأورال» المنتشرة بين سكان الأورال فى ذلك الوقت . إنها أقصوصة صغيرة تتكون من ثلاث صفحات فقط . وقد عبًر مؤرخ الأورال عن حالته النفسية في نفس اللحظة ، التى تعرف فيها على تلك المخطوطة ، مما أضفي قيمة عليها . انتابت مؤلف هذا الكتاب - أثناء قراءة تلك السطور - نفس المشاعر ، التي راودت موظف الأرشيف الروسي فى الخمسينيات . وذكر " أ. ج. كازلوف" : «تمتلئ الصفحات المُصفرة بسطور مكتوبة بخط صغير ، بينما هناك تصحيحات للكاتب بالقلم الرصاص فى عدة مواضع . وتلاشي الحبر فى صفحات أخرى مما شكل صعوبة في قراءتها . وعلى الرغم من ذلك فقد كللت الجهود بالنجاح بعد قراءة الدفتر كاملاً يتضح أن تلك اليوميات تُعد أمتع اليوميات التى كتبها عامل بمناجم الأورال أثناء سفره إلى " بلد الأهرامات " - مصر فى منتصف القرن الماضي »[2] .

ويمكن القول: لا يوجد أفضل من هذا . لم يكن " أناتولي جريجوريفيتش كازلوف " متخصص فى العمل بأفريقيا . ولكن بصفته متخصص فى تاريخ الأورال أثارت اهتمامه حقيقة أن عاملي الأورال كان لهم دور كبير فى تطوير صناعة استخراج الذهب فى البلاد الإفريقية البعيدة . لهذا فقد أشار فقط إلى المراحل الرئيسية لرحلة " إيفان بارودين" . وبعد أن روى المحاور الرئيسية داخل تلك المخطوطة أفصح موظف الأرشيف من جديد عن المشاعر التى اعترته: « بعد طوي الصفحة الأربعين من ملف الأرشيف النادر تستغرق في التفكير بلا وعي وتستحضر فى الذاكرة صورة صديقنا المعروف " أفاناسيا نيكيتين " ، صاحب المؤلف الشهير " رحلة وراء ثلاثة بحار " » . يعد " أفاناسيا نيكيتين " من أوائل الأوروبيين ، الذين وصفوا الهند فى القرن الخامس عشر . وكان " إيفان بارودين " من أوائل الأوروبيين فى القرن التاسع عشر الذين وصلوا إلى أعالي نهر النيل ، كما أدلى بدلوه في الدراسات الجيولوجية لأحد أقدم بلاد الشرق»[3] .

ظلت هذه المقالة الصغيرة على أية حال أشهر وثيقة تتحدث عن مخطوطة " إ. ت. بارودين" . وتمكن " أ. ج. كازلوف " فى عام 1958 نفسه من نشر مادة صغيرة عن تلك التحفة الأرشيفية على صفحات الصحافة المحلية - فى صحيفة "روسيا

2 - أ. ج. كازلوف . أهل الأورال فى بلاد الأهرامات . قصاص الأورال . سفيردلوفسك ، 1958 . النسخة الأولي . ص 60.

3- نفس المرجع . ص 63.

السوفييتية"[4] . لم يكن هذا من قبيل الصدفة ، بما أن موضوع التعاون السوفييتي العربي كان الشغل الشاغل فى ذلك الوقت. فقد أدت حرب السويس ، وبداية التعاون الاقتصادي الفعّال بين الاتحاد السوفييتي ومصر إلى بروز مثل تلك المواضيع على صفحات الصحف والمجلات السوفييتية . والأمر الأبرز هو ظهور مقالة خاصة فى شهر مايو 1958 فى صحيفة " سفيردلوفسك المسائية " تحتوى على مجموعة من الحقائق بشأن تاريخ التعاون بين روسيا والدول العربية [5] . وما تم ذكره هو احتواء الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك على يوميات لبارودين ، وكذلك وجود « نسخة كبيرة » فى مكاتب الأرشيف بسفيردلوفسك ولينينجراد تتعلق برحلات المهندسين المصريين إلى الأورال فى الأربعينيات من القرن التاسع عشر. والمدهش أن نشر تلك المادة على صفحات صحيفة محلية فى ذلك الوقت لم يكن من قبيل الصدفة ؛ فقد كان انعكاساً للتوجه العام لتنشيط التعاون السوفييتي العربي . ومن المميز وجود مقالة كبيرة فى عدد الجريدة نفسها بقلم " ج. كارابيتيان "، وهو مصمم فى مصنع " أورال ماش للصناعات الثقيلة " ، حيث تتحدث تلك المقالة عن رحلته إلى معرض دولي فى دمشق . تتخلل المقالة أفكار حول الصداقة بين الاتحاد السوفييتي والعالم العربي ؛ وتختتم بشعار تبناه الكاتب : «العرب والروس سوياً! »[6] .

كان خبير التعدين الأورالي وكاتب المخطوطة المحفوظة بالأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك " إيفان بارودين " عضواً بالبعثة ، التى ترأسها الرحالة الروسي المشهور " إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي " فى وقت ما[7] . وكان

4 - أنظر.: الكاتب نفسه . المهندسون العرب فى الأورال . روسيا السوفيتية . 1958 . 11 مايو.

5 - انظر.: وثائق عن التعاون الروسي العربي . سفيردلوفسك المسائي . 1958 . 10 مايو.

6 - ج. كارابيتيان . « العرب – الروس، سوا سوا! » . سفيردلوفسك المسائية . 1958 . 10 مايو .

7 - إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي (1809/1811 – 1868) – شخصية حكومية واجتماعية مرموقة ومراسل وعضو شرفي في أكاديمية بيتيربورج للعلوم ، رحالة ومستشرق . أنهى الدراسة بقسم الفلسفة بجامعة خاركوفسكي . منذ عام 1829 التحق بالخدمة فى قسم التعدين . شارك فى بعثات إلي الجبل الأسود ووسط آسيا وشمال شرق أفريقيا والصين . ترأس فى عام 1856 الإدارة الأسيوية التابعة لوزارة الخارجية . عمل منذ عام 1861 سيناتور وعضواً بوزارة الخارجية . أحد مؤسسي جمعية مساعدة الأدباء والعلماء المتعثرين (صندوق الأدب) ورئيسها الدائم .

الأخير مناصراً للرؤى التقدمية القريبة من فكر " بيتراشيفسكي" [8] ، مما جعله شخصية تحظى باهتمام الباحثين السوفييت . ولعل الباحثة " ب. أ. فالسكايا " كان لها الدور الأكبر فى دراسة سيرة حياة وأعمال " إ. ب. كافاليفسكي" . وقامت " ب. أ. فالسكايا " فى النصف الثانى من الخمسينيات – عندما بدأت صحافة الأورال بالكتابة عن مخطوطة بارودين – بنشر عدد من الأعمال التي تتناول كافاليفسكي ومن بينها رسالة علمية[9] .

تمثل حملة " إ. ب. كافاليفسكي " فصل شيق للغاية من فصول تاريخ العلاقات الدولية لمستخرجي الذهب الروسي . ولهذا ليس غريباً أن يجذب هذا الموضوع اهتمام هؤلاء المتخصصين ، الذين كانوا منشغلين بدراسة تاريخ صناعات استخراج الذهب فى روسيا والاتحاد السوفيتي . من المدهش أن قصة بعثة " إ. ب. كافاليفسكي " تواجدت فى الكتب الدراسية السوفييتية التى كان يدرسها طلاب معهد التعدين والفلزات وكليات الجيولوجيا. فقد خُصصت ، على سبيل المثال ، عدة صفحات لوصف هذه الرحلة فى الكتاب الشهير لف. ف. دانيليفسكي[10]. ومن الطريف أن الكاتب يذكر وجود مخطوطة بارودين فى الأرشيف الحكومي بمقاطعة سفيردلوفسك .

ولكن لم تطل الفترة التى شغل فيها موضوع العلاقات الروسية العربية اهتمام المجتمع والباحثين . بينما قل اهتمام المجتمع السوفييتي بتلك القضية بين عامي (1980,1970) . اتضح شيئاً فشيئاً أن العالم العربي يمثل ظاهرة أكثر تعقيداً مما بدا عليه فى الخمسينيات . ولم تكن من السهولة بمكان أن يبني الاتحاد السوفيتي علاقات مع كثير من دول العالم العربي (ومن بينها مصر) والتى سعي قادتها بشكل

---

8 - يقصد ب « مناصري بيتراشيفسكي » المشاركون فى اجتماعات الموظف م. ف. بوتاشيفيتش- بيتراشيفسكي . والذين كانوا ينتقدون الرقابة المشددة وحق الإقطاع وفساد البيروقراطية . حكم عليهم بالإعدام فى عام 1849 ، ولكن تم العفو عنهم قبل تنفيذ الحكم مباشرة . كان الكاتب الروسي الشهير ف. م. داستايفسكي أحد أعضاء «مناصري بيتراشيفسكي » .

9 - انظر.: ب. أ. فالسكايا . رحلة « إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي » موسكو ، 1956 ; الكاتب نفسه . الأكاديمي ك. م. بير عن رحلات إ. ب. كافاليفسكي إلي مصر والصين فى الأربعينيات من القرن التاسع عشر// بلاد وشعوب الشرق . موسكو ، 1959 ، الإصدار الأول .

10 - انظر.: ف. ف. دانيليفسكي . الذهب الروسي . تاريخ اكتشافه واستخراجه حتى منتصف القرن التاسع عشر . موسكو ، 1959 . ص 301-295 .

حثيث إلى الاستقلال بسياستها ، ورفض الوقوع تحت وطأة نفوذ الاتحاد السوفييتي .

أدي كل هذا إلى ندرة المعلومات الواردة عن خبير التعدين الأورالي " إيفان بارودين " ، ورحلته فى الإصدارات المنتشرة بين جموع القراء (وخاصة فى الصحافة اليومية) . وشيئاً فشيئاً أصبح الاهتمام بتلك القضية مقتصر على الأوساط الأكاديمية فقط . واستمرت " ب. أ. فالسكايا " فى الإشارة إلى تاريخ حملة " إ. ب. كافاليفسكس" .

وما ميز أعمالها اعتمادها على مجموعة كبيرة من المصادر، معظمها من مكاتب الأرشيف بلييننجراد ، أو على الأرجح من الأرشيف المركزي الحكومي التاريخي ، وقسم المخطوطات بالمكتبة الحكومية العامة باسم "م. ي. سالتيكوف شيدرين"[11].

وقل ظهور مقالات عن هذا الموضوع فى صحافة الأورال ، بينما بدأ الاهتمام بهذا الموضوع يظهر بمدينة زلاتؤوست * فى جنوب الأورال. ولم يكن ذلك من قبيل الصدفة ، حيث أن حياة إيفان بارودين ، وعمله ارتبطا بمناطق التعدين فى زلاتؤوست . وظهرت فى منتصف السبعينيات فى الصحافة المحلية مقالة قصيرة عن الحملة الروسية إلى مصر والسودان ، كان كاتبها المؤرخ المحلي " أ. ليبرمان " . واستعان الكاتب بمذكرات " إيفان بارودين " من وقت لآخر ، معتمداً على أجزاء كاملة منها[12].

ولم يغفل " أ. ج. كازلوف " عن ذكر " إيفان بارودين " ؛ حيث كان فى ذلك الوقت عالماً كبيراً فى الأورال ، بل إنه كان واحداً من المتخصصين البارزين فى تاريخ التعدين بالأورال . وأصبح " أ. ج. كازلوف " أثناء عمله بجامعة الأورال الحكومية

---

11 - انظر.: ب. أ. فالسكايا . معلومات جديدة عن رحلة « ي. ب. كافاليفسكي » إلي مصر ، شرق السودان وغرب أثيوبيا // بلاد وشعوب الشرق. موسكو ، 1965. الإصدار الرابع ، الكاتب نفسه . ي. ب. كافاليفسكي والمستشرقون الروس // تقارير اللجنة الشرقية للجمعية الجغرافية بالاتحاد السوفيتي . 1965. الإصدار الأول ، الكاتب نفسه . رصيد الجمعية الروسية الجغرافية فى دراسة أفريقيا // بلاد وشعوب الشرق. موسكو، 1969. الإصدار التاسع ، الكاتب نفسه . ي. ب. كافاليفسكي والمهندسون المصريون فى الأورال وشرق السودان (مصادر غير منشورة) // بلاد وشعوب الشرق . موسك ، 1973 . الإصدار الخامس عشر .

12 - انظر: أ. ليبرمان . الأوراليون فى مصر// عامل زلاتؤوست . 1976 . 11 سبتمبر .

* زلاتؤوست – إحدى مقاطعات منطقة شليبينسك بالأورال (المترجم) .

عام 1962 أحد مؤسسي قسم الأرشيف القديم في كلية التاريخ . وترأس فيما بين عامي (1974 و 1975) قسم علوم الأرشيف بكلية التاريخ[13]. وبرز اسم خبير التعدين " إيفان بارودين " فى واحد من أبحاثه العلمية الأخيرة، وهو عبارة عن كتاب سيرة ذاتية تحت عنوان « مبدعو العلم والتقنية فى الأورال » وصدر فى عام 1981 – بجانب أسماء " إ. إ. بالزونوف " ووالد وابن شيريبانوف[14].

ساعد وضع التأريخ الجديد في روسيا - بعد انهيار الاتحاد السوفييتي فى التسعينيات - على اتساع رقعة القضايا التى بدأت تجذب انتباه الباحثين . وكانت الظاهرة الأبرز حينها ظهور أحد أفرع العلم وهو التأريخ المحلي . ومن الطبيعي فى تلك الأجواء أن يزداد اهتمام باحثي الأورال بتاريخ استخراج الذهب فى المنطقة .

وكان كتاب " أ. ف. مانين " ذو الصبغة العلمية المتعارف عليها أكثر الأعمال الشيقة التي تناقش هذا الموضوع . لم يكن الكاتب ، الذى خصص كتابه لدراسة تاريخ صناعات استخراج الذهب فى الأورال بمعزل عن حقيقة دعوة الإمبراطورية الروسية للمتخصصين من مصر لاجتياز « دورات تدريبية» مميزة فى مصانع الأورال وتدريبهم على التقنيات الحديثة فى مجال استخراج الذهب فى منتصف القرن التاسع عشر .

ولذا كان من المنطقي تماماً أن يتطرق الكاتب إلى وصول المهندسين المصريين فى الأربعينيات من القرن التاسع عشر إلى الأورال[15]. أصدر متحف التأريخ المحلي بمدينة مياس فى عام 1997 مؤلفاً بعنوان «تاريخ ذهب مياس » ، الذى يستعرض مائتي عام من تاريخ استخراج المعادن النفيسة فى تلك المنطقة . واستعرض الكتاب المراحل الرئيسية من تاريخ منطقة صناعة الذهب بمدينة مياس فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، كما أشار إلى مهمة قائد منطقة تعدين زلاتوستوفسك – متخصص الفلزات البارز فى الأورال " ب. ب. أنوساف " . وتولي أحد أعمال "إ. يو. نيفرايفا" المتخصصة بالأبحاث العلمية بمتحف التأريخ المحلي بمدينة مياس المنشورة فى تلك المجموعة اهتماماً خاصاً بموضوع حديثنا. ويتركز العمل بشكل خاص على الرحلات الخارجية لخبراء صناعات الذهب بمياس فى القرن

---

13 - انظر: جامعة الأورال الحكومية في كتب السيرة الذاتية / المحررين م. إ. جلافاتسكي ، إ. أ. باميتنيخ . إيكاترينبورج ، 2000 . ص 223.

14 - انظر: أ. ج. كازلوف . مبدعوا العلم والتقنية فى الأورال فى القرن السابع عشر – بداية القرن العشرين . سفيردلوفسك ، 1981 . ص17.

15 - انظر: أ. ف. مانين . طبقة الذهب . إيكاترينبورج ، 1995 . ص 107.

التاسع عشر[16]. ووصفت الباحثة بإيجاز بعثة مجموعة " ي. ب. كافاليفسكي " إلى مصر والسودان ، مستخدمة فى ذلك أحد محتويات المتحف.

تعتبر رحلة خبير التعدين بالأورال إلى شمال شرق أفريقيا فى القرن التاسع عشر واحدة من أكثر الأحداث غرابة وروعة فى تاريخ التعدين بالأورال .

ولهذا من المنطقي أن يصبح الخبير فى السنوات الأخيرة محل اهتمام الصحفية " إ. م. جلادكوفا " ، التى كتبت مقالة عن هذا التاريخ[17]. وبالإضافة إلى ذلك كان منطقياً أن تلقى بعثة " ي . ب . كافاليفسكي " - التى تشكل محوراً فى تاريخ العلاقات الروسية العربية - اهتمام المستشرقين الروس فى التسعينيات من القرن العشرين وبدايات القرن الواحد والعشرين. كما ورد ذكر نفس الأمر فى دليل الجغرافيا الإقليمية المخصص للسودان ، والذى أصدره معهد أفريقيا عن السودان التابع لأكاديمية العلوم الروسية[18].

أسهم المستعرب الروسي الشهير " ج. ف. جارياتشكين " بدور كبير فى دراسة هذا الموضوع ؛ حيث أصدر فى التسعينيات كمية كبيرة من الوثائق المخصصة لحملة " ي. ب. كافاليفسكي " المحفوظة فى أرشيف السياسة الخارجية بالإمبراطورية الروسية[19]. وعلى الأرجح فقد شكلت تلك الوثائق مصدراً رئيسياً لمقال المستعرب الروسي البارز " ف. ف. بيليكوف " فى منتصف التسعينيات[20] .

استمر " ج. ف. جارياتشكين " فى مستهل القرن الواحد والعشرين فى بحث تلك المسألة بعدما قام بإصدار عدة أعمال فى مصر باللغة العربية تعني بدراسة أنماط

---

16 - انظر: إ. يو. نيفرايفا. بعثات مستخرجي الذهب بمياس فى النصف الأول من القرن التاسع عشر // تاريخ الذهب بمياس: مائتي عام . مياس، 1997. ص 86-79.

17 - انظر: إ. م. جلادكوفا. أسرار إيكاترينبورج. لقاءات ، تحريات ، ذكريات صحفي . إيكاترينبورج ، 2012 . ص 92-83.

18 - انظر: السودان. الدليل . موسكو ، 2000 . ص46.

19 - انظر: ج. ف. جارياتشكين . مصر من منظور الروس فى منتصف القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. السياسة. الاقتصاد. الثقافة // مادة علمية من سلسلة « الشعوب والثقافات ». الإصدار الخامس عشر. شعوب الشرق الأوسط. الكتاب الثانى. موسكو، 1992. ص275-233 ، 328-323.

20 - انظر: ف. ف. بيليكوف . علبة التبغ الذهبية للمقدم كافاليفسكي // معادن آسيا الأوروبية. 1996. العدد السادس.

العلاقات الروسية المصرية فى القرن التاسع عشر[21] . يدين المؤلف بالفضل حقاً لجينادى فاسيليفتش جارياتشكين صاحب الفكرة الأولي لهذا العمل، نظراً لدوره فى إخراج هذا الكتاب إلى النور ؛ حيث أن الكاتب بدأ العمل فى كتابه استنادًا لما رواه جارياتشكين. ولا يمكنني إنكار امتناني لنائب مدير الأرشيف الحكومي لمنطقة سفردلوفسك " أ. ج. سابوجنك " ، ومؤرخ الأورال الشهير والحاصل علي درجة دكتوراه العلوم " ف. أ. شكيرين " ؛ حيث ساعدت نصائحهم فى فتح أبواب تلك الحقبة التاريخية الجديدة أمام الكاتب . كما أود التعبير عن عرفاني لعالم تاريخ الأورال الحاصل علي درجة الكانديدات فى العلوم " أ. ف. ليامزين " الذى قدم المساعدة أثناء العمل بالخرائط الجغرافية .

أدرك مؤلف هذا الكتاب بمجرد العمل على مخطوطة " إيفان بارودين " ضرورة التوجه إلى موطن هذا الرجل فى جنوب الأورال . فمن زلاتوؤوست تحديداً بدأت رحلة بارودين ، وفى منتصف الأربعينيات ، وصل المهندسون المصريون إلى مناجم تعدين مياس هناك . كما أن البحث عن وثائق تاريخية جديدة – ترتبط بشكل أو بآخر بهؤلاء الأشخاص أو تلك الأحداث – قاد المؤلف إلى أرشيف مدينة زلاتوؤوست وإلى متاحف الجغرافيا الإقليمية فى زلاتوؤوست ومياس حيث تمكن الكاتب من الوصول إلى معلومات شيقة .

وكان الأهم فى ذلك الوقت مطالعته لتلك المناطق ، التى يدور حولها الحديث فى الكتاب ، بل واستشعار مناخ جبال إلمين ـ (تعليق المترجم : جزيرة في الجزء الغربي لمنطقة نوفجوراد) ـ ، التى كان " إيفان بارودين " وأصدقاؤه المصريون يسيرون عبر منحدراتها . وأثارت بعض المصادر المنشورة المتعلقة بالتعاون بين روسيا ومصر فى منتصف القرن التاسع عشر انتباه الكاتب فى هذا البحث . كما حظيت مدونات الرحالة " أ. إيه. بيرم " و" ن. ن. مورافيفـ كارسكي " و" أ. ن. مورافيف " و" أ. س. نوروف " و" أ. أ. رافالافيتش" وآخرين كانوا متواجدين فى مصر والسودان باهتمام خاص . وأبحر الكثير منهم – كما كان الحال بالنسبة لأصدقاء " إيفان بارودين" – إلى أعالي نهر النيل ، وتوقفوا فى نفس المناطق السكنية . ترى كيف كان حال الإسكندرية والقاهرة وبني سويف وأسوان ، وغيرها من مدن مصر فى ذلك الوقت؟ ، وما الانطباع الذى خلفته إمبراطورية "محمد على " فى نفوس الروس فى عهد نيكولاي الأول ؟

---

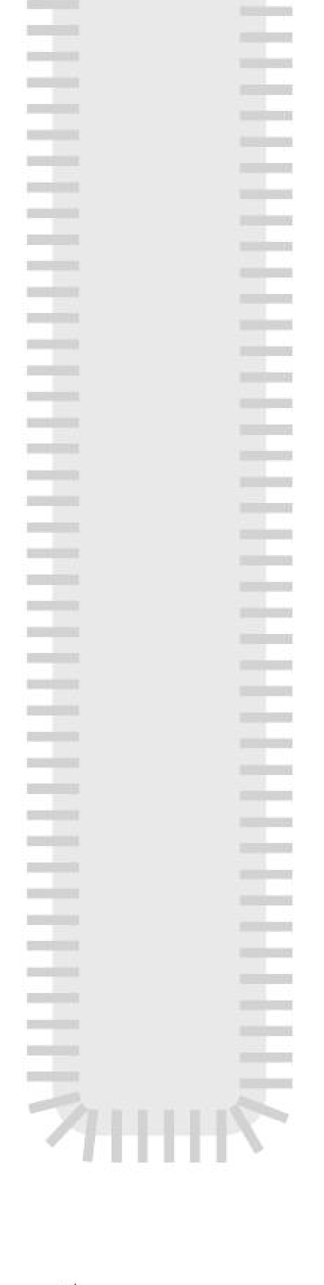
21 - انظر: ج. ف. جارياتشكين . روسيا ومصر فى ضوء وثائق الأرشيف الروسية (منتصف القرن التاسع عشر – بداية القرن العشرين). القاهرة، 2002 (باللغة العربية) ؛ الكاتب نفسه. البحث عن الذهب. من تاريخ العلاقات الثقافية بين روسيا ومصر فى منتصف القرن التاسع عشر. الإسكندرية ، 2003 (باللغة العربية) وأخرى.

يتعين عند البحث فى مخطوطة بارودين الإلتفات إلى مذكرات قائد البعثة ، التى كان خبير التعدين بالأورال " ي. ب. كافاليفسكي " أحد أعضائها .

ومن الشيق للغاية مقارنة الأخبار التى ترد فى تلك المذكرات ، ومقابلة الانطباع حول أحداث رحلة خبير التعدين ورحلة رئيسه . بالطبع تختلف مذكرات " إ. ت. بارودين " عن مذكرات " ي. ب. كافاليفسكي " .

كان " إيجور بيتروفيتش " فى تلك اللحظة مساعداً لرئيس منطقة التعدين بمقاطعة زلاتوؤوست . وهو شخص يتمتع بقدر عالٍ من الثقافة ، كما كان ممثلاً للطبقة الراقية المثقفة فى ذلك الوقت . وتردَ علىَ صفحات كتابه العديد من الاقتباسات من أعمال (هيرودوت وهومبولت)، وكثير من الكتاب الآخرين الذين كان يعرفهم جيداً . على الجانب الآخر كان بارودين من عامة الشعب .

وهذا هو ما يميز – فى كثير من الأحيان – يومياته فى السفر ، وهي عبارة عن شهادة ابن عامل تعدين عن بلد إفريقي بعيد . ويأمل المؤلف فى إكمال العمل الذى بدأه " أناتولي جريجوريفتش كازلوف " فى منتصف القرن الماضى ، وإظهار الكنوز التى يحتوى عليها الدفتر بني اللون المحفوظ فى الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك.



الفصل الأول

المهندسون المصريون فى شمال الأورال وجنوبه

لا يمكننا بأى حال من الأحوال الفصل بين تاريخ وصول المهندسين المصريين إلى الأورال وما تبعها من زيارة لبعثة " ي. ب. كافاليفسكي " إلى مصر والسودان ، وبين سيرة أحد أبرز الشخصيات في تاريخ مصر ؛ ألا وهو " محمد على" . من المعروف أن " محمد على" قد تمكن من خلال نشاطه على مستوى السياسة الخارجية من المضي قدماً نحو إنشاء إمبراطورية قوية بين عامي (1820 , 1830) .

إلا أن محاولته لعدم الاستجابة لنداء تركيا باءت بالفشل، نظراً لأن الدول الأوروبية العظمي كانت مهتمة بالمحافظة على الإمبراطورية العثمانية ، بإعتبارها قوة إقليمية مهمة . وكما أشار المؤرخ الروسي " ف. ب. ميخايلوف " ، فقد تم القضاء على دولة محمد على العظمي فى الفترة بين عامي (1839 و1841) "بإيعاز من

آرياباخ * الأوروبية"1. كان والي مصر مضطراً إلى سحب قواته من سوريا جراء إنزال فيلق من قوات المشاه النمساوي ، وقصف الخيالة البريطانية لبيروت بالمدافع . لم تكن مصر لتتمكن بعد هذا الصراع من القيام بدورها السياسي الرائد فى الشرق الأوسط كما كان الحال فى السابق . وتعرض الجيش المصري لضربة قاصمة . ولهذا أصبح "محمد على" مجبراً على تقليص أعداد قوات الجيش بشكل كبير ، والقضاء على الأسطول البحري ومعظم منشآت الصناعات العسكرية ، التي بُنِيَت فى السابق. من المنطقي أن تؤثر إخفاقات السياسات الخارجية على مستقبل نمو الاقتصاد المصري . فقد أعيد فرض الجباية السنوية - التى تقدمها مصر للإمبراطورية العثمانية - مرة أخرى ، وبشكل عام « تراجعت البنية الصناعية فى البلاد مائة عام »2 ، على حد وصف المؤرخ الروسي " ي. إ. زيلينيف " .

كانت البنية الصناعية لمصر فى غضون ذلك الشغل الشاغل لمحمد على ؛ حيث أنه اقتنع بأنها وسيلة تحقيق قوة الدولة واستقلالها . وكم كان الباحث البريطانى " إي. بيتتي" منصفاً فى ملاحظته أن « محمد على كان مجدداً ومحدثاً بالمقارنة مع العثمانيين ذوى الفكر القديم والمحافظ »[3] ، فالجهود التى بذلها "محمد على" لتطوير الصناعة والتجارة المصرية قد ساهمت بشكل كبير فى توجيه أنظار الأوروبيين للبلاد. وكان استخراج الذهب من بين قطاعات الصناعة ، التى طالما أولاها حاكم مصر اهتماماً خاصاً . فقد كان - بصفة خاصة - الاستيلاء على مناجم الذهب واحداً من أهم الأهداف ، التى كان " محمد على" ينتوى تحقيقها عن طريق عزمه القيام بحملة عسكرية على السودان فى بداية العشرينيات . ولهذا لم يكن من قبيل الصدفة أن يطلق " ي. ب. كافاليفسكي " على الذهب « المارد » ، الذى « أرَق نائب الملك (محمد على - تعليق أ. ف. أنتوشين)»، « ومصدر قلق حكام السودان على مدار عشرين عاماً »[4] . كان الهدف الآخر من

1 - * آرياباخ – مركز السلطة فى آثينا القديمة (المترجم) .
انظر: تاريخ السياسة الخارجية فى روسيا. النصف الأول من القرن التاسع عشر (من حروب روسيا ضد نابليون إلى معاهدة باريس عام 1856) / رئيس التحرير و. ف. أورليك. موسكو، 1995. ص. 326.
2 - أنظر: ي. إ. زيلينيف مصر: القرون الوسطى. العهد الجديد. سانت بطرسبورج ، 1999. ص. 245.
3 - إي. بيتتي القاهرة. تاريخ المدينة. سانت بطرسبورج ، 2007. ص. 213.
4 - انظر: مجموعة مقالات إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي. المجلد الجامس. رحلة إلى أعماق أفريقيا (مرفق بها خريطة وسبعة عشر صورة صغيرة). سانت بطرسبورج ، 1872. ص 208.

الحملة العسكرية على السودان يتمثل فى الحصول على مصادر جديدة لتمويل الجيش ، الذى بدأ للتو حملاته العسكرية الكبري .

إلا أن الإغارة علي السودان الشرقية فيما بين عامي (1820 و 1822) لم يحقق النتائج المأمولة لمحمد على . فعلى ما يبدو، لم يكن الجنود السودانيون أفضل عناصر الجيش المصري لعدم قدرتهم على التأقلم سواء على المناخ فى مصر، أو على الطعام غير المألوف لهم ، ونتيجة لذلك ارتفعت معدلات الوفاة فيما بينهم .

وفيما يخص استخراج الذهب فقد أخبر المستشارون والي مصر بأن مناجم الذهب - التى ترجع إلى عهد مصر القديمة - لم تعد تحتوى على معادن صالحة للاستخدام فى الصناعة . وقد كتب " ي. ب. كافاليفسكي " بعد ذلك عن مصير مناجم الذهب فى إحدى مناطق شرق السودان: « لم يكن استخراج الذهب كالمعتاد، بل لم تكن كميته تغطي سوى عشرين في المائة من نفقات الحامية (حصن (دول) - تعليق أ. ف. أنتوشين) »[5]. وقد سافر " محمد على" بنفسه إلى السودان - على الرغم من بعدها عن عاصمة مصر - فى عامي (1838 و 1839) بصحبة المهندسين الفرنسيين " لامبير وليفيفرا " خصيصاً لاستعراض آفاق تطوير صناعة استخراج الذهب هناك . يرجع الأمر إلى تضليل بعض الأجانب لوالي مصر ، بعد أن أخبروه بإمكانية استخراج ما بين 150 ـ 240 لوط ذهب من آلاف سنتنارات (مائة كيلوجرام . تعليق المترجم) من الرمال من إحدى مناطق شرق السودان[6].

من المعروف أن مناجم الذهب فى السودان كانت محل اهتمام الأوروبيين. ففى عام 1825 وصل إيطاليان ؛ ألا وهما متخصص علم المعادن والكيميائي " جون فورني " ، وعالم الجيولوجيا " جون بروكي " إلى منطقة سلطنة سنار . وفى عام 1833 أجرى المهندس الفرنسي " ل. م. لينان دي بيلفون " بحثاً عن مناجم الذهب فى المنطقة . كما تواجد المهندس الإيطالي " بورياني" عام 1837 فى فازوغلي (مملكة على الضفة الشرقية للنيل الأزرق على حدود إثيوبيا. تعليق المترجم) ، وهو المكان ذاته الذى تواجدت فيه مجموعة المتخصصين الروس فيما بعد . وتوصل الأخير إلى نتيجة عدم جدوى التنقيب عن الذهب فى السودان . وقد أرسل " جون بروكي " فى العام التالي مرة أخرى إلى السودان ؛ ذلك البلد الإفريقى البعيد ، ولكن وافته المنية فى الطريق . وبدلاً منه أرسل عالم الجيولوجيا النمساوي " يوزف

5 - نفس المرجع.

6 - انظر: ي. ب. كافاليفسكي. حوض النيل على الخارطة الجيولوجية // مجلة التعدين. 1849. الجزء الثانى. الكتاب الرابع. ص. 92.

فون روسيجير " ، الذى قام بدراسة جبال منطقة فازوغلي . واتضح أن رأي " روسيجير" كان مختلفاً تماماً عن وجهة نظر الإيطالي " بورياني " ، ونظراً لأن "روسيجير" كان يتمتع بسمعة كبيرة فقد تيقن " محمد على " من وجود مخزون كبير من الذهب فى السودان[7] . إلا أنه اتضح فيما بعد أن المخزون الحقيقي للمعدن النفيس كان محدوداً للغاية فى تلك المنطقة.

توضح الوثائق ، التى نشرها " ج. ف. جارياتشكين " أن " محمد علي " توجه لأول مرة فى نهاية الثلاثينيات إلى روسيا بطلبات تتعلق باستخراج الذهب . كان محمد علي مهموماً – قبل عام من بداية الحملة المصيرية لإمبراطوريته بين عامي (1839 و 1841) – بقضية زيادة معدلات استخراج المعدن النفيس فى مصر .

وكانت نجاحات روسيا فى مجال التعدين ذائعة الصيت فى العالم آنذاك ؛ حيث شكل الذهب الروسي أكثر من 40% من نسبة ما يُستخرج فى العالم ، ولهذا أصبحت روسيا المورد الرئيسي لهذا المعدن فى السوق العالمي .

ويشير القنصل العام لروسيا فى مصر " أ. ميديم " إلى اهتمام والي مصر عام 1838 « بالوصف الدقيق والمفصل للطرق الحديثة والممارسة العملية ، المطبقة فى روسيا لاستغلال الرمال التى تحوى الذهب عن طريق الصهر بدلاً من الغسيل »[8] . وفى نهاية الأمر أرسلت إلى "محمد على" وثيقة مماثلة مترجمة إلى اللغة الفرنسية ، ومرفق معها رسومات هندسية ، مما دفع "محمد علي" للتعبير عن إمتنانه للإمبراطورية الروسية.

كانت تلك الخطوة الأولى على طريق تعاون كلا البلدين فى مجال استخراج المعدن النفيس . وفى عام عام 1843 أي بعد مرور عدة سنوات توجه " محمد على" بطلب جديد إلى قيصر روسيا " نيكولاي الأول " لإرسال بعض المتخصصين الروس فى مجال استخراج الذهب إلى مصر . ولم يكن المبعوث الروسي إلى القسطنطينية " ف. ب. تيتوف " ليعترض على مثل هذا التحرك ، اعتقاداً منه أن هذا لن يساهم فى تأزم العلاقات بين روسيا والإمبراطورية العثمانية: «يبدو من المستبعد أن يثير ظهور مهندسي التعدين والأساتذة الروس فى مصر

7 - أنظر: تاريخ السودان فى الزمن الحديث والمعاصر. موسكو، 1992. ص. 30.

8 - ج. ف. جارياتشكين. مصر فى أعين الروس فى منتصف القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. السياسة. الاقتصاد. الثقافة. // اقباس من سلسلة « الشعوب والثقافات ». الإصدار الخامس عشرة. الكتاب الثانى. موسكو، 1992. ص. 233.

حنق السلطان ووزرائه ، أو أن يكن ذريعة لتفسيرات خرقاء وسيئة النية ؛ أولا: لأن الحكومة التركية كانت - على ما يبدو - لا تأبه كثيراً بثروة " محمد علي باشا" ، حتى أنها كانت ترى فى ذلك ضمانة لتوفير أقساط دفع الجزية؛ ثانياً: اعتادت الدول الأجنبية العظمي منذ القدم ، بل واعتاد الباب العالي نفسه على رؤية مصر قبلة للأجانب من جميع الجنسيات ، وكان من بينهم من يعمل فى خدمة الباشا ، بل ويشرفون على قطاعات مستقلة فى إدارته »[9] .

إلا أن وزير المالية " الكونت ي. ف. كانكرين " عارض قيام المهندسين الروس ببعثة إلى البلد العربي ، مشيراً إلى أن صناعة استخراج الذهب فى روسيا تتطور بشكل كبير ، ولا يوجد متخصصون متفرغون لهذا الأمر. ولهذا عرض على والي مصر شخصياً إرسال مهندسيه إلى الإمبراطورية الروسية . علق " ف. أ. سامارسكي " القائم مؤخراً بأعمال رئيس أركان فيلق مهندسي التعدين - مفسراً تعامل الحكومة الروسية المنطقي مع تلك المسألة - قائلا: « دعونا المصريين للقدوم إلينا فقط لتفادي إرسال ضابطنا إلى مصر؛ ظناً بأن إرسال الضابط سيعني الموت المحقق »[10] . وقد وردت فى كتاب " ج. ف. جارياتشكين " رسالة لممثلي الإدارات المختلفة فى عامي (1843 - 1844) تتعلق بالإعداد لزيارة المصريين إلى روسيا[11] .

يبدو أن الجانب الروسي كان يعلم أن مصر بها الكوادر المؤهلة للسفر لتلك البعثة الخارجية . كان " محمد علي " يولي تطوير نظام التعليم اهتماماً كبيراً. فالمدارس المتخصصة - التى افتتحها - قامت بتخريج أطباء وفنيين ومهندسين زراعيين وغيرهم . وتوافرت خبرة التدريس العملية لبعض المتخصصين الفنيين فى الخارج .

تلقي المهندسان " علي إبراهيم " و" عيسى الدهشوري " التعليم فى ألمانيا. كان لدى هذين الشابين خبرة الحياة فى أوروبا فوقع الاختيار عليهما من " محمد علي " للقيام ببعثة إلى الإمبراطورية الروسية. وصل كلا المهندسين المصريين فى أغسطس من عام 1845 إلى سانت بطرسبورج . ونظراً لأن الأورال كانت مشهورة بالصناعات التعدينية ، كان من المنطقي أن يستهل المصريان رحلتهما إلى هناك على وجه التحديد .

9 - نفس المرجع. ص. 237.
10 - مقتبس من: ب. أ. فالسكايا. ي. ب. كافاليفسكي والمهندسون المصريون فى الأورال وشرق السودان (مواد غير منشورة) // بلاد وشعوب الشرق. موسكو، 1973. الإصدار الخامش عشر. ص. 127.
11 - أنظر: ج. ف. جارياتشكين. مصر فى أعين الروس... ص. 242-238.

توجه المهندسان فى شهر سبتمبر من عام 1845 إلى شرق الإمبراطورية عبر نوفجراد الجنوبية وكازان. وتوجهت وزارة خارجية الإمبراطورية الروسية بطلب إلى وزارة المالية لتقديم الدعم للمهندسين المصريين لقبولهم فى « هيئة التعدين » ، والسماح لهم بتعلم « طرق استخراج الذهب المستخدمة في الأورال»؛ وتم تكليف مهندس التعدين والرحالة الروسي الشهير العقيد " إيجور كافاليفسكي " بمرافقة المهندسين المصريين؛ وتشير التعليمات التى حصل عليها " ي. ب. كافاليفسكي " من وزارة المالية إلى ضرورة « استقبال علي محمد والدهشوري من إدارة الشئون الآسيوية التابعة لوزارة الخارجية ، بل وتعريفهم على بعض مؤسسات العاصمة المتخصصة ، والتوجه مباشرة إلى إيكاترينبورج ، حيث سيقومان بتفقد ضواحيها ، بالإضافة إلى تفقد ورش منطقة بيروزوف ، والورش الخاصة بصناعات الذهب اليدوية؛ بعد ذلك يتوجب زيارة مناجم الذهب بمصانع جبل بلوجودات ، ثم المرور من هناك عبر إيكاترينبورج إلى مصانع زلاتؤوست للتعرف على صناعات منطقة مياسكي.

وبهذا ستستغرق الرحلة مع المهندسين المصريين ما يقرب من ثمانية أشهر»[12]. تعيّن على " ي. ب. كافاليفسكي " – بعد انتهاء الرحلة المخطط لها حتى شهر مايو 1846 – نقل مهمة اصطحاب المهندسين إلي الضابط المُعيّن فى منصب رئيس مجلس إدارة مصانع تعدين جبال الأورال ، والذى سيصطحبهم إلى أوديسا ، بينما سيظل " كافاليفسكي " فى زلاتؤوست فى انتظار المهمة التالية.

وصل المهندسان المصريان إلى إيكاترينبورج فى السادس عشر من أكتوبر 1845. ولا يخفي على أحد أن " عيسى الدهشوري " قد وصل إلى هناك مريضاً لعدم تحمله الطقس الذى يصُعب على المصريين التأقلم عليه. كان " ي. ف. كافاليفسكي " قد أشار فى خطابه الذى أرسله من كازان بتاريخ السادس من أكتوبر 1845 أن الدهشوري «على الرغم من تعافيه من المرض باق فى استراحته ، إلا أن آلام الصدر وحالة الحمي عاودته فى الطريق وتسببت فى توَقفنا بين الحين والآخر؛ بالإضافة إلى ذلك تعرض المسافر الآخر " علي محمد " إلى أزمات صحية متكررة بسبب نزلة برد على حد وصف الأطباء»[13] ، وفى حقيقة الأمر فقد ظهرت على " محمد إبراهيم " أعراض المرض أيضاً عند الوصول.

12 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 24. فهرس 23. ملف. ورقة 1.

13 - ب. أ. فالسكايا. ي. ب. كافاليفسكي والمهندسون المصريون ... ص. 130.

فى تلك الأثناء جرى الإعداد بالفعل للبرنامج الخاص بوصول الضيوف الأجانب إلى الأورال ؛ حيث تلقي " ي. ب. كافاليفسكي " آنذاك تعليمات محددة من غرفة أركان مهندسي التعدين . أشار القائم بأعمال رئيس الأركان العقيد " ف. أ. سامارسكي " فى الخطاب الموجه له بتاريخ الأول من سبتمبر 1845 أنه من الأفضل أن يتفقد المصريان مصانع تاجيل (مدينة فى مقاطعة سسفيردلوفسك . تعليق المترجم) وهى إحدى سلاسل مصانع دوميدوف ، وكذلك ورش الذهب التى يمتلكها تاجر الأورال الشهير " ياكافلوف " .

ولم يكن من قبيل الصدفة أبداً أن يقع الاختيار على أعمال تلك المصانع تحديداً كي يتم عرضها علي الضيوف الأجانب. فصناعات التعدين بالأورال فى القرن التاسع عشر كانت تحوى بين طياتها نموذجاً لمناطق التعدين ، والتى تمثل كل منطقة منها بناءاً اجتماعياً خاصاً ذو صفات مميزة يسوده الاكتفاء الذاتي والتكافل الاجتماعــي . يجدر الإشارة إلى أن النصف الأول من القرن التاسع عشر كان فترة إزدهار هذا النظام[14].

لقد تميزت منطقة تاجيل الجنوبية بسلاسل مصانع دوميدوف ، ومـنطقـة إيسيتسـك العـليا (إحـدى الـمراكز الإدارية السبع لإيكاترينبورج . تعليق المترجم) ، التابعة لمقاطعة ياكافلوف، بمساحاتها الشاسعة واستقرارها المادي . فعلى سبيل المثال بلغت مساحة منطقة مصانع دوميدوف الريفية فى جنوب تاجيل أكثر من 638 ألف ديسياتينا (وحدة قياس فى روسيا كان معمولاً بها قبل الثورة البلشفية وتساوى هكتار . تعليق المترجم) . كان " بافل نيكولايفيتش " يستحوذ على ملكية المنطقة قبل عام 1840، وبعد موته ورثتها أرملته " أفرورا كارلوفنا " وابنه الصغير " بافل " .

ولكن ظلت اليد الطولي لأناطولي نيكولايفيتش دوميدوف ، الذى حصل فى عام 1836 على لقب " الكونت سان دوناتو " من دوق توسكانا الأكبر (فرديناندو الثالث 1824 – 1769 . تعليق المترجم). كانت للإصلاحات الإدارية – التى فكر فيها " أ. ن. دوميدوف " – وهيكلة نظام إدارة الأملاك تأثيراً كبيراً على استقرار الوضع فى منطقة جنوب تاجيل فى الأربعينيات. وفى عام 1846 وصل إلى تلك المصانع « المفوض الرسمي » الجديد الذى عيَنه " أ. ن. دوميدوف " مؤخراً. إنه البولندي

14 - أنظر: ي. ج. نيكلودوف. أصحاب مصانع الأورال فى النصف الأول من القرن التاسع عشر: ملاك وممتلكات. جنوب التاجيل. 2004. ص. 5.

" أ. أي. كاجوخوفسكي " المدير السابق لأملاك أمراء لتوانيا رادزيفيللي[15] .

هكذا تزامنت زيارة المهندسين المصريين مع مرور المنطقة بمرحلة إنتقالية ، حيث كان المهندسون والفنيون يترقبون بقلق بالغ ومستمر خطط الهيكلة الجذرية التى يعتزم ملاك المنطقة تنفيذها . لم تكن لحظة وصول الضيوف من مصر – التى كان من الضرورى أن يتفقد فيها المصريون نجاحات منظومة التعدين فى الأورال – على ما يرام ، بيد أن الحال فى أملاك دوميدوف – التى تفقدوها – كان أفضل مما كان عليه الحال فى مناطق أخرى كثيرة فى الأورال.

فى تلك الأثناء انتقلت بعض الأملاك السابقة لعائلة ديموديف إلى أملاك " إمبراطورية " تعدين عائلة ياكافلوف . فقد آلت ملكية منطقة ايسيتسك العليا (أحد المراكز الإدارية السبع فى مدينة إكاترينبورج . تعليق المترجم) إلى إيفان ياكافلوف ، والذى نقلها بدوره إلى ابنه أليكسي عام 1804. وتولي الأخير زمام إدارة المنطقة لأكثر من أربعين عاماً حتى 1849 . وكانت تلك الفترة واحدة من أزهي الفترات فى تاريخ المنطقة . فقد كان " أليكسي ياكافلوف " يحصل على تقارير مفصلة من إدارة المصانع هناك أثناء فترة إقامته فى سانت بطرسبورج مما ساعده على الإلمام بكل ما يجرى بالمنطقة . بالإضافة إلى ذلك كان المالك يراقب عن كثب ليس فقط حجم إنتاج المصانع ، ولكن أيضاً جودتها ، ساعياً لتوفير مستوى معيشة مناسب للعاملين هناك . فى نفس الوقت وصلت إنتاجية المنطقة إلى ما يقرب من 400 ألف بود (وحدة قياس روسية قديمة . تعليق المترجم) حديد تحمل طابع « السمور العجوز » ، هي الأفضل وفقاً لتقديرات إدارة التعدين بالأورال آنذاك .

على أية حال ، لم يكن منتصف القرن التاسع عشر أزهي العصور فى تاريخ صناعات التعدين فى الأورال . فالجزء الأكبر من خام الحديد فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين كان يُجلب من خارج الحدود ، وبالأخص من إنجلترا. إلا أن الثورة الصناعية فى إنجلترا ودول أوروبا الأخرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر أدت عملياً إلى تراجع صادرات المعدن الروسي. ففى الأربعينيات من القرن التاسع عشر ظلت إنتاجية قلة فقط من ملاك المصانع بالأورال تنافس فى الأسواق العالمية نظراً لتمتع معدنها بجودة عالية . ومن بين هؤلاء الملاك عائلات ديموديف وياكوفلوف. والتي بلغ نصيب صادرات مصانعهم (من 30-50% وأكثر)[16] .

15 - أنظر: نفس المرجع. ص. 107.

16 - أنظر: ن. ج. سوروفتسيف. العلاقات الاقتصادية الخارجية لملاك مصانع التعدين فى الأربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر: ملخص رسالة من باحث لدرجة الدكتوراه فى تخصص التاريخ. إكاترينبورج، 2003. ص. 17

من المميز ، أنه فى نفس اللحظة ، التى كان المهندسان المصريان متواجدين فيها بالأورال عام 1846 ، أشار رئيس مصانع سلاسل جبال الأورال " ف. أ. جالينكا "[17] إلى أن « جميع أصحاب المصانع كانوا بحاجة إلى تدوير رؤوس أموالهم عوضاً عن القليل منهم »[18]، والذى كان من بينهم بالطبع عائلتي ديموديف وياكافلوف. ولكن المهم بالنسبة لموضوعنا هو التوجه الدائم لصناعات التعدين فى منطقة إيستسك العليا التابعة لعائلة ياكافلوف إلى العمل بسياسة تنويع الإنتاج. وفى العشرينيات من القرن التاسع عشر بدأ العمل باستخراج رواسب الذهب.

وبحلول منتصف القرن كان غسيل الذهب يجرى بصورة أكثر فاعلية فى مناجم رودينسك ، التى تقع على بعد عشرة فراسخ من مصنع فيرخ نيفينسكي (الذى يقع على نهر النيفا فى إيكاترينبورج الآن. تعليق المترجم) . وقامت أول جريدة من نوعها فى تاريخ الأورال ـ « أخبار مقاطعة بيرم » فى نهاية حكم القيصر " نيكولاي الأول" بوصف مركز استخراج الذهب التابع لمصانع ياكافلوف : « عند النظر إلى المنجم من الصعب أن لا تنبهر بمدى همة ومهارة إدارة المنطقة فى الحصول على رمال الذهب من قاع البركة ، التى تم جمعها لغسل تلك الرمال .

فالثروات ، التى تحويها تلك الرواسب الكبيرة كانت مخبأة لفترة طويلة فى قاع البركة ، ولكن منذ أن تم اكتشافها أصبحت البركة ، التى يتم تجفيفها على دفعات ، تعطى كل عام عشرات ملايين بود من الرمال الغنية » . وكما أشارت الجريدة ، فإن تلك الحالة النادرة من أسلوب تعدين المناجم « تثير اهتمام كل فضولي »[19] .

بل من المدهش أن يترك هذا الأمر أثره على المصريين ، الذين كانوا متواجدين فى مناجم منطقة مصانع أعالى نهر النيفا .

تعددت طرق تدوير رمال الذهب فى الأورال ما بين عامي (1840ـ 1850)، تتوقف

17 - بحث مميز عن حياة وعمل تلك الشخصية الرائعة لف. أ. شكيرين ، الذى أشار فى عمله إلى تناقض الجنرال ف. أ. جلينكا، « فى فترة حكم ألكسندر الأول – بدا مشاركا فى حروب عديدة وأحد أفراد حركة ديسمبريين ، بينما فى «الحقبة الرمادية» يبدو نيكولاي الأول جنرال ياوران وأحد الوجهاء العظام» (ف. أ. شكرين. الجنرال جلينكا: الشخصية والعصر. إيكاترينبورج، 2006. ص. 3.)

18 - اقتباس من: ي. ج. نيكلودوف. قانون بوسيسيون فى تاريخ صناعات التعدين فى الأورال فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. إيكاترينبورج، 2011. ص. 61.

19 - أنباء مقاطعة بيرم. 1854. رقم 34. جزء غير رسمي.

كل طريقة منها على خصائص كل منجم . فى بعض الأحيان يتوجب نزع الطبقة الطينية العليا فقط من التربة ، حيث توجد الطبقة الحاملة للذهب ، وأحياناً يتوجب حفر آبار ، يتم من خلالها مد مناجم تحت الأرض « عبر الطبقات » وتثبيتها بجذوع الشجر. بعد ذلك يتم نقل الطبقة العليا ، التى لا حاجة لها على عربات تجرها أحصنة إلى أكوام ، بينما تَنقل الطبقات الحاوية للذهب إلى آلة غسل الذهب . تختلف سماكة الطبقة الخاوية من الخام ، بحيث تتراوح ما بين 5 إلى 10 ساجين (وحدة قياس روسية تساوى متر و13 سنتيمتر . تعليق المترجم) ، ولكن فى منجم رودينسك لم تبلغ سمكها أكثر من ساجين واحد . ولكن على الجانب الآجر من النادر أن تبلغ سمك طبقة الرمال الحاملة للذهب أكثر من ساجين واحد ، بل فى أغلب الأحيان أقل من هذا ، وكانت يقبع تحتها طين صفحي أو أحجار كلسية . حتى الرمال التى تحوى الذهب لا تعتبر ذهباً خالصاً ، ولكنها تكون ممزوجة بالطين والحصى ، وفى مرحلة تالية تكون عادة موحلة إذا احتوت على نسبة كبيرة من الطين . وتبدو شكلها ككتلة رمادية أو سوداء تحتوى فى غالب الأحيان على حصى كبير وقطع من صخور المنطقة الجبلية .

من الملاحظ أن بعض مهندسي التعدين ، الذين عملوا فى ورش الذهب بالأورال ، كانوا يلوحون إلى قلة فاعلية استخدام أسلوب غسل الرمال ، التى تحوى الذهب. على سبيل المثال ، بعد مرور عدة سنوات من وصول المهندسين المصريين إلى تلك المنطقة استرعت إحدى مقولات القائد " أفدييف " ، التى أدلى بها على صفحات «مجلة التعدين » الخاصة الانتباه : « عند القيام بغسل الرواسب لا يمكننا تحديد الخسارة الحقيقية لخام الذهب ... ولكن ، من المرجح أن تلك الطريقة تخرج نسبة ثلث الذهب فقط ، بينما يضيع الثلثان الآخران ... من الواضح أن النسبة المهدرة أكثر من الذهب المتوفر ... هكذا تبدو طريقة الغسل. ولكن ، على الرغم من فرص نجاحها الضئيلة ، لا يمكننا نسيان أن تلك الطريقة لها الكثير من المميزات ؛ فهى الأقل تكلفة من وجهة النظر الاقتصادية ، والأبسط فى إمكاناتها »[20] .

وما يثير الدهشة هو الدور الكبير الذى لعبته تلك التفصيلة الأخيرة مع هذه التجربة . فالتقنيات الحديثة ، التى كان المهندسان المصريان يتعرفان عليها فى مصانع الأورال لم تكن الأكثر فاعلية . إلا أن التقنيات البسيطة نسبياً فى الأورال بالإضافة إلى التكلفة المنخفضة للأيدي العاملة سواء فى مصر أو فى السودان هي ما أعطت لمحمد علي الأمل فى تطوير صناعات استخراج الذهب فى المستقبل . فى

20 - أفدييف القائد.عن خبراته المتعددة ، التي أكتسبها فى مصانع إيكاترينبورج من التنقيب عن الذهب // مجلة التعدين. 1850. رقم 1. ض.56.

نفس الوقت كانت صناعات استخراج الذهب فى الأورال من الناحية التقنية تسير فى ركب التطور . ففى سعيه لرفع درجة فاعلية العمل بالمنشأة اقترح القائد " أفدييف " نفسه استخدام طريقة صهر الصخور ، المعرضة للفقدان .

كانت الآلات تستخدم فى مصانع إنتاج الذهب بالأورال ، على سبيل المثال فى ورشة استخراج الذهب بطريقة الغسل فى منجم رودينسك ، كما أشرنا سابقاً . وكما وصفت جريدة « أنباء مقاطعة بيرم » لسير العمل فى الورشة ، « فإن الرمال تتعرض للغسل آلياً فى مصافي حديدية ومغاسل خشبية ، وعند تدفق تيار الماء يتم تقليبها بالمجاديف ؛ وتعلق قطع الرمال الكبيرة بين الحواجز الخشبية للمغسلة ، حيث يتم جمعها وتنظيفها بالغسل فى الآلة . بعد كل هذا يتم الحصول على حبيبات من الذهب تبلغ فى المتوسط ما بين مائة بود من الرمال بحجم نصف زولوتنيك (وحدة وزن روسية تساوى 4 جرامات وربع . تعليق المترجم) ، وأخرى بحجم زولوتنيك ولكنها أقل كثيراً »[21] .

من المنطقي أن تسعي جريدة « أنباء مقاطعة بيرم » فى نسختها الرسمية لإظهار المناخ الجيد ، الذى كان يعيش فيه عمال مناجم الذهب فى الأورال ، مؤكدةً أن وجود تلك الصناعة كان مربحاً جداً لسكان المنطقة ، الذين كانوا يحصلون على " أجر مجزي" مقابل عملهم لمدة 6 إلى 8 ساعات . ولهذا شهدت مناجم الذهب إقبالاً على العمل ليس فقط من قبل الرجال ، ولكن النساء والأطفال أيضاً . وفى هذا الشأن تكتب صحيفة المقاطعة «أن بإمكانك رؤية الرجال ، وخاصة النساء يرتدون فى العمل ملابساً ، لا يرتدونها فى أماكن أخرى حتى فى الأعياد »[22] .

بهذا الشكل كانت ورش " ياكافلوف " لصناعة الذهب تعتبر « نموذجاً يُحتذي به » فى الأورال ، مما يفسر سبب إختيار إدارة التعدين فى الأورال مناطق التعدين ، التى تملكها عائلتي ديموديف وياكافلوف تحديداً لعرض إنجازات قطاع التعدين على الضيوف المصريين.

أثناء رحلتهم فى الأورال قام المهندسان المصريان بزيارة مصانع منطقة سيسرت (إحدى مناطق مقاطعة سسفيردلوفسك . تعليق المترجم) ، التى آلت ملكيتها لفترة طويلة إلى رجل الأعمال الشهير " أ. ف. تورشانينوف"، ثم ورثها من بعده " سالوميرسكي " .

21 - أنباء مقاطعة بيرم. 1854. العدد 34. جزء غير رسمي.

22 - أنباء مقاطعة بيرم. 1854. العدد 34. جزء غير رسمي.

اكتُشفت رواسب الذهب فى تلك المنطقة فى بداية العشرينيات من القرن التاسع عشر ، مما حفز إدارة المصانع للقيام بأعمال تنقيب كبيرة ، والتى جنت ثمارها عام 1826 بعد استخراج ما يقرب من ثلاث بودات ذهب . وفى الفترة ما بين عامي (1827- 1828) بلغ إنتاج تلك الرواسب الغنية ما يقرب من 60 بود ذهب. كان اكتشاف تلك المناجم كفيلاً بتعديل الوضع المالي فى مصانع سيسرت بشكل عام ، بل وساعد على سد ديون أصحابها. ولكن لم يستمر الحال هكذا طويلاً. ففى لحظة وصول المهندسين المصريين كانت ورش الذهب غارقة فى أزمة منذ 20 عاماً تقريباً . فمجموع ما أمكن تنقيته ، على سبيل المثال ، عام 1837 كان سبعة بودات من الحجر الثمين فقط . وفى محاولة لتفسير أسباب هذا الوضع ، كتب القائد " كوكشاروف " فى منتصف الخمسينيات : « على الرغم من وفرة رواسب الرمال الحاملة للذهب فى ضيعة سيسرت حتي الآن ، إلا أن حينها لم تُكتشف أية رواسب جديدة، بل وتعرضت الثروات المُكتشفة فى البداية للنضوب أيضاً بسبب قلة الخبرة ، وقلة معرفة المسئولين عن إدارة عملية التنقيب عن الذهب »[23]. وبالتالى لم تكن جميع المنشآت التى قام المصريان بزيارتها فى الأورال تعيش أزهى عصورها ، بل كان بعضها يعانى من مشاكل حقيقية منذ زمن بعيد .

أولت رئاسة هيئة التعدين اهتماماً خاصاً بالجوانب المالية لرحلة المهندسين المصريين عبر الأورال . ووصلت إلي " ي. ب. كافاليفسكي" إخبارية بشأن تخصيص وزارة المالية الروسية 1600 روبل من الفضة للإنفاق على إعاشة وتنقلات المصريين «على مدار فترة تواجدهم على أراضي الإمبراطورية » .

كما تم إعداد كشف حساب تفصيلي ، والذى بمقتضاه تم اعتماد روبل واحد من الفضة لكل مهندس مقابل إعاشة فى اليوم. أشار العقيد " ف. أ. سامارسكي " إلى " ي. ب. كافاليفسكي " على ضرورة قيام الأخير ، فى حالة الضرورة ، باستخدام تلك النقود لحجز « شقق لائقة ، وليست فاخرة » للضيوف المصريين. كما خصصت 600 روبل لصرفها على استئجار الأحصنة أثناء التنقل في روسيا ، و400 روبل مقابل «استئجار الشقق وشراء المركبة والمصاريف النثرية». وتم تكليف " ي. ب. كافاليفسكي " بشراء « مركبة مريحة تجرها الأحصنة يستخدمها المصريون فى طريقهم ، على أن لا تكون باهظة الثمن – لا يتخطي سعرها 150 روبل فضة » ، ومن الضروري أن تُسلم المركبة فى حالة جيدة إلى الضابط[24] ، الذى سينقل المصريين من زلاتوؤوست إلى أوديسا .

23 - أخبار مقاطعة بيرم. 1865. العدد رقم 26. جزء غير رسمي.

24 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 24. فهرس 23. ملف 7101. ورقة 5-3.

كانت أهم التعليمات ، التى تلقاها " ي. ب. كافاليفسكي "من قيادته « هى الحرص الشديد عند الإنفاق على عدم تجاوز المبلغ المحدد بأي حال من الأحوال » . وهكذا جرى الأعداد لزيارة المصريين باعتبارها رحلة عمل . ولهذا قامت رئاسة هيئة التعدين بتحذير كل من سيتولي مهمة استقبال المهندسين المصريين فى الأورال من المصاريف الزائدة أو المشتريات الباهظة .

قام وزير الماليه بتوجيه خطاباً إلى رئيس مجلس إدارة مصانع تعدين سلاسل جبال الأورال ، طالب فيه « بتكليف رؤساء المصانع المحلية بتقديم كافة أشكال المساعدة للمهندسين المصريين ليتمكنوا من دراسة طريق إنتاج الذهب ، وخاصة تزويدهم بالمعلومات اللازمة وإمدادهم بالرسومات التخطيطية ». فى نفس الوقت تلقي رئيس مجلس الإدارة أمر بترشيح الضابط ، الذى سيقوم " ي. ب. كافاليفسكي " بتسليم المصريين له . كان المعيار الرئيسي فى اختيار الظابط هي المعرفة الجيدة باللغة الألمانية . فى تلك الأثناء حصل الرئيس علي بعض المعلومات التى تتعلق بشخصية المهندسين المصريين . فقد أخبره وزير المالية أن "علي محمد إبراهيم" و "عيسى الدهشوري" « ينحدران من أسرتين نبيلتين في مصر» في إشارة إلى ضرورة توفير الاستقبال اللائق بالضيوف الأجانب . ولكن المعلومة الأكثر أهمية هي « عدم إجادة المصريان للغة الفرنسية »: فمن المعروف أن تلك اللغة الفرنسية كانت منتشرة بشكل كبير فى المجتمع الإقطاعي الروسي فى القرن التاسع عشر. وفي حالة إتقان الضيوف الأجانب لتلك اللغة ، كان ذلك سيسهل من مهمة الجانب المُضيف . من الطريف أن خبر عدم إجادة المصريين للغة الفرنسية اتضح فى اللحظة الأخيرة . فى خريف عام 1845 قبل وصول المصريين إلى بلادنا أخبر قنصل روسيا فى مصر " أ. م. فوك " نائب مدير الإدارة الآسيوية التابع لوزارة الخارجية " ل. ج. سينيافين " أن المهندسان « يتكلمان اللغتين الألمانية والفرنسية»[25] . ولكن تأكدت المعلومة المتعلقة باللغة الألمانية ؛ حيث أشار وزير المالية ، أن المتخصصان الأجنبيان « يتحدثون الألمانية بشكل جيد بالفعل»[26] : من أجل هذا تحديداً كان إتقان اللغة الألمانية شرطاً فى اختيار الضابط ، الذى سيقوم "ي. ب. كافاليفسكي" بتسليمه المصريين فى زلاتوؤوست .

بمجرد تلقى الأوامر من وزارة المالية ، بدأ رئيس مجلس إدارة مصانع سلاسل جبال الأورال فى التنظيم لتلك الرحلة ؛ حيث أرسل بنفسه خطابات بتكليفات إلى رؤساء

25 - ج. ف. جارياتشكين. مصر فى أعين الروس ... ص. 242.
26 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 24. فهرس 23. ملف 7101. ورقة 2.

إدارة التعدين فى مصانع زلاتؤوست وإيـكـاتريـنبـورج وبلاجادات (جبل علـى المنحدر الشـرقي لجبال الأورال . تعليق المترجم) ، وكـذلك إلى رؤساء الشرطة (فى روسيا قبل الثورة) ، الذين كانوا يشرفون على مصانع ايستك العليا المملوكة لعائلة ياكافلوف ، وعلى مصانع كيشتيم (إحدى مدن مقاطعة شليبيانسك . تعليق المترجـم) المملوكة لعائلة " راستورجوييف "[27] . تلقى جميعهم تعليمات بتقديم العون اللازم للضيوف المصريين خلال رحلتهم عبر الأورال .

على الجانب الآخر كان " محمد علي " ينتظر بفارغ الصبر الأخبار عن رحلة مهندسيه . وفى سبتمبر عام 1845 قام القنصل الروسي فى مصر " أ. م. فوك " بإخطار القسم الآسيوي التابع لوزارة الخارجية أن الخطاب ، الذى كتبه المهندسان المصريان باللغة العربية من روسيا إلى حاكمهم وصل مباشرةً إلى " محمد علي " .

فقد ارتأى الدبلوماسي الروسي ، أن من الضروري تسليم الخطاب من خلال الوزير المصري " أرتين ـ بك " دون انتظار الحصول على موافقة بمقابلة والي مصر شخصياً . يشير أ. م. فوك ، « أنه لم يرغب فى تأجيل تسليم الخطاب إلى أن يقابل محمد علي شخصياً لعلمه بمدى طوق الباشا لتتبع جميع الأخبار ، بل وعلمه باشتراك الوالي شخصياً فى توجيه التكليفات لكلا الشابين ، الذى أرسلهما إلى القطر البعيد . فالصفة الغالبة على شخصية محمد علي آنذاك هي عدم التحلي بالصبر، وازدادت تلك الخصلة مع تقدم السن . فأكثر ما أبهجه من بين تلك الأخبار علمه بإمكانية عودة الشابين تقريباً فى منتصف شهر يونيو القادم »[28] .

إلا أن الوقت لايزال طويلاً حتى صيف 1846 . فحتى خريف عام 1845 كان منطقياً جداً أن تكون مناجم الذهب فى بيروزوف أكثر ما أثار إعجاب المهندسين المصريين من بين منشآت صناعات التعدين فى شمال الأورال . فعلى ضفاف نهر بيروزوف ظهر أول اكتشاف لخام الذهب فى الأورال عام 1744 . وبالرغم من بطء وتيرة استخراج الذهب هناك حتى القرن التاسع عشر ، إلا أن تطور صناعات الذهب عام 1814 شهدت تحولاً جزرياً مع أشهر اكتشافات أستاذ التعدين " ل. أي. بروسنيتسين " .

بعد عكوف الأخير على دراسة الرمال المهدرة من ورش تقطيع الخام فى منطقة نهر بيروزوف ، لفت الاهتمام إلى اكتشاف ذرتي ذهب ، لا يوجد بهما أي أثر لآلة التفتيف. من خلال الآبار المُكتشفة اتضح وجود رمال حاملة للذهب تحت طبقة

27 - أنظر: نفس المرجع. الورقة رقم 16-4.

28 - ج. ف. جارياتشكين. مصر فى أعين الروس ... ص. 247.

الرواسب عبر تيارات الأنهار . هكذا أثبتت الخبرات الجديدة المتراكمة فائدة استخدام طريقة غسل الرمال الحاملة للذهب . ولهذا الاكتشاف أهمية خاصة بالنسبة لموضوع بحثنا، بما أن بناء مصانع استخراج الذهب بأسلوب الغسل كان الهدف الذى وضعته القيادة المصرية وعلى رأسها " محمد علي" فى الأربعينيات .

وبفضل هذا الاكتشاف أخذت عملية تطوير صناعات الذهب أبعاداً مدهشة؛ حيث بدأت معدلات استخراج الذهب فى النمو بصورة كبيرة نظراً لبناء عدد من ورش غسل الذهب الكبري فى مناجم بيروزوف فى عشرينيات القرن التاسع عشر . ولم يكن من الصعب استخراج رواسب الذهب لعدم الحاجة لاستعمال آلات خاصة لذلك[29] . فبعد اكتشاف رواسب الذهب فى مئات المناطق ، اجتاحت الأورال « حمي استخراج ذهب » حقيقية . بالإضافة إلى ذلك ساهمت اختراعات " ل. أ. بروسنيتسين " ، التى استخدمها أولاً فى مناجم بيروزوف ، فى تطور صناعة استخراج الذهب . بلغ إجمالي ما تم استخراجه من رواسب مناجم بيروزوف خلال الفترة من عام 1814 وحتى إلغاء حق الإقطاع فى روسيا عام 1861 أكثر من 1150 بود ذهب .

مع ذلك يشير المتخصصون إلى وجود بعض السلبيات فى منظومة تطوير مناجم بيروزوف لحظة وصول المصريين . تكمن المشكلة فى أن الرواسب الحاملة للذهب بدأت بالنضوب تدريجياً . وما ساعد على تفاقم المشكلة التنقيب المفرط فى المناطق الأكثر وفرة بالخام . ولم تنج المناجم أيضاً من استخدام الوسائل التقنية الحديثة فى ذلك الوقت – وهي الآلات ، التى تعمل بالبخار . وفى الخمسينيات بدأت وميض الحياة فى المناجم « بالخفوت تدريجياً»[30] ، على حد وصف المعاصرين .

على هذا النحو تزامن وصول المهندسين المصريين إلى الأورال مع ركود صناعة استخراج الذهب بمناجم بيروزوف . فما الذى يمكن أن يراه المصريان هنا ؟ ، تعطينا المصادر الأرشيفية ، التى تحصلنا عليها من صندوق إدارة مناجم جمعية غسل الذهب فى بيروزوف بعض المعلومات عن هذا الأمر . تشير وثائق إدارة تعدين مناجم جبال إيكاترينبورج إلى نقل أكثر من مليون و240 ألف بود من الرمال ، التى تحوى الذهب خلال شهر سبتمبر فقط من عام 1845 « بعربات اليد وبالمزالج » وأكثر من نصف مليون عن طريق « حوذيين مستقلين » . ولكن أحياناً تصادف العثور علي أشياء قيمة : ذات مرة وجد العامل " إيفان ديمشيكوف " مع مجموعة من أصدقائه

29 - يو. شينكارينكا، أ. بيساربيف، يو. جونجر، م. تيتوفيتس، ف. لوكيانين. مكان ضرب العصا. إيكاترينبورج، 2005. ص. 45.

30 - أنظر: ل. ف. ساباجوفسكايا، ي. يو. روكاسويف. شركة صناعات الذهب فى بيروزوف (1917-1874). إيكاترينبورج، 2004. ص.12.

قطعة معدن بوزن أكثر من أربعة باوندات . على الجانب الآخر كانت قد حدثت بعض السرقات : ففى شهر أكتوبر فقط من عام 1845 « لم ينقل » « الحوذيون المستقلون » إلى الورش أكثر من خمسة آلاف ونصف بود من رمال الذهب[31].

منذ نوفمبر عام 1845 أعطى أمر بإدخال ورشة « شتوية » جديدة إلى الخدمة فى منجم ذهب "رجافسكي" لعله يساعد فى زيادة معدلات استخراج الذهب .

هذا بالطبع بغض النظر عن « المكان الموحل » ، الذى كان من المفترض مد طريق للسكك الحديدية عبره ، وعدم وجود « أخشاب صالحة » بالقرب من تلك المنطقة وصعوبات أخرى كثيرة . وفى نفس الفترة ، التى كان المصريون متواجدين فيها بالأورال تحديداً ، توقف العمل مؤقتاً فى منجم كاسولينسكي بداعي « عدم إحتواء الرمال علي القدر الكافي من الذهب»[32] .

كانت مصانع بيروزوف مزودة بأحدث التقنيات وفقاً لمعايير ذلك الوقت. وفى لحظة وصول "علي محمد إبراهيم" و"عيسي الدهشوري" بنهاية عام 1845 كانت المصانع المحلية مزودة بآلات تعمل بالبخار بقدرة 14 حصان ، وثلاثة آلات لرفع المياه تجرها الأحصنة وخمس ماكينات لف تجرها الأحصنة لاستخدامها فى تقنية غسل ورفع الرمال إلى الورش ، بالإضافة إلى ثلاثة أفران حديدية كبيرة بستة أفران ... وهكذا كان هناك الكثير لرؤيته في ذلك المكان. بالمناسبة ، تساعدنا الوثائق فى الإجابة على سؤال ، لماذا دُعي المصريان لزيارة منطقة بيروزوف تحديداً؟. خلافاً لتزويد المصانع هناك بأحدث التقنيات ، إلا أن ما رجح كفتها قيام أحد الشخصيات المهمة بزيارة المكان فى خريف عام 1845 قبل وصول المصريين بقليل .

أنه صاحب السعادة ، الدوق ليختينبرج – زوج ابنة القيصر "نيكولاي الأول ماريا " [33] . لم يكن صاحب السعادة يشغل منصب رئيس أكاديمية الفنون الإمبراطورية فقط ، بل ترأس معهد التعدين فى بيتربورج أيضاً، وكان عضواً دائماً فى لجنة العلماء فى فيلق مهندسي التعدين ، كما اشتهر أيضاً بأبحاثه فى مجال الطلاء بالجلفنة . وتؤكد المصادر، أن الإعداد لزيارة الدوق صارت على قدم وساق : رُتب كل شيء بنظام دقيق ، حتى أنهم قاموا بشراء ورق هولندي الصنع

31 - أنظر: الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 41. الفهرس الأول. ملف 1444. ورقة 298.

32 - نفس المرجع. ورقة 348-345.

33 - أنظر: الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 41. الفهرس الأول. ملف 1449. ورقة 353.

لاستخدامه فى أعمال الكتابة . وهكذا كانت المصانع معدة بشكل جيد لحظة زيارة المهندسين المصريين .

وصل " علي محمد إبراهيم " و" عيسي الدهشوري " إلى مناجم بيروزوف فى نوفمبر عام 1845 . وبالفعل نجح المصريان فى استغلال حسن ضيافة قيادة المناجم والإمكانات ، التى وفروها لضيوفهم الأجانب. من المعروف أن الدهشوري قد تعرف تفصيلياً على سير عملية الإنتاج فى مصنع بيروزوف ، أثناء عمله على ماكينة الغسل ، المُخصصة له على مدار أربع ساعات . وفقاً لتقرير العقيد كافاليفسكي ، الذى أرسله بتاريخ الأول من نوفمبر عام 1845 إلى غرفة أركان مهندسي التعدين ، أنه بجانب ذلك « خطط برنامج عمل الدهشوري فى المنجم بالتفصيل » . وبعد مرور شهر ، فى بداية شهر ديسمبر عام 1845 أشار " إيجور بيتروفيتش " ، أن المهندسان المصريان « كانا يعملان كل يوم على نماذج لآلات غسل الذهب ، تم إعدادها ليتمكنا من تجميعها فى مكانهم بأنفسهم ودراسة أجزائها بالتفصيل فى حالة بناء آلات تحت قيادتهم فى مصر » . العثرة الوحيدة أمام ذلك كان توقف العمل باستمرار بسبب مرض أحدهما تارة ، والآخر تارة أخرى: فى حالة شعور " علي محمد " بأعراض المرض ، سرعان ما يلقى الدهشوري نفس المصير[34] .

فى النهاية اكتسب المتخصصان المصريان مهارة عملية جيدة جداً فى العمل على آلات غسل الذهب . وتعرف الضيوف الأجانب على المبادئ الرئيسية لعمل تلك الآلات ، بل كانوا يراقبون عن كثب استخدام تلك الطرق فى صناعات استخراج الذهب بالأورال . وفى النهاية أصبحوا يعملون بجد على تلك الآلات فى غسل الرمال الحاوية للذهب على قدم المساواة مع عمال الأورال . فإجمالي الرمال ، التى قام " علي محمد إبراهيم" و" عيسي الدهشوري " بغسلها بأنفسهم أكثر من 500 بود من الرمال .

بعد التواجد مدة طويلة فى مناجم بيروزوف ، قام المهندسان المصريان بجولة فى مصانع شمال الأورال المختلفة . وفى يناير عام 1846 تفقدوا مصانع نفيانسك (مدينة فى مقاطعة سفيردلوفيسك) وتاجيل وأعالي النيفا وجبال بلاجادات ، بعد ذلك قاموا بزيارة مصانع كامينسك (مدينة فى مقاطعة سفيردلوفيسك) لصب الزهر وصهر المعادن ومصنع جنوب الايسيتسك للصناعات الثقيلة ومصنع تعدين سيسرت . ثم بدأوا بالتحرك تدريجياً نحو الجنوب ؛ حيث قاموا بتفقد مصنع كاسلي (إحدى مدن مقاطعة شليبيانسك . تعليق المترجم)

34 - أنظر: ج. ف. جارياتشكين. مصر فى أعين الروس ... ص. 249.

لصب الزهر والصناعات الثقيلة ، بالإضافة إلى مصنع كيشتيم لصهر النحاس[35] .

توجب على المهندسين " علي محمد إبراهيم " و" عيسي الدهشوري " التوجه إلى جنوب الأورال بعد أن أتاح لهم " ي. ب. كافاليفسكي " الفرصة لتفقد مصانع إيكاترينبورج . حينها ظهرت مشكلة تخص الشخص الذى سيتسلم الضيوف من كافاليفسكي فى زلاتؤوست. كان على رئيس تعدين مصانع زلاتؤوست ومدير مصانع الأسلحة إيجاد حل لتلك المشكلة . فى شهر فبراير عام 1846 قام الأخير بإخطار القائم بأعمال رئيس مجلس إدارة مصانع تعدين سلاسل جبال الأورال أن مهندس التعدين رئيس الأركان " بليوم " هو المكلف باصطحاب المصريين من زلاتؤوست إلى أوديسا[36] . وكان علي " ي. ب. كافاليفسكي " تسليمهم لرئيس الأركان تحديداً، ولهذا توجه العقيد فى الثانى من مارس بصحبة المصريين إلى مقاطعة زلاتؤوست، وفى انتظاره الكثير من الأعمال هناك : فقد تم تعيين " ي. ب. كافاليفسكي " فى شهر أبريل عام 1846 مساعداً لرئيس منطقة تعدين زلاتؤوست ، وأوكلت له مهمة رئاسة المنطقة بسبب سفر " ب. ب. أنوسوف " مؤقتاً إلى سانت بطرسبورج .

كانت إستراتيجية تطوير قطاع التعدين فى جنوب الأورال تتميز باعتمادها على رجال الأعمال ، وليست الحكومة ، فى أي مبادرة لإفتتاح المصانع فى هذا المكان . ولهذا ظلت معظم المصانع تتبع القطاع الخاص لفترة طويلة . ولكن فى عام 1811 آلت مصانع منطقة تعدين زلاتؤوست إلى القطاع العام بعد إفلاس مالكها التاجر كناووف . فى منتصف القرن التاسع عشر ، وفقاً لأعداد العمال بها، اعتبرت منطقة تعدين زلاتؤوست أكبر منطقة تعدين فى الأورال . تشتهر المنطقة بغاباتها الشاسعة ، وإحتوائها على عديد من المعادن النادرة ، بعضها لا يوجد إلا هنا. ولكن بحلول ثلاثينيات القرن التاسع عشر ساءت الأوضاع فى غابات زلاتؤوست، بسبب الاستخدام المفرط المرتبط بالتطور الهائل فى الصناعات التى تعتمد على فحم الخشب . ولهذا لم يكن من قبيل الصدفة أن تبدأ فى الثلاثينيات والأربعينيات عملية تقييم دؤوبة لغابات المنطقة من أجل الحفاظ عليها[37] .

35- أنظر: ب. أ. فالسكايا. رحلة إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي. موسكو، 1956. ص. 95.

36 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 24. لفهرس 23. ملف 7101. ورقة 16-17.

37 - أنظر: أرسيف المتحف المحلي بمقاطعة زلاتؤوست. رسالة من غرفة أركان مصانع زلاتؤوست إلى مهندس منطقة مصانع زلاتؤوست أ. د. تشولكوف. 19 يونيو 1846.

تشتهر منطقة مياس (إحدى مدن روسيا فى منطقة تشيليابينسك. تعليق المترجم) بحقولها ، التى تحوى الذهب . وهنا اكتشف خام الذهب لأول مرة فى نهاية القرن الثامن عشر على يد « يفجراف ميتشنيكوف». يشير الباحثون المحليون آنذاك إلى انخفاض معدلات إنتاج الذهب لمدة طويلة فى مصنع مياسك ، « بالإضافة إلى افتقار مناجم الذهب » ، التى كان يتوقف العمل فيها تارة ، ويستمر تارة أخرى إلى أن توقف نهائياً عام 1815[38] . بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ استخراج الذهب من مناجم مياسك بعد اكتشاف كمية كبيرة من حقول رواسب الذهب فى العشرينيات .

وفى الثلاثينيات أصبح مصنع مياسك المركز الأكبر لصناعات استخراج الذهب فى روسيا ، بعد جنى أرباح حوالى 200 منجماً . فقد كانت وديان روافد أنهار مياس كلها تحوى ذهباً . وكما هو الحال بالنسبة لمناجم نهر بيروزوف ، أصابت المنطقة « حمى الذهب » ، وأصبحوا يطلقون على منطقة مياس اسم « كلوندايك الروسية» (نسبة إلى نهر كلوندايك فى كندا ، حيث أشيع وجود ذهب هناك عام 1896 . تعليق المترجم) . وصلت إنتاجية مناجم مياس عام 1840 إلى معدلات قياسية – 76 بود ذهب[39] .

تتميز حقول رواسب مياس بإحتوائها على كميات كبيرة من المعادن النادرة. فى هذا المكان تحديداً وجد العامل « ن. سيوتكين» أكبر قطعة معدن فى أوروبا الآسيوية عام 1842 ؛ عبارة عن قطعة معدن كبيرة « مثلثة الشكل » بوزن أكبر من 36 كيلو جرام. كما أبدى عالم الجيولوجيا البريطانى الشهير « ر. مورشيسون » إعجابه بثروات منطقة مياس ، مطلقاً على مصنع زلاتوؤوست « شفيلد وبرمنجهام الأورال » . بعد أن كان عضواً لسنوات طويلة فى مجلس الجمعية الجيولوجية اللندنية، ورئيساً للجمعية الملكية الجغرافية منذ عام 1843 ، وعضو فعال فى أكاديمية العلوم فى بيتربورج ، قام «ر. مورشيسون » فى عامي (1840 ـ 1841) بحملتين بيئيتين إلى روسيا ، وتحديداً إلى بريكاما (منطقة على ضفاف نهر كاما – أحد روافد أنهار الفولجا . تعليق المترجم) وشمال الأورال وجنوبها .

نتيجة لأبحاثه فى هذا المجال أصدر « مورشيسون » عمل بعنوان « الوصف الجيولوجي لروسيا الأوروبية وسلاسل جبال الأورال » (الجزء الأول والثانى ، سانت بطرسبورج ، 1849 ، بالاشتراك مع أ. أ. كيزرلينج و ف. أي. فيرنيل) . ولهذا ليس

38 - أنظر: ك. بيروف، ف. شفيتسوف. من تاريخ مصانع زلاتوؤوست. زلاتوؤوست، 1926. ص. 10.

39 - أنظر: ن. شابانوف. استخراج الذهب فى مياس// مياس. القاموس الموسوعي. مياس، 2003. ص. 161.

صدفة أن يتم اختيار عالم الجيولوجيا البريطانى عضواً فخرياً فى جمعية محبى علوم الطبيعة بالأورال قبل وفاته بقليل[40] .

أشار « ر. مورشيسون » فى عمله السابق إلى أن منطقة مياس تحديداً « تعتبر ملتقاً لأكثر حقول رمال الذهب إنتاجاً وغناً فى جنوب الأورال» . إذاً فماذا رأى المهندسان المصريان بعد وصولهم إلى هناك ؟ ، ماذا سيسلط عليه الضوء كلا المتخصصان التقنيان المؤهلان ، اللذان تلقيا تعليمهما فى المانيا ؟ كانت الأراضي الممتدة على طول الشاطئ الغربى لنهر مياس ، وشواطئ جداول نهر تاشكوتارجانك (أحد أفرع نهر إيرميل فى مياس) وإيرميل وغيرها أكثر المخابئ الغنية بالمعدن النفيس . وكما أشار "ر. مورشيسون" ، « فإنها أكثر المناطق إثارة للدهشة لإحتوائها على رصيد غير مسبوق من خام الذهب » ، ولم تحظ أى منطقة أخرى بمثل هذا الكم من المعادن » . ولهذا من المنطقي أن يكرر على « محمد إبراهيم » و« عيسي الدهشوري» تقريباً نفس كلمات عالم الجيولوجيا الأوروبي الشهير: « أثناء تحركنا عبر نهر مياس على طول الوادى الأخضر الزاهى ، انتابنا شعور بالدهشة بعدما رأينا مخبأ للذهب وسط منخفض من الحجر الجيرى »[41] .

لعب عالم الفلزات الروسي الشهير « ب. ب. أنوسوف » دوراً بارزاً فى تطوير منظومة استخراج الذهب فى مناجم مياس . قام العالم الروسي بتشكيل الفولاذ ، وفى ما بين عامي (1831 ـ 1847) ترأس منطقة تعدين زلاتؤوست. وفى ظل الرئاسة أحتل مصنع مياس مكانة مميزة فى استخراج الذهب ليس فقط بالأورال ، ولكن فى روسيا كلها . فقد استخدم فى مناجم مياس ماكينة مجرية الصنع ، بالإضافة إلى آلة ، تم اختراعها بواسطة الرئيس السابق لمصانع منطقة زلاتؤوست « أ. أ. أجتي « (1775 – 1832). وكانت الآلة عبارة عن ماكينة غسل على شكل طسوط ذات أزرع لغسل الذهب. كان الإنجاز الأبرز لـ "ب. ب. أنوسف" فى مجال استخراج الذهب هو تصميم آلة غسل الذهب ، والتى كانت تعمل بلا توقف على مدار الدورية كلها (10 ساعات) ، بينما كانت النماذج الأخرى تتوقف كل ثلاث ساعات من أجل تنظيفها من الصخور العالقة . كانت الآلة ، التى اخترعها "ب. ب. أنوسف" تغسل ما بين 16 إلى 18 بود رمال فى اليوم . هكذا حلت تلك الآلة محل آلات الغسل

---

40 - أنظر: مخطوطات جمعية محبي علوم الطبيعة بالأورال. إيكاترينبورج، 1873. المجلد الأول. الإصدار الأول. ص. 1.

41 - المسح الجيولوجي لروسيا الأوروبية وسلاسل جبال الأورال؛ قام بوضعه سير روديريك إيمبي مورشيسون، من وحي تأملاته، التى كتبها بنفسه، وإدوارد فيرنيل والكونت ألكسندر كيزرلينج // مجلة التعدين. 1848. العدد السابع. ص. 42-41.

السابقة والطريقة اليدوية فى غسل الرمال . كانت آلة غسل الذهب، التى اخترعها « ب. ب. أنوسف » تتكون من طسط به ثقوب ، ومثبت عند قاعدته بعوارض . كان الطسط محاط بآلة خشبية ، يوجد فى منتصفه متراس ، وفى وسط المتراس زراع حديدى . كانت الرمال توضع تدريجياً من أعلى باستخدام الجرافة . استخدم من أجل إضافة المياه إلى الرمال أنبوبتين حديديتين بفتحتين صغيرتين على قدر طول الطسط ، وتم تذويدهما بصنبورين . وبالقرب من الطسط تم وضع لوح حديدى به ثقوب ، تزال من فوقه الحصى الكبيرة المغسولة ، ثم يعاد غسلها من جديد بالمياه من المصفاه المزودة بالصنبور .

كما استخدم ب. ب. أنوسف « سكة حديد » بقوة جر حصانية بطول كيلومتر لنقل الرمال إلى ورشة الغسيل . هذا الطريق وفر جهد كثير من العمال ، الذين كانوا ينقلون الرمال بعربات اليد[42] .

يشهد ذلك على ، أن حقيقة بقاء المهندسين المصريين فترة طويلة فى منطقة تعدين زلاتؤوست ، خاصة فى مناجم أتليان (قرية فى منطقة مياس) لم تكن من قبيل الصدفة . ففى هذا المكان قاد الأخيران عملية تنقيب فى أبريل عام 1846 بجانب فرقة من منقبى الذهب المحليين . وعلى ضفاف نهر أتليان تحديداً كانت تعمل نفس « آلة » غسل الذهب ذات المحرك البخارى، والتى لا يوجد مثيلتها سوى فى وادى مياس. ولهذا كانت آلة ب. ب. أنوسف أحد أهم الأهداف ، التى وصل من أجلها المهندسان إلى مناجم مياس . لم تكن طريقة عمل الآلة هي فقط ما عرضه عالم الفلزات على الضيوف الأجانب، ولكنه أتاح لهم الفرصة لتصميم رسوم تخطيطية لها أيضاً . وهكذا يكون قد نفذ أوامر وزارة المالية بتهيئة جميع الظروف للضيوف الأجانب من أجل التعرف على الوثائق الضرورية المتعلقة بأحدث تقنيات التعدين . على حد وصف المؤرخين الروس ، « فإن ب. ب. أنوسف لم يخف تقنية متقدمة أخرى – وهي استخراج الذهب من الرمال عن طريق التبليد (الصهر الحرارى . تعليق المترجم) »[43] . وفقاً لشهادات المصادر ، نلاحظ أن "أ. أ. أنوسف" كان قادراً تماماً على التفاهم مع الضيوف الأجانب : عبر المعلومات فى شهادة تخرجه من المدرسة العسكرية ، فقد كان العالم يتقن اللغة الألمانية (بالطبع أقل كفاءة

42 - أنظر: ف. ف. ماروزف. مدينة فى وادي الذهب. تشيلیابينسك، 1973. ص. 24؛ أي. أي. فيشيف. تقنية استخراج الذهب // مقاطعة تشيلیابينسك: الموسوعة. تشيلیابينسك، 2004. ص. 499.

43 - أ. ف. مانين. شريحة الذهب. إيكاترينبورج، 1995. ص. 110.

من إتقانه للفرنسية)[44] . أرتأت قيادة المنطقة ضرورة أن يتعرف المصريون بصورة تفصيلية على رواسب منطقة نيكولايفسك ومنطقة ألكساندرسك. كانت رواسب مقاطعة نيكولايفسك الملكية تنتج فى المتوسط 15 زولوتنيك ذهب كل 100 بود ذهب ، مما اعتبر إنجازاً غير مسبوق. انتجت لحظة وصول المصريين رواسب المنطقتين ، اللتان اشتهرتا بوجود المعادن ، أكثر من 400 بود ذهب. يشير "ر. مورشيسون" فى مذكراته، أن: « وجود معادن بوزن ثقيل تعتبر بشكل عام ظاهرة نادرة فى الأورال ؛ إلا أن أكثر المعادن المميزة بكبر حجمها كانت متواجدة فقط فى تلك المساحة المحدودة ، التى ترويها مياه نهر تاشكوتارجانك (أحد أفرع نهر إيرميل فى مياس) وخاصة فى رواسب منطقتي نيكولايفسك ألكساندرسك الملكية »[45] .

بالطبع إطلع المهندسان المصريان على آلية سير العمل فى مناجم مياس للذهب . بالطبع ظل وادى الذهب بمياس نموذجاً جلياً أمام أعينهم بعد ذلك عند رؤية آلاف السودانيين ، الذين اقتادوهم بأمر من محمد علي إلى ورشة غسل الذهب فى فازوغلي. فى ذلك الوقت، كانت مناجم مياس مركزاً اقتصادياً للمنطقة بأكملها . فقد كان يتوافد كل عام عشرات العمال من القرى المجاورة للعمل حوذيين وفى حرف أخرى، وكثيراً ما كانوا يظهرون شتاءً فى المناجم بدون الملابس الشتوية ، التى كانوا يستلمونها من حساب المرتب . فقد كان العمل بالمناجم شاقاً جداً خاصة بالنسبة لفلاحى الأمس ، الذين لم يعتادوا على العمل فى التعدين . ولهذا ، لم يأت من قبيل الصدفة أن يحاول الكثيرون التخلص من هذا العمل ، مطالبين إعفائهم من العمل فى مناجم مياس مدعين أسباباً مختلفة (مثل: مرض الزوجة ، شيخوخة الأب وغيرها)[46]. كان العمل فى مصنع زلاتوؤوست أفضل بكثير من غسل رمال الذهب فى ورش مياس .

أثناء تواجد المهندسين المصريين في منطقة تعدين زلاتوؤوست عام 1846، كانت الأوضاع في المناجم تسير بشكل طبيعي. خلافا لما تعرف عليه المصريين من إنجازات في مجال استخراج الذهب، كان هناك بعض الظواهر، بالتأكيد، حاولوا

44 - أنظر: جنرال التعدين بافل أنوسف / إصدار م. ي. جلافاتسكي. إيكاترينبورج، 1999. ص. 16، 19.

45 - المسح الجيوغرافي لروسيا الأوروبية وجبال الأورال ... // مجلة التعدين. 1848. العدد السابع. ص. 46.

46 - أنظر: أرشيف منطقة تعدين زلاتوؤوست. صندوق19. فهرس 1. ملف 1356. ورقة 48-31.

إخفاؤها عنهم. فقيادة المنطقة، التي استقبلت الضيوف الأجانب، لا يمكنها أن لا تهتم بشأن قضايا أمنها. كما أن الوضع الأمني في منطقة المناجم كان غير مستقر. علي مدار فصل صيف 1845، تحديدًا قبل عدة أشهر من وصول المصريين، كان البحث قائمًا في غابات منطقة زلاتؤوست عن عصابة «ضليعة في جرائم السرقة والقتل». ما أثار قلق رئاسة منطقة التعدين لحظة وصول المهندسين المصريين عدم العثور علي المجرمين والتخلص من شرورهم: ولهذا كانوا يطلقون عليهم في وثائقهم كما كان في السابق «قطاع طرق من البشكيريين المجهولين»[47]. يمكنك أن تتخيل مدي قلق القيادة المحلية من تعرض الضيوف الأجانب، الذي جاءوا « بتوصية عليا من الإمبراطور »، إلي خطر الموت علي الأراضي التابعة لمنطقة تعدين زلاتؤوست!

وكما وقعت حوادث فظيعة بالمنطقة ، فقد وقعت في الوقت ذاته حوادث مضحكة . علي سبيل المثال ، في شهر يناير من عام 1846 أعلن الحوذي التابع لإدارة مصنع كوسا (مدينة في مقاطعة شليبيانسك. تعليق المترجم) - العامل هاديي أورفاتشوف عن فقدانه « طردًا » يحتوي علي « سبعة أوراق مالية ونقود بقيمة 75 كوبييك من الفضة » عند عودته إلي كوسا، أرسل من أجله إلي الإدارة الرئيسية لمصنع زلاتؤوست .[48] والمدهش أن المهندسان المصريان سافرا علي نفس الطريق بعد شهرين...

يجدر بنا الحديث عن أشهر الطرق الروسية في ذلك الوقت. من الطريف أن إدارة مصنع زلاتؤوست قررت الاعتناء بقضية تحسين حالة الطرق بالمنطقة في نفس وقت تواجد المصريين بالأورال . في شهر فبراير عام 1846 بدأت إدارة المصنع بالعمل علي طريق في منطقة مناجم مياس. كان الطريق الممتد من مياس إلي قرية سيروستان (قرية في منطقة مياس . تعليق المترجم) يمر في ذلك الوقت عبر أحد التقاطعات، ولم يكن به أسوار: « في فترات الليل لم يلحق الخطر بالمارة فقط، ولكن أيضًا بالبريد لوجود منحدرات وتصدعات في الشاطئ مما يعرض المركب للسقوط والتحطم حتي الموت». في الواقع كان جميع ممثلي السلطة مهتمين بعدم تعرض الضيوف الأجانب، الذي لاقي وصولهم استحسان مقام الإمبراطور العالي، للقتل بسبب مأساة روسيا المعتادة والممثلة في سوء حالة الطرق. أعلن رئيس الشرطة المحلية بمنطقة ترويسك (منطقة في الجزء الشمال الشرقي في ألتاي. تعليق المترجم) أنه تلقي أمرًا

47 - أنظر: أرشيف منطقة تعدين زلاتؤوست. صندوق22. فهرس 1. ملف 954. ورقة 49.

48 - أنظر: نفس المرجع. ورقة 19.

من محافظ أورينبورج المدني «بتعبيد طريق البريد، حتي لا يوجد به أي حفر أو نقر تعوق مرور البريد أو المارة»[49].

مع ذلك ظهرت حاجة ماسة لتعديل خطة استقبال الضيوف الأجانب، التي قامت إدارة تعدين الأورال بإعدادها من قبل . يتعلق الأمر بالجانب المالي من رحلة "علي محمد إبراهيم" و "عيسي الدهشوري" إلي الأورال . في فبراير من عام 1846 أضطر وزير المالية لإخبار مفتش جبل بيرج بالأورال، أن «مهندس التعدين، العقيد كافاليفسكي المصاحب للمهندسين المصريين علي محمد والدهشوري عبر ورش الذهب بالأورال أخطر غرفة أركان مهندسي التعدين، أن النقود، التي استلمها من غرفة الأركان بقيمة 1200 روبل فضة لإنفاقها، سواء علي نفسه أو علي المهندسين المذكورين قد صرفت كلها، كما يطالب بتخصيص مبلغ إضافي من خزينة مصنع إيكاترينبورج»[50]. ولهذا كان ضروريًا إصدار أمر بتسليم "ي. ب. كافاليفسكي" أموال إضافية «كقرض» من خزينة مصانع إيكاترينبورج.

وتم وضع كشف تقديري بنفقات رحلة المهندسين المصريين إلي الأورال، والتي أصبحت تقدر الآن بأكثر من ألفين و950 روبل. يبدو أن السبب وراء إعادة تقييم كشف الحساب السابق يكمن في عدم أخذ واضعيه عامل حسن الضيافة في الاعتبار. مع عدم توافر معلومات دقيقة بخصوص تكاليف السفر بين المناطق السكانية المختلفة، دائماً ما كانت النفقات تقديرية في تلك الظروف. في فترة تواجد المصريين بالأورال أرسل موظف بهيئة التعدين كوزنيتسوف تقريرًا إلي رئاسة أركان مصانع زلاتوؤوست «يستأذن» فيه توضيح «كم فيرستا (وحدة قياس مسافة روسية تساوي 1066,8 متر. تعليق المترجم) يبلغ طريق البريد من مصنع زلاتوؤوست حتى مدينة إيكاترينبورج»[51]. حتي تلك المعلومات لم تكن في كثير من الأحيان متوافرة لدي موظفي هيئة التعدين، ناهيك عن الأرقام الدقيقة لمصروفات الضيوف الأجانب. وفقاً لشهادات مصادر الأرشيف، في النهاية تم اقتراض أكثر من 1780 روبل إضافية من خزينة مصانع زلاتوؤوست: في شهر مايو عام 1846 توجب علي رئيس الأركان بلوم نقل الضيوف المصريين، الذين مكثوا في الأورال سبعة

49 - أرشيف منطقة تعدين زلاتوؤوست. صندوق22. فهرس 1. ملف 954. ورقة 47-48.

50 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 24.لفهرس 23. ملف 7101. ورقة 16-17.

51 - أرشيف منطقة تعدين زلاتوؤوست . صندوق 22 .فهرس 1.ملف 954.ورقة22.

أشهر، إلي أوديسا بعدما استنفذوا جميع الأموال المخصصة مسبقاً لإعاشتهم.

ولكن بحلول شهر مايو عام 1846 توجه رئيس هيئة تعدين مصانع زلاتؤوست إلي مفتش جبل بيرج بالأورال - العقيد زلوبين بطلب تسليم الأموال الإضافية للصرف علي المصريين بقيمة 1781 روبل و 93 كوبييك من الفضة إلي الخزينة مرة أخري، أو يقوم زلوبين بطلب تقرير عن بنود صرف تلك الأموال من رئيس الأركان بلوم[52]. من المرجح أنه كان يأمل في أن يتمكن بلوم من توفير بعض المال. استمرت تلك القصة طويلاً جداً. في يونيو عام 1846 «استأذن» العقيد "ف. أ. سامارسكي" من زلوبين بالإسراع في تسليم تقرير مصروفات رحلة المصريين عبر روسيا[53]. في سبتمبر عام 1846 طالب زلوبين من سامارسكي إعادة المبلغ المطلوب - 1781 روبل و93 كوبييك إلي مصانع زلاتؤوست. ولكن اتضح أن رئيس الأركان بلوم لم يقدم حتي الآن تقرير المصروفات ، والذي ظهر فقط في نوفمبر من عام 1846، وعلي كل حال كانت نتائجه مفاجئة لرئاسة هيئة التعدين.

اتضح أن لدي "بلوم" فائضًا في المصروفات بقيمة 44 روبل و 6 كابييك. وكما فسر رئيس الأركان نفسه، فقد أنفق هذا المبلغ علي إعاشة المصريين في أوديسا حتي تسلمهم الجنرال فيودوروف ـ القائم بأعمال الحاكم العام لنوفوروسياسك (إحدي مدن روسيا الفيدرالية علي البحر الأسود. تعليق المترجم) وبيسارابيا (مصطلح يشير إلى منطقة جغرافية تقع في أوروبا الشرقية يحدها من الشرق نهر الدنستير ومن الغرب نهر بروت. تعليق المترجم). جاء علي لسان بلوم أن الأخير كان مضطراً في بعض الأحيان للإنفاق علي الضيوف المصريين من حسابه الخاص[54].

ولهذا وافقت رئاسة هيئة التعدين علي تعويض بلوم عن تلك المصروفات.

ولكن القصة كلها انتهت في يوليو عام 1847 بعد عامين من بدء رحلة المصريين إلي روسيا عندما أعيد المبلغ المزعوم - 1781 روبل و93 كوبييك إلي مصانع زلاتؤوست.

أعربت القيادة المصرية عن عرفانها لروسيا ، التى أتاحت الفرصة للمهندسين

52 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 24.لفهرس 23. ملف 7101. ورقة 24-23.

53 - أنظر: نفس المرجع. ورقة 26.

54 - أنظر: الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 24.لفهرس 23. ملف 7101. ورقة 33.

بتعلم طرق التعدين . كما ثـمنت الدور الشخصى لـ «ي. ب. كافاليفسكي ». ولهذا ليس من قبيل الصدفة أن يرسل « محمد علي » هدية شخصية إلى العقيد الروسي فى خريف عام 1846 ؛ وهي عبارة عن علبة تبغ مرصعة بالألماس . ورداً لتلك الهدية أرسل « ي. ب. كافاليفسكي» إلى المتحف المصري مجموعة من معادن الأورال[55] .

بهذا الشكل انتهت الملحمة المرتبطة برحلة « علي محمد إبراهيم » و «عيسي الدهشوري » عبر روسيا . بعد ذلك قام « ي. ب. كافاليفسكي» ورفاقه بزيارة فى المقابل إلى مصر والسودان ، تسرد تفاصيلها إحدى مخطوطات « إيفان بارودين » فى الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك .

55 - أنظر: ج. ف. جارياتشكين. مصر فى أعين الروس ... ص. 255-253.

الفصل الثاني

بعثة خبير التعدين إيفان بارودين إلى مصر

جاءت نتائج تدريب المهندسين المصريين فى الأورال مخيبة لآمال "محمد على" بشكل عام . توضح تقارير القنصل الروسى " أ. م. فوكا " المُقدمة إلى القسم الآسيوى التابع لوزارة الخارجية ، أن والى مصر كان ينتظر بفارغ الصبر عودة الشابين المتخصصين فى التعدين إلى أرض الوطن من أجل الإقدام على بناء ورش غسل الذهب فى البلاد[1]. مع هذا ، كما يشير الباحث المحلى فى زلاتؤوست "أ. ليبرمان" ، « لم يسر الأمر على هذا النحو »[2] بمجرد عودة "على محمد إبراهيم" و "عيسى الدهشورى" . وذلك على الرغم من ، أنهما لم يعودا من روسيا خاليا الوفاض، بل كانت بحوزتهما نماذج لآلات غسل ذهب . بمجرد العودة من روسيا بدأ الشابان

---

1 - أنظر: ج. ف. جارياتشكين. مصر فى أعين الروس... ص. 246 – 247 ، 251.

2 - أ. ليبرمان. الأوراليون فى مصر // عامل زلاتؤوست. 1976. 11 سبتمبر.

المتخصصان العمل فى النوبة (فى شهرى مارس وأبريل 1847 فى فازوغلى) . وبنهاية عام 1847 ، أرسلا تقريراً إلى روسيا عن العمل الذى أنجزاه بجانب نماذج من الذهب المستخرج .

وركز التقرير بشكل كبير على الدليل ، الذى يثبت أن منطقة (كاسان) الموجودة فى فازوغلى هى الأنسب لبناء ورشة غسل الذهب. يشير "عيسى الدهشورى" و "على محمد إبراهيم" فى وصفهما للمنطقة ، التى سرعان ما ستأتى إليها البعثة الروسية : « كاسان جبل يسكنه زنوج بارتاس ؛ ويقع فى جنوب شرق فازوغلى ويستغرق الوصول إليه مسيرة يومين على طريق القوافل . على المنحدر الشرقى للجبل توجد إحدى أكثر البقع الزراعية اتساعاً ؛ حيث ينتشر على جانبيه نبات رائع ، يطلق عليه السكان المحليون اسم طماطم... على بُعد 50 أو 60 دقيقة شرق المنطقة الزراعية تظهر مساحة شاسعة ، حيث يوجد خام الذهب بكميات كبيرة .

يمكنك إيجاد الذهب أيضاً داخل أنقاض الصخور الجبلية ، المغطاة بلون مائل للحمرة وأكسيد الحديد... يقع الذهب بالقرب من السطح على عمق متر واحد ، كما أن حجم ذرات الذهب فى ضواحى كاسان (التى تدعى القبضة) مرضية إلى حد بعيد . كانت أقل كمية معدن تم استخراجها عند التنقيب بحجم بذور البرسيم أو نبات الحندقوق (الحندقوق الهندى نوع نباتى ينتمى لجنس الحندقوق من الفصيلة البقولية ، وهو أحد محاصيل الأعلاف. تعليق المترجم) ؛ حتى أن تيار المياه لم يجرفها من فوق آلة الغسيل ؛ ولم يتم العثور إلى أية حراشف أو رقاقات ذهب ، أما القطع الكبيرة تعادل حجم القنبلة أو أكبر . تم إكتشاف طبقات تحوى ذهباً فى مناطق عدة على عمق متر واحد أو أكثر بقليل » .

من أجل إثبات جدوى استخراج الذهب من منطقة كاسان تحديداً قام المهندسان المصريان الشابان بتوثيق تلك المعلومات . كما أوضحا ، أن التجارب ، التى أجرياها تثبت إمكانية استخراج ذهباً بقيمة ما يقرب من أربعة قروش فى اليوم بالإستعانة بعامل واحد فقط ومعه " معدات ثقيلة". وفى حالة إستخدام الآلات أو الطسوط ، المستخدمة فى مناجم مياسك ، «يمكننا أن نعول بكل ثقة على عشرة أضعاف إنتاجية الفرد الواحد »[3].

فى النهاية بإمكان آلة غسل واحدة أن تنتج فى المجمل ما لا يقل عن أربعين قرش ذهب فى اليوم . ويضيف المهندسان إمكانية بناء ورشة بطاقة ألفي عامل فى ضواحي كاسان ، وبهذا يمكن أن تتضاعف معدلات الإنتاج مع الوقت . ومن

3 - أ. ب. فالسكايا. ي. ب. كافاليفسكي والمهندسون المصريون... ص. 133.

هذا المركز يمكن إجراء أبحاث جيولوجية فى المناطق المجاورة ، حيث يمكن إكتشاف مخابئ جديدة للمعدن النفيس . ولكن كان لزاما على " محمد على " الإنتقال فى أسرع وقت من مرحلة الحديث إلى مرحلة الفعل . ولهذا كان مضطراً عام 1847 لطلب المساعدة مجدداً من روسيا . فى تلك الأثناء أصبحت العلاقات الروسية المصرية متلاحمة بشكل يجعل من الصعب رفض طلب محمد على (كما حدث عام 1843) ، على حد تعبير رئيس البعثة الدبلوماسية الروسية فى القسطنطينية ، التى أرتأي أنه « فى حالة عدم السماح لضباط هيئة التعدين بالتوجه هذه المرة إلى مصر »، فمن الضرورى ، أن يُعرض السفر إلى شمال شرق إفريقيا على مهندس متقاعد ذو خبرة ليبدو الأمر على أنه زيارة شخصية[4].

إتفقت الإمبراطورية الروسية ومصر فى النهاية على وصول مجموعة المتخصصين الروس وعلى رأسهم " ي. ب. كافاليفسكي " إلى مصر من أجل تطوير صناعات استخراج الذهب فى شرق السودان . بعث " محمد على " رسالة إلى المستشار الكونت ك. ف. نيسلرود ، تعبيراً عن إمتنانه لروسيا ، جاءت كالآتى : « مع شعورى باسمى معانى العرفان لكرم جلالته ، الذى أبداه لى بشتى الوسائل ، أقدمت على مطالبة جلالته بإرسال مهندس لتفقد مناجم الذهب ، التى إفتتحت فى سنار . وليسمح لى جلالته ، بجانب طلبى ، بالتعبير عن أمانى الطيبة لصاحب العصمة، وقد علمت برضى بالغ أن العقيد التابع لإدارة مهندسى التعدين " كافاليفسكي " تم تعيينه للقيام بتلك البعثة.

أدين بالعرفان لحكومة الإمبراطورية نظراً لتهيئتها أفضل الظروف الممكنة وسماحها للطالبين المصريين ، اللذين أرسلتهما إلى روسيا ، بدراسة أحدث طرق إستغلال الرواسب التى تحوى الذهب. وازداد دينى وعرفانى لجلالته بعد الخدمة الجليلة ، التى أنعم عظمته علىَ بها ، كما أرجو صاحب العصمة أن يتقبل احترامى وتقديرى . فليسعد اللّه أيامه! »[5].

وكما أفادت التوصيات ، التى تلقاها " ي. ب. كافاليفسكي"، قام الأخير بإختيار خبير تعدين وعامل غسل ذهب ضمن حملته ـ وهم «أفضل العناصر من ناحية القدرات والمعرفة والسلوك ، وكانت الأولوية لذوى البنيان القوى والعزاب ومن لديه عائلات صغيرة »[6] . والمُلفت للنظر أن رئاسة هيئة التعدين كانت تدرك جيداً ، أن الرحلة إلى مصر يمكن أن تستمر طويلاً ، وتتعرض لخطر مميت ،

4 - أنظر: ج. ف. جاريانشكين. مصر فى أعين الروس... ص. 256.
5 - مصر فى أعين الروس... ص. 264-263.
6 - ب. أ. فالسكايا. رحلة إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي. ص. 98.

ولهذا أوصت الرئاسة " إيجور بتروفيتش " بتركيز الاهتمام على الخبراء ، غير المثقلين بأعباء أسر كبيرة . وقع الإختيار فى النهاية على خبير التعدين " إيفان تروفيموفيتش بارودين " وعامل غسل الذهب " إيفان سافيليفيتش فومين " . كان الخبير فى ذلك الوقت يُدعي أستاذ التعدين ، الذى يدير العمل بالمناجم. حتى نهاية القرن الثامن عشر ، كانت كوادر المهندسين الفنيين فى صناعات التعدين ، سواء فى روسيا أو فى غرب أوروبا تقضى فترة التأهيل على إستخدام " وسائل عملية خبيرة " ، مثل التعلم الذاتى ، واستيعاب العلوم التقنية العالمية الحديثة بشكل مستقل ، والدراسة العملية لعلوم الفلزات والتعدين فى المصانع والمناجم.[7] كان وضع هؤلاء فى المجتمع الروسى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر متناقضاً ومزدوجاً بشكل كبير . يشير الباحثون إلى أن الكوادر التقنية الإدارية لم تنخرط فى البناء الطبقى للمجتمع الروسى . فلم يكن الجميع يتمتع بنفس الحقوق، التى كانت تتباين تبعاً للمصنع ، الذى يعملون به . فى مناطق التعدين الخاصة كان وضعهم القانونى يخضع لإرادة مالك الضيعة . أهم ما كان يميز العمال من أغلبية السكان – هو إرتفاع أجر العامل . فبجانب الأجر الأساسى ، تم صرف وجبة طعام، ودائماً ما كان العامل يحصل على ما يعادلها فى شكل نقود. من الناحية القانونية لم يكن مسموحاً بتقليص ساعات العمل، وفى المناطق الخاصة يتوقف هذا الأمر على رغبة كل مالك[8].

تشير وثائق أرشيف منطقة تعدين زلاتؤوست إلى أن عائلة " بارودين " كانت مشهورة لحد كبير فى المصانع المحلية والمناجم فى الأربعينيات.

تقدر أعداد من يحملون اسم تلك العائلة فى « الكتاب الرسمى لإحصاء أجور العمال والمؤن » سبعة عشر عاملاً. من بينهم ، على سبيل المثال ، " أكيم تروفيموفيتش " البالغ من العمر تسعة وأربعين عاماً ، و " سيرجي تروفيموفيتش بارودين " البالغ من العمر خمسة وخمسين عاماً ، واللذان ربما كانا أقارب بطلنا ، (أو أخوته) . فى ذلك الوقت تحديداً أتهم أحد أفراد عائلة بارودين بسرقة

7 - أنظر: د. ف. جافريلوف. مصانع تعدين الأورال القرن السابع عشر - القرن العشرين. إيكاترينبورج، 2005. ص. 116.

8 - أنظر: ف. ف. توروب. نظام إدارة مصانع التعدين الخاصة فى شمال الأورال فى النصف الأول من القرن التاسع عشر: ملخص رسالة ماجيستير التاريخ. إيكاترينبورج، 1999. ص. 24-23.

الذهب من المناجم[9]. كان بعض العمال الأخرين، ومنهم على سبيل المثال " أكيم تروفيموفيتش بارودين " ، متواجدين فى مناجم الذهب لفترة تتراوح بين 200 إلى 250 يوم فى العام ، يعملون فى غسل الذهب. والبعض الآخر (على سبيل المثال، ابنه إيبيفان أكيموفيتش) كانوا يقضون نفس المدة (200 ـ 250 يوم) فى تخزين الخشب لإنتاج فحم الخشب[10].

كيف يمكنك الارتقاء لرتبة خبير تعدين فى ورش الذهب بمياس؟ توضح الوثائق أن الخبراء المؤهلين فى مصنع زلاتؤوست أحد الروافد الرئيسية لإمداد هذا الكادر . ففى عام 1849 وقع الاختيار على مساعد عمال ورشة العوارض فى مصنع زلاتؤوست نيكاندر سيسويف لشغل الوظيفة الشاغرة لخبير تعدين المنطقة[11] .

مر " إيفان بارودين " بمسيرة حياة زاخرة حتى وصول المصريين إلى الأورال. توضح " ب. أ. فالسكايا " ، التى عملت على ملف خدمة بارودين ، أنه وُلد عام 1799، ونشأ وسط عمال مصانع هيئة التعدين، وهو أيضاً ابن عامل بمناجم النحاس التى يملكها بيلوكوف . ألتحق إيفان بالخدمة فى مناجم التعدين فى مياس ، وهو صبى فى الثانية عشر من عمره . فى البداية عمل بارودين سائقاً ، بعد ذلك أصبح عامل تعدين في مصانع مختلفة . ومنذ عام 1824 دأب " إيفان بارودين " ذو الخمس والعشرين ربيعاً على العمل فى ورش الذهب : أولاً كعامل خدمات خاصة، ثم خبير صف . وفى عام 1836 أصبح " إيفان تروفيموفيتش " خبير تعدين . ونظراً " لإخلاصه المميز وخدماته الجليلة " مُنح إيفان عام 1845 قلادة فضية تحمل شعار " تقديراً للإخلاص فى العمل" لحملها على رقبته فوق وشاح القديسة آنّا[12] (وهو وسام منحه الإمبراطور بافل الأول لموظفى الدولة والمحاربين المميزين عام 1797 . تعليق المترجم) . تشير ب. أ. فالسكايا ، أن « أ. بارودين ، صاحب القامة الطويلة والأعين الرمادية وشعر ولحية صهباء ، يتميز عن عمال الأورال بخبراته ومعارفه»[13] .

9 - أنظر: أرشيف منطقة تعدين زلاتؤوست. صندوق19. فهرس 1. ملف 1313. ورقة12-1؛ أرشيف منطقة تعدين زلاتؤوست. صندوق22. فهرس 1. ملف 937. ورقة 17، 23.

10 - أنظر: أرشيف منطقة تعدين زلاتؤوست. صندوق22. فهرس 1. ملف 937. ورقة 18-17.

11 - أنظر: أرشيف منطقة تعدين زلاتؤوست. صندوق22. فهرس 1. ملف 1089. ورقة 27.

12 - أنظر: إي. يو. نيفرايفا. بعثات عمال إستخراج الذهب فى مياس... ص. 81-80.

13 - ب. أ. فالسكايا. رحلة إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي. ص. 98.

كان " إيفان تروفيموفيتش بارودين " يتمتع بخبرة فى البعثات الخارجية قبل سفره إلى مصر . طبقاً للوثائق ، فإنه أثناء تواجد المهندسين المصريين فى زلاتؤوست عام 1846 تحديداً ، كان أي. ت. بارودين مبعوثاً بصحبة صديقه ، خبير التعدين أ. ك. كريسين (كان خبيراً أيضاً ، وصديقاً لإيفان توفيموفيتش فى العمل) " بتصريح من رئيس مجلس الإدارة " إلى بوخارست " للتنقيب عن الذهب ". تؤكد " أي. يو. نيفرايفا " أن خبير تعدين مصنع مياس ياكوف ريزانسكي كان من المفترض أن يسافر بصحبة بارودين ، إلا أن سنه الكبيرة وقف حائلاً ضد ذلك[14] .

لم تأت رحلة " إيفان تروفيموفيتش بارودين " إلى مملكة الدوناي من قبيل الصدفة . فقد بدأ عمل المتخصصين الروس فى إستخراج الذهب هنا منذ عام 1808. فالخطوات المُتخذه على طريق التنقيب عن المعدن النفيس فى مالدوفيا وفالاخيا (منطقة تاريخية فى رومانيا ، وتقع فى شمال نهر الدانوب . تعليق المترجم) أعتمدت على المعلومات الخاصة بتواجد الجيش الروسى هناك . من الواضح أن بعض الغجر المحليين كانوا يعملون على تجميع رمال الذهب . وفى يناير من عام 1811 وصل ذهب فالاخيا إلى بطرسبورج ، حيث قام المتخصصون الروس بتقييم مدي جودته[15] .

سعت روسيا أثناء الصراعات العسكرية مع الإمبراطورية العثمانية إلى إضعاف الرقابة التركية على مالدوفيا وفالاخيا بهدف تقوية نفوذها فى المنطقة . ووفقاً لمعاهدة آق كرمان (مدينة فى مقاطعة أوديسكا فى أوكرانيا . تعليق المترجم) المبرمة عام 1826 بين روسيا وتركيا ، وافقت الأخيرة على إعادة الحكم الذاتى لمالدوفيا وفالاخيا. كما أحتل الجيش الروسى ممالك الدوناي فى إطار الحرب بين روسيا وتركيا خلال عامى 1828 و 1829 . وثبت الإحتلال الروسى أقدامه على تلك الأراضى من خلال إتفاقية أدرنه (مدينة فى شمال غرب تركيا) للسلام عام 1829 . ولكن تمكن أحمد باشا ، أثناء مباحثاته فى سانت بطرسبورج عام 1834 ، من الحصول على موافقة روسيا من أجل إجلاء قواتها عن ممالك الدوناي . وفى المقابل لا يتقلد لمنصب السلطان سوى أحد المرشحين ، الذين تقترحهم روسيا . كانت الإمبراطورية العثمانية مضطرة لتأييد نظام الممالك الإدارى ، والذى إتخذته دوواوين مالدوفيا وفالاخيا[16] .

14 - أي. يو. نيفرايفا. بعثات عمال إستخراج الذهب فى مياس... ص. 80.

15 - أنظر: ف. ف. دانيليفسكي. الذهب الروسى. تاريخ إكتشافه واستخراجه حتى منتصف القرن التاسع عشر. موسكو، 1959. ص. 293.

16 - أنظر: ن. س. كينيابين. سياسة روسيا الخارجية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. موسكو، 1963

مع هذا بقى عدد لا بأس به من الروس على أراضى مالدوفيا وفالاخيا حتى بعد جلاء القوات الروسية . من المعروف أن الإدارة الروسية كانت تعمل بفاعلية فى مالدوفيا وفالاخيا أثناء المعارك الروسية التركية . خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر كان يعيش ويعمل كثير من المحاربين والموظفين الروس[17] . مع هذا ، وفقاً رأى بعض الباحثين الروس ، فقد فقدت روسيا التعاطف السياسى من جانب مقاطعات محلية عدة ، فى الوقت الذى كانت تلعب فيه « دور من يزود عن ممالك الدوناي ولكن بقبضة حديدية » ، مما ساعد على توجه تلك المقاطعات مرة أخرى إلى الغرب وحتى إلى تركيا نفسها »[18] . من المدهش أن قطاعات مختلفة من سكان مالدوفيا وفالاخيا تعاملت بشكل متباين مع ممثلى روسيا . كان على إيفان بارودين وصديقه الإصطدام ، على ما يبدو مع هؤلاء ، الذين ارتأوا عدم جدوى وجود روسيا في تلك المنطقة .

كان السبب وراء سفر بارودين وكريسين إلى بوخارست له علاقة بظهور جمعية « للمناجم وتعدين الرواسب الحاملة للذهب والمعادن الأخرى » فى فالاخيا وعلى المنحدر الشرقى لجبال كاربات (سلسة جبال تمتد فى أوروبا الوسطى والشرقية ، وبنسبة عالية فى رومانيا. تعليق المترجم) . وبعدما نما لعلمه أن الجمعية بحاجة إلى مهندس تعدين محترف ، سرعان ما وافق ي. ب. كافاليفسكي على السفر إلي فالاخيا . وفى عامى 1843 و 1844 قام الأخير بتفقد منطقة نهر لوترو بحثاً عن الذهب قبيل وصول خبراء الأورال مباشرةً.

تشهد الوثائق: أنه فى الفترة ، التى كان إيفان بارودين وصديقه كريسين متواجدين فيها فى بعثة خارجية ، لم تنس إدارة منطقة تعدين زلاتؤوست الاعتناء بأسرهم ، إنما دفعت لهم أموالاً وسلمتهم دقيق الجودار[19] (يتميز بلون داكن ونكهة أقوي من الدقيق الأبيض . تعليق المترجم) .

وعلى أية حال ، فى الوثائق المتعلقة بجميع أنواع المصروفات ، التى أنفقتها منشآت منطقة تعدين زلاتؤوست عام 1846 ، وردت أسماء أبطال آخرين عن موضوع حديثنا.

---

17 - أنظر: ف. يا. جروسول. روسيا خارج الحدود فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. موسكو، 2008. ص. 94-92.

18 - تاريخ السياسة الخارجية لروسيا. النصف الأول من القرن التاسع عشر... ص. 342.

19 - أنظر: أرشيف منطقة تعدين زلاتؤوست. صندوق19. فهرس 1. ملف 1330. ورقة 39-16.

فعلى سبيل المثال ، حصل قائد الأركان بلوم ، الذى رافق المهندسين المصريين من زلاتؤوست إلى أوديسا، على أدوية من صيدلية الأسلحة بقيمة 57 كوبييك . كما توجب عليه دفع ثلاثة روبلات و48 كوبييك مقابل الخشب المستخدم فى تدفئة غرفته . بالإضافة إلى مرافقة المصريين كان بلوم يقوم بتنفيذ بعض مهام الرئاسة فى منطقة تعدين زلاتؤوست عام 1846 . ولهذا لم يكن صدفة أن يُطالب برد روبل وربع كوبييك إلى الخزينة مقابل المصاريف الزائدة على إصلاحات الكبارى والطرق ، التى قام بها العمال (أمام الولايات) تحت قيادته المباشرة .[20]

استمرت البعثة التى قام بها بارودين وكريسين إلى فالاخيا مدة عامين ، ثم عاد الأخيران إلى الأورال فى مايو عام 1847 . فى ذلك الوقت إتضح أن بانتظار إيفان تروفيموفيتش رحلة أكثر بعداً (إلى مصر) .

كان متخصص غسل رواسب الذهب " إيفان سافيليفتش فومين " رفيق بارودين فى تلك الرحلة . وفقاً لما أورده أ. ج. كازلوف فإن فومين ـ عامل سابق فى مناجم بيروزوف ، ثم عمل بعد ذلك فى مياس وساعد "ب. ب. أنوسف" فى إنشاء آلة لغسل الذهب . وكان يصغر إيفان تروفيموفيتش بعشرين عاماً تقريباً (وُلد عام 1818) كما يرجع أصله أيضاً إلى عمال مصانع هيئة التعدين . فى عام 1836 ، عندما أصبح بارودين خبير تعدين ، كان فومين يعمل مراسلاً فى مناجم مياس ، بعد ذلك مارس أعمالا كثيرة فى المنجم . إلا أنه لم يكن يتمتع بنفس الخبرات ، التى يتمتع بها صديقه: يبدو أن إيفان بارودين هو الأكبر فى السن هذه المرة .

كان خبراء صناعات الذهب فى مياس على مستوي عالى من الكفاءة ، حتى أن أعمالهم الفنية كانت ذائعة الصيت فى أنحاء الإمبراطورية الروسية . ولهذا كانوا يسافرون أكثر من مرة فى بعثات عمل لإستغلال خبرتهم خارج حدود منطقة تعدين زلاتؤوست . تشير "أي. يو. نيفرايفا " أن خبراء التعدين وعمال غسل الذهب فى مناجم ذهب مياس كانوا يعملون بشكل مؤقت فى مقاطعة إيكاترينبورج وجنوب القوقاز ومحافظة أولونتس (أولونتس هى إحدى مدن روسيا فى الكيان الفيدرالى الروسى جمهورية كاريليا . تعليق المترجم) وغيرها فى الأربعينيات وبداية خمسينيات القرن التاسع عشر . أدي انتشار تلك الظاهرة إلى وضع قواعد جديدة فى المناجم لتنظيم مثل تلك البعثات ، حيث ألزمت أصحاب المصانع المستفيدة من العمال بضمان كفالة للخبراء ولأسرهم على حد سواء .[21]

---

20 - أرشيف منطقة تعدين زلاتؤوست. صندوق19. فهرس 1. ملف 1330. ورقة 16-39.

21 - أنظر:أي. يو. نيفرايفا. بعثات عمال استخراج الذهب فى مياس فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. تاريخ ذهب مياس. ص.80-79.

ولكن تعتبر البعثة إلى مقاطعة إيكاترينبورج أمر ، والبعثة إلى مصر أمر مختلف تماماً . لم يسافر خبراء تعدين مياس إلى هذه المسافة البعيدة من قبل! ولهذا السبب تم التعامل مع الأمور المالية المرتبطة بتلك الرحلة بشكل مختلف تماماً . إقترح رئيس أركان مهندسى التعدين تخصيص « مرتب من الخارج» خاص لكل المشاركين فى الحملة : ليحصل « ي. ب. كافاليفسكي» فى الشهر على 50 ورقة من فئة العشر روبلات ، و "أي. ت. بارودين" على 6 روبلات ، كما سيحصل "أي. س. فومين" على أربع ورقات فى الشهر (« أكثر مما كانوا يتقاضونه فى الداخل وفقاً لقوانين التعدين »). فقد تم تخصيص مبلغ مالى مقابل مصاريف التنقلات للسفر عبر أنحاء روسيا وخارج حدودها. خلافاً لذلك ، تلقي "ي. ب. كفاليفسكي" 250 ورقة من فئة العشر روبلات « للمصاريف الطارئة وانتقال موظفى التعدين بعد ذلك من الإسكندرية وحتى مخابئ رواسب الذهب ولشراء الأدوات للباحثين العلميين وغيرها» . بشكل عام شكل إجمالى ما تم تخصيصه لرحلة ي. ب. كافاليفسكي ومجموعته إلى مصر أكثر من 7 آلاف و960 روبل من الفضة[22] .

بدأت رحلة إيفان بارودين وأصدقاءه إلى أفريقيا من زلاتوؤوست . منذ تلك اللحظة تحديداً بدأت قصة خبير صناعات الذهب بالأورال ، على خطى تقاليد أدب الرحلات الروسى فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين . فالسطور الأولى من تلك القصة تخلف فى ذاكرة القاري الروسى نفس الإنطباع عند قراءة النموذج الكلاسيكى للذكريات الوطنية ، مثل « رسائل رحالة روس » للكاتب والمؤرخ ن. م. كارامزين . فى تلك الأثناء كان الشغل الشاغل للمسافرين الروس ، كما جرت العادة ، نقل همومهم الأولى حتى قبل أن يتخطوا الحدود الرسمية للإمبراطورية الروسية . فبمجرد خروجهم إلى البرارى الشاسعة ، ظلوا يعانون من الحالة المزرية للطرق ، مما صعب حركة تنقل الفريق عليها ومن جشع نظار المحطات والحوذيين .

إمتد طريق البعثة من زلاتوؤوست إلى أوديسا ـ أكبر ميناء روسى ، تتحرك خطوط النقل منه فى إتجاه البحرين الأسود والمتوسط[23] . ولكن كان ضرورياً الوصول أولاً إلى زلاتوؤوست ، فالمسافة بينها وبين زلاتوؤوست أكثر من ألفين و990 فرستا . وفقاً لتقديرات بارودين فقد أنفق 97 روبل و93 كوبييك من الفضة على الجوادين زيادة عن المبلغ المحدد . ولكن تقف وراء تلك الأرقام الزهيدة صورة حية لمسيرة ما

22 - أنظر: ج. ف. جارياتشكين. مصر فى أعين الروس... ص. 260.

23 - عن أهمية أوديسا باعتبارها ميناء تجارى كبير. أنظر: و. سكالكوفسكي. السنوات الثلاثون الأولي من تاريخ مدينة أوديسا. 1825-1795. أوديسا، 1837.

يقرب من ثلاثة آلاف فرستا عبر الطرق الروسية فى القرن التاسع عشر ، وكذلك مسيرة نضال ضد تعسف نظار المحطات .

ولهذا تعمد « إيفان بارودين » تذكير من نسي من قراء مذكراته المفترضين ، كيف كانت تسير تلك الأمور فى العادة : « ليس جميعكم يعرف كيفية السفر بأحصنة البريد ؛ فالموظفون يمرون دون أية صعوبات ، بل يعاملون باحترام وعدم تعسف فى كل المحطات. أما بالنسبة للبسطاء أمثالنا ، فالأمر غاية فى الصعوبة - والصعوبة ليست فى الطقس السيء ولا فى إهتزازات المركبة . ما لا يمكنك تحمله الصراع مع نظار المحطات ، الذين يتقاضون على الإستراحة على حسب فصول العام ، فعلى سبيل المثال فى فصل الخريف يتزود المسافران بحصان ثالث ، ولهذا يتقاضون مقابل ثلاثة أحصنة ، إلا إننى دفعت مقابل أثنين فى كل محطة . ولهذا ينشب الخلاف وتتعالى الصيحات مع النظار... »[24] . وبالطبع أورد « إيفان تروفيموفيتش » تلك القصة ، ليس فقط من أجل أن يرسم لقارئه صورة حية عن الظروف ، التى واجهها فى مستهل رحلته . يبدو أنه كان يعول على وصول تلك الفقرة إلى موظفى منطقة تعدين زلاتؤوست والمنشآت الأخرى ، الذين شاركوا فى تنظيم تلك البعثة . وكما هو الحال بالنسبة لرحلة المهندسين المصريين إلى الأورال ، يظل السؤال الرئيسى ، ما هى الضمانات المالية لهذا الإجراء؟ كالعادة فى مثل تلك الحالات سعت السلطات الروسية إلى التوفير من خلال تقليل نفقات التنقلات إلى أقصي حد . ولكن جاءت النتائج مماثلة لتلك ، التى إرتبطت بوصول المصريين إلى الأورال : يبدو أن النقود ، التى خُصصت لتلك الرحلة كانت غير كافية . وفقاً لما قاله إيفان بارودين ، فقد اضطر فريق البعثة لدفع نقودهم 10 روبلات و40 كوبييك من الفضة فى محطات البريد حتى قبل تخطى حدود روسيا!

أوديسا

فى النهاية وصلت البعثة إلى أوديسا بعد مسيرة ثمانية عشر يوماً عبر الإمبراطورية الروسية . يذكر "إ. ت. بارودين" ، أنهم وصلوا إلى أوديسا ليلة الثلاثين من أكتوبر عام 1847 . وبالطبع كان خبير الأورال متواجداً فى جنوب روسيا أثناء قيامه بالبعثة إلى مالدوفيا وفالاخيا . بعثت أوديسا فى نفس الخبير روح المقارنة ؛ فعندما قام بوصفها ، تداعت فى ذهنه صور المدن الجنوبية الأخري

24 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 2-1.

بالإمبراطورية ، وعلى الأرجح صور المراكز الإدارية والإقتصادية لممالك الدوناي أيضاً. وبشكل أو بآخر أثارت أوديسا فى نفس خبير التعدين إنطباعاً بأنها «أفضل مدينة تجارية على خليج البحر الأسود » ، وخلفت فى ذاكرته صورة « الميناء العسكرى والتجارى » . توضح مذكرات بارودين أن خبير استخراج الذهب كان يراقب الحياة فى ميناء أوديسا برضا : « يا له من مشهد خلاب ، تنظر من الشاطئ إلى الميناء والبحر ، يمتلئ سطح البحر بحركة لسفن تتوارى عن الأنظار (تعليق أ. ف. أنتوشين) وأخرى تصل بأشرعتها المفرودة الشامخة .
يتحرك الناس ذهاباً وإياباً فى الميناء ... كم هو مدهشاً أن تنظر إلى كل هذا! » .

كان خبير التعدين بالأورال يحب التجول عبر المدينة فى أوقات الفراغ . وانطبعت فى ذاكرته صورة الحدائق المزروعة فى المدينة («غابة غناء بجميع الأشكال») ، و« كثير من المبانى الرائعة »، ومدرسة ريشيليفسكي (مؤسسة تعليمية فى أوديسا أنشأها الإمبراطور أسكندر الأول عام 1817 . تعليق المترجم) ، وبالطبع تذكر أحد من أهم معالم أوديسا ؛ ألا وهو النصب التذكارى لمؤسس المدينة، الفرنسى «ديوك دي ريشيل» . ألقي خبير التعدين بالأورال الضوء على وفرة مواد البناء لعمل المهندسين المعماريين : « وما سهل من عملية بناء المنازل هو قرب مناطق تكسير واستخراج الطوب من المدينة نفسها على شاطئ البحر » . أشاد خبير التعدين، بحس المتخصص، أن « الطوب فى تلك المنطقة قابل للصقل والتشكيل وحتى نشره بالمناشير»[25] .

فى النهاية ترك البناء المعمارى لأوديسا أثره على إيفان تروفيموفيتش: يشير إلى أن « المبانى الحجرية رائعة ، كما أن الشوارع مرصوفة بالحصب». فى المدينة رأي بارودين مبانى مدرسة التجارة ومسرح ومتحف آثار منطقة نوفوروسايسك .

ولكن يبدو أن البعثة لم تقض وقتها فقط فى الإستمتاع بجمال تلك المدينة الجنوبية ؛ وهى آخر منطقة مأهولة بالسكان ، بل ، كما أوضحنا سابقاً ، أنها المنطقة ، التى تسببت لهم فى كثير من الصعوبات قبل بداية رحلتهم الطويلة إلى شمال شرق أفريقيا . فى تلك الظروف كانت لديهم رغبة كبيرة ، بلا شك، فى الإستمتاع بشعور التواجد على أرض الوطن لآخر مرة . مع هذا جرى فى نفس الوقت الإعداد لرحلة مصر . حينها وقف الحظ إلى جانبهم : فقد تعرف المشاركون فى الحملة على ياور كتيبة الحجر الصحى « بيتر ديميتريفتش كيسليف » ، الذى كان متواجداً فى أوديسا. قضى الأخير فى مصر يومين تقريباً ، ولهذا كانت لديه الكثير من الأمور المهمة ليرويها لأعضاء بعثة ي. ب. كافاليفسكي ، حتى

25 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفير دلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 2.

تتكون لديهم فكرة مسبقة عن مصر. وطالما لم تطأ قدم أى من أعضاء الفريق مصر سابقاً ، فقد كانت هذه المعلومات مهمة إلى حد بعيد . يذكر إيفان بارودين أن « ب. د. كيسليف» أرشدنا إلى كيفية وقاية أنفسنا من الأمراض .

أولاً : عدم إلقاء القبعة الروسية حتى مع حرارة الجو وحماية أنفسنا من نزلات البرد ، وعدم الإفراط فى الطعام والحرص على توافر أفضل الأدوية فى أماكن العمل» . «وقد إتبعنا إرشاداته»[26]، كما يشير خبير تعدين الأورال . وسنرى فيما بعد ، أن نصائح ياور كتيبة الحجر الصحى لم تنقذ الحملة من الأمراض الخطيرة، ولكنها ربما ساعدت أعضاءها على تحمل مشقة السفر عبر الصحراء ، والوقاية من بعض المخاطر الناجمة عن تعرض سكان مناطق الأورال الباردة فى طقس أفريقيا غير المعتاد .

إنتهت مدة الأسابيع الثلاثة ـ فترة تواجد البعثة فى أوديسا ـ وحان الوقت للرحيل عن أرض الوطن . فى 21 من نوفمبر عام 1847 «هبط أعضاء فريق ي. ب. كافاليفسكي من أعلى الجبل بإتجاه سفينة البعثة «خيرسانوس»» وحصلوا على التذاكر. رأي إيفان تروفيموفيتش أنه من الضرورى الإشارة إلى « أنهم قاموا بدفع 20 وربل فضة للمكان الثانى (على ما يبدو أنه يعنى الدرجة الثانية – تعليق أ. ف. أنتوشين) »[27] . من خلال ذلك سعي خبير التعدين فى الأورال أن يوضح لقارئ مذكراته من موظفى منطقة تعدين زلاتوؤوست أن البعثة كانت مُضطرة لتحمل نفقات إضافية .

على الرغم أن فريق ي. ب. كافاليفسكي كان مسافراً فى إطار إتفاقيات تعاون حكومية ، إلا أن أعضاءه خضعوا لفحص جمركى دقيق . يذكر بارودين: « قامت السلطات الجمركية بفحص جميع أمتعتنا ، بعد ذلك اصطحبنا المندوب الجمركى عبر الغرفة ، حيث يوجد فى منتصفها قضبان حديدية ، ثم اصطحبنا مندوب آخر » . بعد ذلك وجد أعضاء البعثة أنفسهم عند مدخل السفينة . قام الحراس (حرس الميناء) بتوصيل جميع أغراض المشاركين ثم نقلها إلى السفينة .

صعد إيفان بارودين وأصدقاؤه على ظهر السفينة للاستمتاع بالمنظر الطبيعى الممتد بعد أن نقلوا الأمتعة إلى السفينة . وفى السادسة مساءً بدأت السفينة بالإبحار من ميناء أوديسا وعلى متنها أعضاء فريق كافاليفسكي. ظل خبير التعدين فى الأورال مدة طويلة يتذكر لحظة مغادرة أرض الوطن: « وقفنا على ظهر السفينة

26 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفير دلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 3-2.

27 - نفس المرجع. ورقة 3.

نستمتع بمنظر المدينة ، التى تقع على منطقة مرتفعة ، تغرب الشمس من ورائها وضوئها يبدأ فى التلاشى . تتلألأ أضواء نوافذ المنازل فى إتجاهات مختلفة ، وكلما إبتعدنا عن الشاطئ ، كلما ازداد انعكاس تلك الأضواء على سطح البحر. بدت الصور معبرة ؛ فمن لم يسبق له رؤية تلك الصور فى حياته ينتابه شعور بالضحك . أنه نحن ...»[28] .

هبت رياح خفيفة وانتشرت السحب فى السماء وسقطت أمطار خفيفة. أصبحت السفينة وسط أمواج البحر المتلاطمة . سار طريق البعثة عبر القسطنطينية ، أو كما تعود الروس أن يطلقوا عليها قديماً « مدينة القيصر » . تحمل المدينة هذا الاسم فى مذكرات خبير التعدين البسيط "إيفان تروفيموفيتش بارودين" ، والذى ترتبط هذه المدينة فى ذاكرته بالملاحم والأساطير الروسية القديمة .

فى تلك الأثناء كانت السفينة تقطع المسافة من أوديسا إلى عاصمة الإمبراطورية العثمانية فى 40 ساعة – أى أكثر من ثلاثة أيام . كانت هذه الرحلة تجربة شاقة بالنسبة للأوراليين مثل « إيفان تروفيموفيتش بارودين » وصديقه « فومين » ، إذ أنهم لم يتعودوا على السفر عن طريق البحر . بمجرد الابتعاد عن شاطئ أوديسا بدأت السفينة فى التمايل بشدة . فى تلك الأثناء دُعي أعضاء فريق ي. ب. كافاليفسكي لتناول العشاء . وبما أنه كان وقت الصيام ، جلس الخمسة على مائدة الطعام . إلا أنهم لم يتمكنوا من تناول الطعام . يصف إيفان بارودين، الذى لم يتعود على مثل تلك المعاناة، مدي المتاعب التى سببها لهم دوار البحر: « كان من الصعب تناول الطعام، بدأت أشعر بدوار وغثيان ، بدت وجوهنا شاحبة ... إذا أردت التحرك فى السفينة لا يمكنك أن تصل أبداً إلى وجهتك المحددة لأنك تترنح فى كل إتجاه ؛ فالأمواج تتلاعب بالسفينة »[29] . بالطبع كان الرحالة المحنكون، مثل رئيس البعثة ي. ب. كافاليفسكي ، على دراية تامة بمثل تلك الظروف . أما ما يتعلق ببارودين ، خبير تعدين الذهب البسيط ، بدا كل هذا بمثابة المفاجئة ، بل ومعاناة بالغة الصعوبة .

لم يستطع إيفان تروفيموفيتش أن يفوت تلك الفرصة قبل أن يشتكى مجدداً من المصاريف الطارئة ، التى تحملها المشاركون فى البعثة . فعلى الرغم أنهم لم يأكلوا شيئاً تقريباً ، إلا أنهم دفعوا المبلغ كاملاً مقابل وجبتي الغداء والعشاء : « عندما لاحظ المندوب عزوفنا عن الطعام ، قال : حتي إن لم تأكلوا ، يجب عليكم الدفع ، فهذا لا يعنيني فى شئ » . « يقول بارودين بإمتعاض : على الرغم أننى لم

28 - نفس المرجع. ورقة 3.

29 - نفس المرجع. ورقة 4.

أتناول خلال يومين (تعليق. أ. ف. أنتوشين) بأكثر من ستة كوبييك من الفضة ، إلا أننى دفعت روبلان وعشرة كوبييك من الفضة»[30] . بمجرد أن دخلت السفينة خليج البوسفور « إنتهت كل المعاناة » وصعد المشاركون فى البعثة إلى سطح السفينة لمشاهدة « القري والمروج الخضراء ».

إسطنبول

وصلت البعثة إلى عاصمة الإمبراطورية العثمانية فى الثانية عشر من ظهر الثالث والعشرين من نوفمبر . رأي المشاركون فى الحملة صورة، سيتمكن من رؤيتها أكثر من مرة كل من سيسافر من روسيا إلى إسطنبول فى القرنين التاسع عشر والعشرين. سرعان ما تجمعت المراكب الصغيرة حول السفينة (يذكر بارودين « أن لا يوجد حتي متر فارغ ») ، يتنافس أصحابها على نقل الركاب إلى الشاطئ مقابل أجر . ركب أفراد فريق « ي. ب. كافاليفسكي « أحد تلك المراكب ، الذى كان صاحبه يونانى الجنسية ، وقام بنقلهم إلى الفندق ، بعد ذلك انتقلوا إلى قصر المبعوث الروسى .

كانت الرحلة البحرية من أوديسا إلى إسطنبول شاقة على بارودين ورئيسه. يذكر إيفان تروفيموفيتش بعد ذلك : « عندما تحركنا من المرفأ إلى الفندق، توقفنا سبع مرات للإستراحة مع العقيد كافاليفسكي . فقد انهكتنا الرحلة على متن السفينة »[31] . كانت إسطنبول ، حيثما وصلت بعثة ي. ب. كافاليفسكي ، بالنسبة لإيفان بارودين المدينة التى سمع الكثير عنها ، كما هو الحال بالطبع للروس جميعاً . يكتب خبير التعدين عنها ، قائلاً : « فى تلك الأثناء كانت عاصمة القياصرة اليونانيين القدامي» منذ فترة المدينة الرئيسية داخل الجسد المهلهل للإمبراطورية العثمانية . يتذكر بارودين « قصر السلطان بحدائقه » « الذى يمتد عبره جسرين إلى الشارع » : « الأول مغلق بالأستار ، والثانى مفتوح » .

من المؤكد أن زوجات السلطان تمر عبر الجسر الأول . ويضيف بارودين أن تحت الجسور يمتد ممر مفتوح على الشارع لمرور المركبات. وقريباً من هذا المكان لاحظ الخبير الأورالى « مسجداً جميلاً من المرمر : قلعة يحتوى على سبعة أبراج » . تمكن

30 - الأرشيف الحكومى لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 4.

31 - نفس المرجع. ورقة 4.

بارودين من رؤية أحد المعالم المسيحية الأسطورية المقدسة فى الشرق ، المعبد السابق للقديسة صوفيا . وبالطبع لم يفوت المواطن الروسى الأرثوذكسى فرصة شراء هدية تذكارية صغيرة كذكري زيارته لهذا المكان الرائع . ولحسن الحظ ، عندما كان فريق ي. ب. كافاليفسكي متواجداً فى إسطنبول ، « كانوا يرممون القبة الوسطي » للمعبد ، ولهذا «تمكن بارودين من الحصول على بعض الأحجار الصغيرة الرخيصة من الزخارف القديمة » ، التى كانت تزين حوائط كاتدرائية القديسة صوفيا . كانت هذه الأحجار الصغيرة تسقط مع الزخارف جراء كسر القبة ، على حد قول خبير التعدين الأورالى .

تذكر إيفان تروفيموفيتش أيضاً مقبرة سلطان الإمبراطورية العثمانية « محمد الثانى » فى المكان ذاته ، الذى يوارى جسد زوج السلطان وابنتيه الأثنتين الثرى : « النوافذ الزجاجية تحيط بالمكان وفى الوسط ضريح السلطان وأشياء أخرى على الجانب . يوجد أمام الضريح المصنوع من المرمر الأبيض عمود فوقه طربوش و نجمة السلطان ». يتميز البناء كله بالفخامة ، ولهذا ترك أثراً كبيراً فى نفس خبير صناعات الذهب الأورالى : « تزين المبني زخارف رائعة سواء من الداخل أو من الخارج »[32] . ونفس إنطباع « البناء رائع » خلفه لديه القصر، الذى كان يعيش فيه قنصل الإمبراطورية الروسية في إسطنبول . فى الواقع لم تكن الآثار المعمارية وحدها ما أثارت اهتمام إيفان بارودين فى القسطنطينية . فقد تمكن ، هو ورفاقه ، من معاينة طبيعة الحياة اليومية فى عاصمة الإمبراطورية العثمانية ، والنجاحات التى حققتها على مستوي التقدم الإقتصادى . فالإصلاحات الإجتماعية والإقتصادية المتخذة أدت إلى ظهور بعض ملامح للتقدم التكنولوجى فى الصناعة التركية . مر إيفان باروين ورفاقه على دار سك الأموال ورأوا أنهم يستخدمون الآلات البخارية والمكبس اليدوى .

مع هذا ظل الشكل العام لعاصمة الإمبراطورية العثمانية كما فى السابق. فقد كانت مدينة من مدن الشرق القديمة بحواريها «المتعرجة» و «الضيقة »، لدرجة أنه «من الصعب أن تتقابل مركبتان فى نفس الوقت فيها» ، كما لاحظ إيفان بارودين . وتذمر خبير التعدين الأورالى من أن سلطات إسطنبول «لا تعير اهتماما ، على ما يبدو، بنظافة الشوارع » واندهش الضيف الروسي من إمكانية رؤية المجامر فى كثير من الأماكن تحت السماء المفتوحة مباشرة ، حيث يشعلون النار فيها . على أية حال ، لم يكن كل شئ على ما يرام فى إسطنبول :

32 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 5.

«فالناس تسير فى الشوارع ، وتدخن الغليون ، وأحياناً تنشب الحرائق جراء ذلك » .

كانت الحشود التي تملأ الشوارع، مختلفة تمامًا عن تلك، التي رآها خبير تعدين الأورال في السابق. وعندما وصل بارودين إلي سوق اسطنبول شعر بروح الشرق الحقيقية إلي حد بعيد. لم يتجول إيفان تروفيموفيتش في السوق فقط، ولكنه استفسر عن سعر المنتجات المعروضة ، واستنتج أنه : « بالإمكان شراء المنتجات بسعر أرخص بكثير من سعرها في روسيا ». في السوق رأي بارودين بأم عينه مدي تعدد الجنسيات في الشرق ومدي تنوع الشعوب، التي تسكنها. فبالنسبة له، تعتبر اسطنبول البوابة المميزة لبلاد الشرق. فقد رأي أناسًا « من قبائل مختلفة » وأدرك لأول مرة مدي أهمية وجود مترجم في رحلته عبر بلاد الشرق. يكتب بارودين بأسف، وهو يتذكر ممثلي ثقافات الشرق المختلفة، الذين رآهم : « لم يكن بصحبتنا مترجمًا جيدًا، لأننا لا نعرف عنهم شيئاً، وليس هناك ما يُقال »[33].

في الثاني عشر من ديسمبر غادرت البعثة عاصمة العالم الأرثوذكسي القديمة، وتوجهوا إلي محطتهم التالية «علي متن سفينة عربية ». وصل بارودين ورفقائه إلي مدينة سميرنا، التي تقع علي شبه جزيرة آسيا الصغري عن طريق بحر مرمرة وخليج الدردنيل (في تركيا. تعليق المترجم). تواجدوا هناك لبعض الوقت في الحجر الصحي بسبب وباء الكوليرا، وتوجهوا بعد ذلك إلي جزيرة رودس (جزيرة في اليونان. تعليق المترجم). كان من بين ركاب السفينة التابعة لملك مصر «الأمير مصطفي بك »، الذي كان متوجهًا مع حاشيته إلي القاهرة. وانطبعت في ذاكرة خبير التعدين بالأورال صورة الأمير الشاب ذي الخامسة والعشرين ربيعًا.

رودس

يذكر إيفان تروفيموفيتش، أن مدينة رودس تقع علي سفح الجبل، « بحيث يمكنك رؤية جميع شوارعها من البحر ». كان خبير التعدين الأورالي يعلم أن تمثال إله الشمس هيرمز ، أو ما يعرف بأبولو رودس كان أحدي عجائب الدنيا السبع. كان تمثال أبولو في وقت ما بطول 34 متر ، ولكنه تحطم عام 277 قبل الميلاد أثناء زلزال رودس. رأي إيفان بارودين ورفقائه « رأس حجرية بارزة في البحر، كما لو كانت سلسلة جبال ، تمر السفن ورائها ، وفي نهاية السلسلة تم بناء برج»[34]. أشار

33 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 5.

34 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 6.

بارودين بأسف بالغ عدم تفسير أي شخص وظيفة هذا البناء لهم. في رودس انطبعت في ذاكرة بارودين كثير من الحدائق الغناء. فهناك رأي لأول مرة «أشجار النخيل». وما لفت نظره كيفية «نمو البلح علي الأشجار» في كل مكان. في نفس الوقت، الذي كانت فيه درجة حرارة الأورال 30 درجة تحت الصفر. يتذكر خبير الأورال كيف أحضر رئيسه "ي. ب. كافاليفسكي" من المدينة علي متن السفينة برتقال وبلح طازج : يتحدث بارودين باندهاش، قائلاً: « بالنسبة لنا، سكان الشمال، كان الطقس في شهر ديسمبر مدهشًا جدًا»[35]. فقد كان مقياس الحرارة في رودس يسجل 20 درجة فوق الصفر.

الإسكندرية

قطع إ. ت. بارودين ورفقائه المسافة من جزيرة رودس إلي الإسكندرية في ثلاثة أيام. لم يذكر خبير الأورال أي شئ مميز في تلك الرحلة القصيرة عبر البحر المتوسط. وصلت البعثة إلي الإسكندرية في السابع عشر من ديسمبر عام 1847. لم تترك الإسكندرية انطباعًا مميزًا في نفس رئيس البعثة، الرحالة الخبير ي. ب. كافاليفسكي، الذي رأي الكثير في حياته : « بالنسبة لي، لم يكن مشهد أشجار النخيل، التي تلوح في الأفق، جديدًا. كان مشهد الشاطئ الرملي المنخفض مألوفا للعين، التي تعودت علي رؤية شواطئنا المليئة بالمستنقعات، وأحيانًا تتطلع إليها بحب»[36].

خلافا لرئيس البعثة، لم يكن مشهد أشجار النخيل مألوفًا بالطبع لإيفان بارودين. فلا يوجد مجال للمقارنة بين طبيعة دلتا مصر والمناظر الطبيعية في مالدوفيا وفالاخيا، حيثما تواجد إيفان بارودين لفترة قصيرة. وعلي الأرجح لا يوجد في مذكراته ما يثبت أنه تأثر بشكل كبير بطبيعة مصر. بعد الإقتراب من المدينة رأي بارودين حصن قايتباي الذي بني في مكان فنار الإسكندرية، الذي يعتبر إحدى عجائب الدنيا السبع: «كان الفنار القائم فوق الصخور أول ما يلوح في الأفق»[37]. وما يتعلق بالمناظر الطبيعية، لم يقر خبير التعدين الأورالي سوى أن « الإسكندرية تقع علي شاطئ البحر».

من الملاحظ أن الروس الآخرون، الذين كانوا متواجدين في الأسكندرية في

35 - نفس المرجع. ورقة 6.

36 - مجموعة أعمال يجور بتروفيتش كافاليفسكي.. ص. 6.

37 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 6.

الثلاثينيات من القرن التاسع عشر قد تحفظوا في تقييمهم للإنطباعات عن عاصمة مصر الشمالية . علي سبيل المثال أشار الدبلوماسي "ن. ن. مورافيف-كارسكي"، الذي كان يعيش هناك علي مدار خمسة عشر عاماً قبل وصول بعثة ي. ب. كافاليفسكي ، في مذكراته أن أشجار النخيل أكثر ما يثير انطباع المسافر الأوروبي؛ « بشكل مفاجئ يرى إحدي عجائب الأرض الحارة، بعدما تعود علي رؤية أشجار أوروبا الكثيفة الظليلة ». مع هذا أشار إلي صعوبة أن يحوذ النخيل إعجاب المواطن الروسي، لأن شكلها يبدو «حزينًا» ويستدعي ذكريات « صحاري أفريقيا اللا متناهية ». ويري الدبلوماسي الروسي، أن الشجرة لا توفر ظلاً كثيفًا، بل ومن الصعب أن تضفي البهجة علي الحدائق المصرية[38].

كان "ن. ن. مورافيف - كارسكي" يشير أثناء تذكره انطباعاته عن عاصمة مصر الشمالية ، أنه بالنسبة للأوروبي ، الذي لم يسبق له التواجد في الشرق ، يبدو كل شئ في الإسكندرية « غير معتاد وغريب »، ولكن الشخص، الذي يعرف جيدًا مدن الشرق وواقع سكانها، سيجد لنفسه أشياء جديدة في المدينة[39]. من المدهش أن "ن. ن. مورافيف" كان متواجدًا في الإسكندرية شتاءًا في نفس الوقت ، الذي تواجدت فيه بعثة ي. ب. كافاليفسكي. في بداية شهر يناير أدرك الدبلوماسي الروسي طقسًا حارًا وخانقًا جدًا هناك ، «حتي أن الذباب في أغلب الأحيان يتجمع ويثير القلق »[40]. فيما يتعلق بالبناء المعماري ، تركت الأحياء الأوروبية في الإسكندرية ، التي « تم تشييدها بصورة أنيقة تمامًا » وجمعت بين الطراز الشرقي والأوروبي ، أثرها في نفس "ن. ن. مورافيف" .

لم يتنتاب "أ. ن. مورافيف" – صاحب كتاب "رحلة إلي الأماكن المقدسة"، الذي أعيد إصداره أكثر من مرة عام 1830، مشاعر إعجاب خاصة ، عندما رأي الإسكندرية . عندما كان يعمل موظفًا في مجمع الكنائس المقدس وفي الإدارة الآسيوية التابعة لوزارة الخارجية الروسية فيما بعد، اشتهر أيضًا بعلاقته الوطيدة بمطران موسكو فيلاريت . من بين أكبر أعماله ، بالإضافة إلي « رحلة إلي الأماكن المقدسة » ، قام بتأليف « تاريخ الكنيسة الروسية » و«العلاقات في الأمور الكنائسية بين روسيا والشرق » و« خطابات من الشرق في عامي 1850-1849».

في الإسكندرية تذكر أ. ن. مورافيف «اللون الأبيض والأسود بلون تربة الأرض

38 - ن. ن. مورافيف (كارسكي). تركيا ومصر في عامي 1832 و 1833. الوضع العسكري والسياسي. موسكو، 1869. ص. 86.

39 - ن. ن. مورافيف (كارسكي). المرجع الأسبق. ص. 86.

40 - نفس المرجع. ص. 87.

لجميع المباني المتاخمة بعضها لبعض ، والتي تمتاز شرفاتها عن أسقفها ، التي لا جدوي من البحث عنها كالمعتاد». ولكن ما ترك انطباعاً سيئاً لدي الرحالة الروس بشكل خاص الأوجه «الشاحبة والهزيلة» لسكان الإسكندرية ، الذين «كانوا يتجولون مثل الأشباح في ملابس بيضاء أو زرقاء عبر الأسواق الموحلة والخانقة ، المكتظة بالإبل والحمير النحيلة». يقول مورافيف: «تبدو علي الجميع آثار الفقر المدقع والضيق »[41].

علي كل حال ، انتاب مؤلف كتاب «رحلة إلي الأماكن المقدسة» شعور بخيبة الأمل من الفن المعماري بالإسكندرية بنهاية العشرينيات وبداية الثلاثينيات من القرن التاسع عشر . فقد بدي له ، بعدما سمع عن عظمة تلك المدينة قديمًا، أن الإسكندرية الآن «لا تبدو عليها إي من مظاهر مجدها القديم ». علي الرغم أن عينيه وقعت علي بعض «المباني الجيدة» (منازل القناصلة، ترسانة وقصر الباشا) «إلا أنها لا تعكس عظمة الفن المعماري». حتي مساجد المدينة لم تترك إطلاقًا نفس الإنطباع ، الذي خلفته معابد القسطنطينية أو القاهرة . يعتقد الرحالة الروس أن ملامح الإسكندرية القديمة قد اختفت واقعيًا بحلول الثلاثينيات : «فالحروب المستمرة، التي تعرضت لها مصر في القرن الحالي، والحصار المتكرر للإسكندرية محت تماماً ما تبقي من آثار للحضارة القديمة» . أدي ذلك كله إلي الإنطباع الأليم الذي خلفه الشكل العام لعاصمة مصر الشمالية . يقول كاتب « رحلة إلي الأماكن المقدسة »: « ليس هناك ما يثير الكآبة أكثر من رؤية أطلال الإسكندرية القديمة وضواحي الإسكندرية الحديثة » . تملل عيناك من رؤية الطبيعة الميته ، والتي نادرًا ما تحييها بعض أشجار النخيل اليتمية ، ومن رتابتها؛ يجري البحر الأزرق مترامي الأطراف بشكل كئيب بإتجاه شواطئ الصحراء المنخفضة ، المغطاة بأكوام من الحصب الأبيض ، حيث تمتد أكواخ فقيرة للعرب بين قواعد مهدمة . تلك الأكوام عبارة عن آثار الإسكندرية القديمة! »[42].

من المعروف أن الإصلاحات، التي أُجريت بمبادرة من "محمد علي"، كان لها بالغ الأثر في تطوير البنية التحتية في الإسكندرية. مع هذا لاقت نتائج تلك الإصلاحات، التي أدخلت علي المدينة القديمة استحسانًا من جانب مؤلف كتاب « رحلة إلي الأماكن المقدسة». فقد أشار إلي أن محمد علي أولي عناية خاصة بتحصين عاصمة مصر الشمالية من البحر ، وقام بمد خنادق دفاعية عميقة ، وأقام بطاريات مدفعية علي

41 - رحلة إلي الأماكن المقدسة عام 1830. سانت بطرسبورج، 1835. الجزء الأول. ص. 97.

42 - رحلة إلي الأماكن المقدسة عام 1830. سانت بطرسبورج، 1835. ص. 101.

التلال العالية ، «وبهذا يكون قضي نهائيًا علي آثار المدينة القديمة ، والذي بدأها قبله الفرنسيون والإنجليز»[43].

بشكل أو بآخر بفضل حفر قناة المحمودية وبناء الترسانة تحولت المدينة إلي مكان أكثر جذبًا للأجانب . يشير المستشرق الروسي "ج. ف. جارياتشكين" «أن الأجانب تدفقوا علي مصر ، كأنها كاليفورنيا الجديدة »[44]. وفقًا لإحصاءات "إ. ياروتسكي" ، بلغ تعداد سكان الإسكندرية ، قبل انتشار وباء الطاعون عام 1834، 60 ألف شخص، ومن ضمنهم : 20 ألف عربي ، و 6 آلاف تركي، و 4 آلاف من الزنوج والبدو ، و 4 آلاف من الأرمن والأقباط واليهود ، و 5 آلاف أوروبي.[45] في الثلاثينيات استمر تغير حاد في البنية السكانية لعاصمة مصر الشمالية . يشير "علي باشا مبارك" أنه في الثلاثينيات كان يعيش في مصر 5 آلاف لبناني و 3 آلاف يوناني وألفي إيطالي وألف مواطن مالطي و800 فرنسي و100 انجليزي و 100 استرالي - مجري و 30 من موسكو وإسبانيان . وفي عام 1846 كان يعيش في البلاد 50 ألف أجنبي[46]. في منتصف الأربعينيات كان تعداد سكان الإسكندرية أكثر من 140 ألف شخص . أصبحت المدينة المركز الرئيسي لتجارة مصر الخارجية . أدرج "علي باشا مبارك" المعلومات التالية : في عام 1838 رست في ميناء الإسكندرية 1838 مركبًا، وفي عام (1841 - 1699) مركبًا، وفي عام 1850 رست 1834 مركبًا. في ما بين عامي (1838- 1872) تفاوتت أعداد الركاب الوافدين إلي مصر

---

43 - نفس المرجع. ص. 99.

44 - ج. ف. جاراتشكين. تشكيل المجموعات الأولي للعمال المرتزقة في النظام الرأسمالي في مصر (النصف الثاني من القرن التاسع عشر)// المشاكل الإجتماعية والاقتصادية لأصل الرأسمالية. موسكو، 1984. ص. 255.

45 - أنظر: إ. ياروتسكي. تعليقات عن الإسكندرية، سميرنا، والقسطنطينية، علي مستوي العلاقات الطبيعية والطبية، مختارة من مقال الدكتور ل. أوبرا «عن الطاعون» // مجلة وزارة الداخلية. الجزء 34. سانت بطرسبورج، 1841. يتقدم الكاتب بالشكر للأستاذ ج. ف. جارياتشكين لتقديمه معلومات عن هذه المقالة.

46 - أنظر: علي باشا مبارك. الحيتية والتوفيقية والجمالية ومصر الجديدة والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة الشهيرة. القاهرة، 1987. المجلد 7-الأسكندرية (علي باشا مبارك. الخطط الجديدة الخيرة لمصر، مدنها وقراها القديمة والشهيرة. القاهرة، 1985. المجلد 7- الإسكندرية. ص.145). اقتباس من: جنادي جارياتشكين. صفحات من الحوار الروسي المصري. الجزء الأول (صفحات من حوار الحضارات والثقافات الروسي المصري. الجزء الثاني. الإسكندرية: منشأة المعارف، 2004. ص. 98-91.

كل عام، بين 45 إلي 80 ألف شخص[47]. وكما يشير ج. ف. جارياتشكين «فإن الأوروبيون بذلوا جهودًا كبيرة في ضبط النظام الإداري في المدينة، ونشر النظافة والجمال في الإسكندرية»، وتحسين الوضع الصحي فيها[48].

ترك شكل «الميناء الرائع» و «النظافة والجمال» في شوارع المدينة انطباعًا لدي ي. ب. كافاليفسكي، الذي لاحظ أيضًا: «أن مدينة الإسكندرية تتمتع بشكل رائع ليس فقط بالنسبة لمدن الشرق، ولكن أيضًا بالنسبة للغرب ... والآن الإسكندرية تقف علي قدم وساق مع الدول الأوروبية بطابع الشرق الغامض ليس فقط من الخارج، ولكن أيضًا من الداخل»[49]. من المدهش أن "إيفان تروفيموفيتش" كان متحفظًا في تقديراته عند وصفه للإسكندرية: «تتمتع المدينة بتحصينات جيدة، ويوجد بها مباني كبيرة، ولكن لا يمكننا أن نطلق عليها رائعة. أسطح المنازل مسطحة، أو علي الأرجح غير مغطاة». وتوقف لبرهة قبل أن يلخص نتائج تقديراته في النهاية، قائلا: «بيد أنها مدينة جيدة»[50]. وبالطبع كان هناك عاملا مؤثرًا في هذا التقييم؛ فلم يكن لدي خبير الأورال البسيط ما يعتمد عليه في المقارنة، علي عكس الرحالة الخبير ورئيسه ي. ب. كافاليفسكي، الذي رأي نظافة شوارع الإسكندرية وهو يعلم في نفس الوقت، كيف تبدو كثير من مدن الشرق الأخرى (وحتى مدن أوروبا) في ذلك الوقت. وأدرك الأخير الصورة الكاملة للإصلاحات، التي أدخلها "محمد علي". كل ذلك لا يمكن أن يخلف نفس الإنطباع لدي إيفان بارودين.

في الإسكندرية قامت فرقة "ي. ب. كافاليفسكي" بزيارة أرتين بك، صاحب الجنسية الأرمينية، الذي كان يترأس هيئة الشئون الخارجية والتجارة في مصر ذلك الوقت. اضطر الفريق للبقاء 12 يوم في الحجر الصحي في المدينة، وذلك لإكتشاف وباء الكوليرا في القسطنطينية وتخوف السلطات من انتشاره في مصر. إلا أن التواجد في قصر إبراهيم باشا، حيث كان

47 - أنظر: ف. إي. ديتلوف. الأقلية من رجال الأعمال: تجار، أم أجانب أم المرسلين من الله؟ موسكو، 1996. ص. 47. يتقدم الكاتب بالشكر للأستاذ ج. ف. جارياتشكين لتقديمه معلومات عن هذه المقالة.

48 - أنظر: ج. ف. جارياتشكين. الإسكندرية الروسية: مصير المهاجرين في مصر. موسكو، 2010. ص. 13.

49 - مجموعة أعمال يجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 9-6.

50 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 7.

يعيش فريق البعثة الروسية أثناء الحجر الصحي، يبعث علي الراحة تمامًا.

بعد انتهاء وقت الحجر الصحي في السادس والعشرين من شهر ديسمبر، أكمل الرحالة طريقهم في اتجاه القاهرة . يذكر إيفان بارودين: «نقلونا سريعًا علي متن سفينة صغيرة وبدأنا التحرك عبر القناة ». في تلك الأثناء كان الطريق من الإسكندرية إلي القاهرة يستغرق ما يقرب من 36 ساعة . لم يكن هناك ما يلفت النظر في المشاهد، التي رآها المسافرون في طريقهم . يتذكري. ب. كافاليفسكي، قائلا: «بدي كل شئ حولنا بلا حياة. ويبدو الأفق ، حيث خفتت أضواء الشمس الغائبة ، شاحبًا وبلا حياة، حتى أنه يبدو ممتدًا عبر الصحراء بلا نهاية »[51]. لم يتكرم خبير التعدين بالأورال بذكر ولو كلمة واحدة في مذكراته عن المناظر الطبيعية التي رأتها البعثة ، فلم يكن يهوي الصور الرومانسية في وصف الطبيعة.

كان المسافرون يرتحلون عبر القناة ، التي شقها محمد علي وتحمل اسمها تكريمًا للسلطان العثماني محمود. كان طول القناة يبلغ أكثر من 80 فرستا (1060 مترًا. تعليق المترجم)، وعرضها حوالي 90 قدم. يشير "أ. أ. رافالوفيتش" ، الذي كان مسافرًا عبر نهر النيل في نفس عام 1847، أن بناء هذه المنشأة الضخمة تطلب جهد حوالي 330 ألف فلاح ، من بينهم ، علي حد قوله ، 12 ألف ممن لقوا حتفهم «جراء الإنهاك وسوء التغذية » . « ترقد أجسادهم تحت متاريس القناة العالية »[52]، ـ يشير الرحالة الروسي ، تأكيدًا علي الثمن الباهظ الذي كان الشعب المصري يدفعه علي إصلاحات محمد علي . حتي المراقب بشكل نقدي لإصلاحات الأخير، مثل مؤلف كتاب «رحلة إلي الأماكن المقدسة »، كان مضطرًا للإعتراف بأن القناة «علي الرغم من عيوبها الكثيرة، إلا أنها تعتبر مصدر الخير لمصر»[53].

أطفيح

بالقرب من قرية أطفيح كان علي فريق بعثة "ي. ب. كافاليفسكي" التنقل علي متن مركب آخر. ولكن في تلك الأثناء كان بانتظارهم مفاجئة غير سارة: يبدو أن يد السلطة في البلاد لا تصل إلي تلك المناطق البعيدة عن العاصمة. «يذكر بارودين أنهم انتقلوا إلي مركب كبير عندما خرجوا إلي نهر النيل في منتصف

51 - مجموعة أعمال يجور بتروفيتش كافاليفسكي... ص. 19.

52 - أ. أ. رافالوفيتش. رحلة عبر الوجه البحري ومناطق الدلتا الداخلية. سانت بطرسبورج، 1850. ص. 37.

53 - رحلة إلي الأماكن المقدسة عام 1830. ص. 109.

الطريق ، وتحديدًا في مدينة المحمودية ». ولكن لحظة صعود الفريق علي متن المركب إكتشفوا أن جميع الغرف المخصصة لحملة ي. ب. كافاليفسكي (التي تحظي برعاية مباشرة من محمد علي) مشغولة بشكل ما بواسطة أناس آخرين ! ولهذا اضطر إيجور بتروفيتش ومساعديه من أخذ أماكنهم بالقوة .

كان تعداد سكان قرية أطفيح صغيرًا (ما يقرب من 6 آلاف مواطن)، ولكنها قرية مهمة تقع علي رأس قناة المحمودية. وكانت مساكن القرية تقع علي جانبي القناة . في منتصف الأربعينيات كان بالإمكان رؤية بعض منازل الأوروبيين في أطفيح، والذي يختلف شكلها، بالطبع ، عن المباني الأخري . كانت القرية مركزًا تجاريًا هامًا جدًا، حيث كان يعيش ممثلون من أكبر تجار الإسكندرية. وكان هناك أيضًا حانات ومقاهي يملكها مواطنون من جزيرة مالطه ، ومخازن ضخمة تابعة لديوان السلع. يذكر "أ. أ. رافالوفيتش" أن مباني الفلاحين كانت تقع « بشكل مدرج » علي منحدرات الهضاب العالية ، التي تشكلت من الأرض والطمي الناتج عن أعمال حفر القناة. يشير الرحالة الروسي أن المنازل كانت «سيئة جدًا، غير متناسقة ، وضيقة»، والمسافات بينها كانت ضيقة لدرجة أن الناس كانت مضطرة إلي الهبوط إلي أسفل عن طريق الأسطح المستوية ، لعدم وجود طريقًا آخر ببساطة . تتسكع عبر القرية « مجموعة من الكلاب الهزيلة والجائعة»، والذي كان عددهم ، «علي ما يبدو، أكثر من أي مكان آخر في مصر ». كما يبدو سكان قرية أطفيح «مرضي ومنهكون ورثي الثياب وبؤساء جدًا»[54].

يبدو إيفان بارودين متحفظًا كثيرًا في وصفه للنيل والطبيعة حول منطقة أطفيح في مذكراته: «يوجد علي جانبي نهر النيل قري أو ضياع ، وأراضي مزروعة بأحدى المحاصيل . ولا يوجد ما يلفت الانتباه»[55]. مع هذا لم يكن خبير التعدين الأورالي البسيط متطلع علي أعمال عدة للكتاب الأوروبيين عن مصر. وفي الواقع كان رئيسه، والتي تكونت لديه منذ الطفولة صورة رومانسية عن النيل ، يشعر ببعض من خيبة الأمل : «كان قلبي يخفق بأحلام الطفولة ؛ ويا للأسف، تلك الأحلام ، التي لم تقض عليها ضغوط الحياة ، كان محكومًا عليها بالإنكسار علي أعتاب الواقع الكاشف... فالشواطئ منحدرة وكئيبة ؛ تقف صفوف أشجار النخيل في شكل واحد... وحال ظهور إحدى القري من وراء تلك الأشجار، من المستحسن لك عدم رؤيتها... هكذا يبدو نهر النيل! علي ما أعتقد»[56].

54 - أ. أ. رافالوفيتش. رحلة إلي شمال مصر... ص. 38.

55 الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 7.

56 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 22.

مع هذا ، يلاحظ أن تلك الرحلة لم تمح حتى صورة النيل ، التي استدعتها الأعمال الأدبية في مخيلة ي. ب. كافاليفسكي . من المدهش أن مساعد رئيس منطقة تعدين زلاتؤوست تغني بشكل واضح بنهر النيل الإفريقي العظيم في المقالة العلمية البحته، التي صدرت بعد انتهاء الحملة علي صفحات «مجلة التعدين». «يقول الكاتب : النيل هو نهر فريد، يتمتع بخصائص تميزه وحده، وله شكل يميزه عن باقي أنهر الكرة الأرضية... في وقتنا الحالي لم تحل جميع الأحجيات حول نهر النيل»[57].

من الملاحظ أن منطقة أطفيح لم تترك أي انطباعًا خاصًا ليس فقط علي نفس إيفان بارودين و ي. ب. كافاليفسكي. كان بعض الرحالة الروس يشيرون أيضًا إلي كئابة المناظر الطبيعية المجاورة. يمكننا أن نضرب المثل بأقوال أ. س. نوروف – المحارب القديم، الذي فقد قدمه في الحرب الوطنية عام 1812، ويشتهر أيضا بأنه رحالة نشيط، وخبير باللغات القديمة والحديثة. وبعدما تم تعيينه وزيرًا للتعليم فيما بعد، أعطي أ. س. نوروف أوصاف للعديد من البلدان المختلفة (ينسب إليه، علي سبيل المثال، مذكرات «جولة في ضواحي لندن»).

في منتصف الثلاثينيات سافر أ. س. نوروف عبر نهر النيل. ولم يكن سعيدًا من رؤية شاطئ النيل في منطقة أطفيح: «ويذكر الأخير: تنتشر المناطق القاحلة في كل مكان، وتمتد في الأفق باتجاه الشرق سلاسل الجبال العربية، وتبدو مظاهر الحياة فقط علي شريط ضيق علي امتداد نهر النيل، والأماكن الآخري مغطاه كاملاً بالرمال»[58].

القاهرة

انتهت أخيرًا الرحلة بارودين ورفاقه المملة عبر نهر النيل ، ووصلت بعثة ي. ب. كافاليفسكي إلي مدينة القاهرة. أول ما انطبع في ذهن إيفان بارودين الفوضي المرتبطة بتنظيم استقبالهم بمجرد الوصول إلي المدينة. « يشير بارودين : وصلنا إلي القاهرة في العاشرة ليلاً، وتوقفت السفينة بالقرب من قصر إبراهيم باشا – والد الأمير

57 - ي. ب. كافاليفسكي. حوض النيل من الناحية الجغرافية//مجلة التعدين. 1849. الجزء الثاني. الكتاب الرابع. ص.64.

58 - أ. نوروف. رحلة عبر مصر والنوبة في عامي 1835-1834، والتي تعتبر تمهيدا للرحلة إلي الأرض المقدسة. سانت بطرسبورج، 1853. الجزء الثاني. ص. 4.

مصطفي بك. توجه إبراهيم باشا إلي منزله مع الركاب الآخرين (أيضًا – تعليق أ. ف. أنتوشين). بقينا كلنا علي متن السفينة، وعلي الرغم أن كافاليفسكي كان بانتظار أي فرد من القنصلية في استقبالنا، ولكن لم يأت أحد. بحلول الصباح كان مضطرًا للذهاب إلي المدينة مشيًا بصحبة تسينكوفسكي[59] للبحث عن القنصل... وبعد عدة ساعات أرسلوا إلينا ثلاثة خيول عربية مجهزة تجر عربة خلفها»[60]. من المدهش عدم ورود ولو كلمة واحدة عن هذا الموقف المحرج ، الذي واجهته البعثة ، في مذكرات ي. ب. كافاليفسكي . من الممكن ، أن مساعد رئيس منطقة تعدين زلاتوؤوست قد ارتأي عدم جدوي إظهار شكواه من قيادة البعثة الدبلوماسية الروسية في القاهرة بشكل علني . ولكن ها هو إيفان بارودين ، الذي لم يكن يخطط لنشر كتابه ، يفصح عن عدم رضاه. فقد اضطر وفد الإمبراطورية الروسية الرسمي لقضاء الليل علي متن المركب، انتظارًا للقاء ممثل قنصليته في القاهرة.

كانت القاهرة ، إلي حيث توجهت بعثة ي. ب. كافاليفسكي ، أكبر مدينة في مصر ذلك الوقت : كان عدد سكانها يبلغ 260 ألف شخص . انتاب أ. ن. مورافيف، الذي زار القاهرة قبل خمسة عشر عاماً من زيارة إيفان بارودين ورفقائه، شعور بالإعجاب من رؤية مشهد المدينة القديمة . فقد راودته كثير من الأفكار المفاجئة ، حتي تعالي صوته بحماس: «ينشرح قلب المواطن الروسي من رؤية هذا المشهد الخلاب المزدان بنهر النيل والأهرامات وبمآذن القاهرة الصغيرة التي تفوق أعداد أجراس كنائسها الذي يذكره بمعالم موسكو الذهبية الشاهقة ، علي الرغم أنها تقله جمالا»[61].ولم تكن عاصمة العالم الإسلامي منذ القرون الوسطي أقل تأثيرًا في نفس ي. ب. كافاليفسكي. فقد ظلت القاهرة، علي حد وصفة ، في النصف الثاني من الأربعينيات «النموذج الوحيد لمدن الشرق الإسلامي ، ولا أعني بذلك مدن الشرق الحالية القابعة في الجهل والعبودية، ولكن الشرق قديمًا، حيث زمن المجد، زمن الخلفاء »[62]. من المؤكد أن رئيس البعثة تعرف هناك علي التراث الأدبي، الذي

59 - ليف سيميونافيتش سينكوفسكي – عالم الطبيعة الروسي. أنهي الدراسة في كلية العلوم الطبيعية التابعة لجامعة سانت بطرسبورج عام 1844. توجه مع ي. ب. كافاليفسكي إلي أفريقيا، حيث عاش سنتين. بعد سنة من عودته سجل رسالة الدكتوراة.

60 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 7.

61 - رحلة إلي الأماكن المقدسة عام 1830. ص. 118.

62 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 24.

كان يشكل نموذج الشرق في القرون الوسطى في أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، إلا أن مخيلة المساعد إيفان بارودين كانت بعيدة تمامًا عن تأثير تلك الأعمال، التي تتغنى بالمشرق العربي. فلم تعتريه تلك المشاعر الحماسية عند وصفه للقاهرة في عهد محمد علي: « في طريقنا كانت السيدات تسير والأطفال يركضون ورائهم ويصيحون... وعدد القري قليل من المرفأ وحتى المدينة والطريق مليئ بالمتاريس... تقع المدينة علي سفح الجبل... المنازل واسعة ولكنها مبنية أقل حرفية. الشوارع نظيفة ولكنها ضيقة ومتعرجة، حيث تمر العربة خلالها بصعوبة. في حالة مرور أحد الموظفين، دائمًا ما تري رجلان يسيران أمامه ويمسكان بسياط ويلوحان بهما...» انطبعت في ذهن خبير التعدين الأورالي ذكريات سيئة عن الأطفال في القاهرة، الذين يلجأون للتسول. فيشير إلي أن الأطفال المطالبين «بالقشيش» في كل مكان «يزعجونك» لدرجة أنك سرعان ما ترغب في الهروب منهم . بشكل عام تكون لدي خبير تعدين الأورال نفس الإنطباع، الذي خلفته الصورة النمطية لمدن الشرق في نفس أي ممثل لحضارة أجنبية .

وبالطبع رأي بارودين «في أخر نقطة علي الجبل» قصر محمد علي، والذي تم بناءه « علي الطراز الأوروبي »[63]، علي حد وصف الباحث البريطاني المعاصر "أي. بيتتي". كان مدخل القصر مزيجًا من الطراز العثماني والفرنسي. من المدهش أن إيفان بارودين قد شعر بشكل ما بهذا المزيج في البناء المعماري للقصر، مشيرًا إلي أنه « لا يمكن أن نطلق عليه قصر، بل علي الأرجح حصن ». ولاحظ بارودين خصائص الفن المعماري لهذا البناء الرائع : « في الطابق العلوي توجد نوافذ فقط، نوافذ ضيقة، وزخارف معقدة ».

بالقرب من القصر رآهم يقومون ببناء «مسجدًا رائعًا مطعم بالمرمر المصقول »[64]. وكان هذا مسجد محمد علي الشهير، الذي أصبح الآن رمزًا حقيقيًا لمصر. استمر العمل حوالي 20 عامًا في بناء تلك التحفة المعمارية ، التي بدأ بنائها عام 1824. ويشير "أي. بيتتي" ، أن « محمد علي كان يرغب في بناء مسجدًا يفوق جميع المساجد، التي بنيت قبل ذلك. وبالفعل تمكن من ذلك »[65]. من خلال قصر ومسجد محمد علي يظهر مشهدًا رائعًا للقاهرة وضواحيها، التي حازت علي إعجاب خبير التعدين بالأورال : « من هنا يمكنك رؤية المدن المترامية في كل مكان ، ونهر النيل بمنعطفاته».

---

63 - أي. بيتتي. القاهرة. تاريخ المدينة. ص. 217.

64 الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 8.

65 - أي. بيتتي. المرجع الأسبق. ص. 213.

لم تكن معالم القاهرة، التي أصبحت أهم معالم مصر الحديثة ، والتي يرجع الفضل في بنائها لمجهودات محمد علي، الشيء الوحيد الذي انطبع في ذاكرة الخبير الأورالي. من المؤكد، أن شخصًا كبارودن ، الذي يعتبر حلقة الوصل بين عالم المثقفين الروس وعالم العمال البسطاء، قد سمع شيئًا عن أبو الهول (والذي ارتبط ليه باسم «سفينكوس») وأهرامات مصر الشهيرة، التي «تشرأب هاماتها العالية أمام المدينة»[66] وبلا شك لم يتطلع الأخير علي أعمال الباحثين عن الأهرامات ، ومنهم علي سبيل المثال ، رئيس البعثة ي. ب. كافاليفسكي. من الملاحظ أنه بمجرد ذكر آثار مصر القديمة ، كلما أدرك، أنها تشكل جزءًا مهمًا من التراث التاريخي لتلك الحضارة . كانت معالم مصر الشهيرة تري بارزة من فوق إحدي الصخور، التي صعد إليها أفراد البعثة الروسية . «يعبر إيفان تروفيموفيتش عن إندهاشه من الصورة التي انكشفت أمامه: كما يقولون، تري كل الأحياء، كأنها صورة واحدة . تقع الأهرامات في الشمال... علي الشاطئ الغربي للنيل ، ويوجد وسطها أبو الهول . تقع مدينة القاهرة باتجاه الشرق ، وبعدها سلسلة الجبال العربية التي تحجب البحر المقدس ، الواقع علي بعد أقل من مائة فرستا من الأهرامات ».

بمجرد رؤية الأهرامات يندهش معظم المسافرين فقط من حجمها وعظمتها. ولكن ، لم يقتصر خبير الأورال علي ذلك، بل قام بتفسير تقنياتها الفنية الرئيسية. وسجل في مذكراته أن الهرم الأول يتكون من 202 درجة (كل درجة بطول واحد إلي واحد ونصف أرشين «مقياس روسي قديم يساوي 71سنتمتر. تعليق المترجم »). وبهذا يصبح طول الهرم كاملا، وفقًا لمعلوماته، 110 ساجين (متر و13سنتمتر. تعليق المترجم) . كان الهرم الثاني أقل ارتفاعًا – بطول 65 ساجين («بلغت قاعدته 77 ساجين »). بين تلك الأهرامات يقف أبو الهول بارتفاع 13 ساجين: «برأس إنسان وجسد أسد»[67]. وبالطبع أبدي أفراد البعثة الروسية اهتمامًا بالغًا بالمعالم الأرثوذكسية المقدسة في مصر. حينها وقف الحظ إلي جانبهم : حيث تم تعيين مترجمًا لهم يدعي « متي » – هكذا كان العرب يطلقون علي المواطن الروسي، الذي يعيش في القاهرة. ولم يكتب بارودين أي شئ عن هوية ذلك الرجل ، أو عن كيفية ظهوره في هذا البلد العربي البعيد. ولكن اصطحبهم «متي» إلي الكنيسة، التي كانت مريم العزراء مختفية فيها أثناء هروبها إلي مصر، كما تؤكد الأسطورة[68].

66 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 8.

67 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة .9.

68 - أنظر: نفس المرجع. ورقة 8.

رأي الرحالة الروس شكل الحياة اليومية في القاهرة في عهد محمد علي. بالتأكيد لاحظ الضيوف القادمون من روسيا البعيدة كثير من الأشياء الغريبة أثناء العشرين يومًا، التي قضوها في المدينة. إلا أن الذاكرة لا تزال تزخر بمشاهد متفرقة من الحياة اليومية للمواطنين المصريين في منتصف القرن التاسع عشر : « من شقتنا يمكنك رؤية ميدان غير مكتمل، أي خندقين مستطيلين محاطين ومثبتين بصواري، يتجمع الناس تحتهما - بعضهم يدخن والآخر يشرب عصير الليمون... يرتدي الناس ملابسًا مختلفة، فالنساء ذوات العيون الزرقاء أو اللائي تضعن وشمًا علي الشفايف والأيدي يغطين حتى وجوههن». بالقرب من هذا المكان يوجد بئر « بعمق أربعين ساجين»، يرفعون الماء منه باستخدام الثيران. كان إيفان بارودين وأصدقائه يرون حدائق «غناء بأنواع من الفاكهة » عبر أنحاء المدينة[69]. بالطبع كان هذا المشهد غريبًا ومختلفًا عن شكل الحياة ، التي تعودوا عليها منذ الطفولة في منطقة زلاتؤوست ومياس ومدن الأورال الأخري في ذلك الوقت.

وباعتباره خبيرًا في التعدين، لفتت الوسائل التقنية والمعدات، التي كان السكان المحليون يستخدمونها، انتباه إيفان تروفيموفيتش. علي سبيل المثال، نراه يراقب عن كثب ولفترة طويلة كيفية رفع المياه من البئر في القاهرة. «علي حد وصف بارودين، فإنهم يقودون الثيران بشكل حلزوني حول البئر، ومن داخل البئر هناك فتحات لإدخال الضوء، بينما تُرفع المياه بقدور فخارية مثبته بأحبال عبر الساقية، وتبدو المياه رطبة وعذبة»[70]. يلفت خبير التعدين الأورالي الانتباه ، أنه بالنسبة لمنتصف القرن التاسع عشر تبدو هذه التقنية عتيقة إلي حد ما، ولكنها كانت في نفس الوقت تعمل بفاعلية تامة في تلك الظروف .

في القاهرة توقف أعضاء بعثة كافاليفسكي في منزل كمال باشا، صهر محمد علي. يتذكر شكل المنزل علي الخريطة بشكل صليب، حيث يوجد علي كل جانب منه غرفة أو غرفتين، تتميز أحداها عن الأخري بشكل الزخارف والأثاث الداخلي . ولكن أكثر ما أثار إعجاب خبير صناعات الذهب في منزل كمال باشا هي الحديقة. فقد قضي ورفقائه الكثير من الوقت في تلك الحديقة الرائعة: «تتمايل أغصان العنب بثمارها من الممرات الممتدة عبر الحديقة. ما أجمل مشاهدة الثمار! : الليمون والبرتقال والموز والعنب... يوجد بئر في منتصف الحديقة،

69 - نفس المرجع. ورقة 9.

70 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 8.

يخرجون منه المياه من أجل السقاية... كما يوجد حوض بنافورة...».[71] بالطبع، لاقت آثار كل ذلك الترف الشرقي هوي في نفس خبير التعدين الأورالي ، الذي تعود علي الحياة القاسية في ورش الذهب بمياس .

بينما ظلت لدي رئيس بارودين ذكريات أكثر إيجابية عن صاحب المنزل، والذي، علي حد تعبير ي. ب. كافاليفسكي « يرجع أصله إلي سلالة تركية نقية » « لم تعد موجودة، للأسف، في وقتنا الحالي ». «يذكر إيجور بيتروفيتش، أن أخلاقه الكريمة والنبيلة تستلزم الاحترام لا إراديًا: اتسمت تعابير وجهه بالوداعة والسكينة؛ كلامه منمقًا ومحترمًا، ولكن بلا مداراة. تلقي كامل باشا تعليمه علي الطريقة الشرقية، أي أنه يتكلم جيدًا اللغة العربية والفارسية، خلافًا للغة التركية »[72]. كيف قضي أفراد البعثة أوقات فراغهم في مدينة القاهرة؟ ماذا فعلوا خلال الثلاثة أسابيع، التي قضوها هناك؟ يذكري. ب. كافاليفسكي: « كان عددنا في ذلك الوقت سبعة مواطنين روس... في الصباح كنا نذهب خارج المدينة لرؤية الغابة الحجرية أو الأهرامات أو المساجد؛ وكنا نقضي معظم الليل لدي قنصلنا »[73]. بالنسبة لبارودين، الذي تواجد لأول مرة في الشرق، كان مدهشًا أن يري تلك المعالم الغريبة .

مع هذا لم ينس كافاليفسكي ورفاقه هدف البعثة الرئيسي – ألا وهي المساعدة في التنقيب عن مناجم الذهب في السودان المصرية. ولم يكن بمقدور فريق كافاليفسكي أثناء وجوده بالقاهرة عدم القيام بزيارة رسمية إلي محمد علي، والتي جائت البعثة تحت رعايته المباشرة. أخبر مؤسس مصر الحديثة المتخصصون الروس اتخاذه الإجراءات الخاصة بإرسال 10 آلاف شخص إلي منطقة استخراج الذهب في فازوغلي ، للعمل في مناجمها. يبدو أن هذا الرقم، وقدرة دولة مصر في الشرق أثارت انطباعات حتى المهندسين الروس، الذي تعودوا في ذلك الوقت علي تجميع أعداد من الفلاحين كل يوم من القري المجاورة للعمل في مناجم مياس. ولكن لا يمكن مقارنة هذا بالموارد البشرية الهائلة، التي كان يوجهها محمد علي لتطوير صناعة استخراج الذهب في مصر.

تسهم مذكرات بارودين في إدراكنا بصورة أفضل لمدي تنوع مجالات التعاون بين الإمبراطورية الروسية ومصر في عهد محمد علي. روسيا من بين تلك الدول،

71 - نفس المرجع.

72 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 29.

73 - نفس المرجع... ص. 37. شغل القنصل فوك ألكسندر ماكسيموفيتش هذا المنصب منذ 22 أبريل غام 1844 حتى نهاية 18 ديسمبر عام 1854.

التي كان لها تواجدًا ملموسًا في مصر بفضل السياسة المنفتحة لمحمد علي . يذكر خبير التنقيب عن الذهب الأورالي أنه قام برفقة زملائه بزيارة «مستشفي، حيث يعيش مساعدوا أطباء (ترجمة – تعليق أ. ف. أنتوشين) من روسيا للدراسة أو للتعرف علي أسباب مرض الطاعون»[74]. في الواقع أسهمت الإمبراطورية الروسية في تطوير قطاع الصحة في مصر في منتصف القرن التاسع عشر. وكما أشار أ. أ. رافالوفيتش، فإن الهدف الرئيسي لتواجد البعثة الطبية الروسية في مصر «هي الدراسة العملية لأعراض مرض الطاعون وطرق العلاج منه» في الشرق عامة ومصر خاصة من أجل زيادة أعداد الحجاج إلي مكة والمدينة عبر مصر. ويعتقد رافالوفيتش أن مشكلة انتشار الأمراض الخطيرة في مصر تحمل أبعادًا معقدة . وكما هو الحال بالنسبة للرحالة الروس الآخرين، أثار رافالوفيتش قضية الثمن، الذي كان يدفعه الشعب المصري مقابل إصلاحات محمد علي : «أري أن تحسين وضع الفلاح أفضل وسيلة للتخلص من الأمراض الوبائية المنتشرة في وادي نهر النيل؛ فلن تجدي جميع الإجراءات الطبية الإحترازية لإدارة التموين في بالإسكندرية نفعًا حتي يتوقف القهر الذي يتعرض له الفلاحين من البكوات!»[75].

من المدهش أنه بجوار المستشفي ، حيث كان مساعدو الأطباء الروس يعملون ، رأي أفراد البعثة صورة للوسائل، التي كان محمد علي يعتمد عليها في بناء إمبراطوريته. يتذكر "إيفان بارودين" أن سلطات المدينة كانت تجمع كثير من «الصبية» «والصبايا» لتنظيف الميدان أمام المستشفي. لم يكن خبير التعدين علي علم بهؤلاء ، ولم تكن لديه فكرة إلى «أي طبقة إجتماعية ينتمون». مع ذلك انطبعت في ذاكرته كيفية عملهم: «كانوا مقسمين إلي ثلاثة أقسام: الأول يجمع القمامة في السلال، والثاني يقف ويغني ، أما الأطفال في القسم الثالث يركضون بسلالهم إلي مكان تجميع القمامة ، يركضون بكل ما أوتوا من قوة». في تلك الأثناء لاحظ بارودين أن الشرطة تقوم باستمرار «بضرب كل عامل علي رقبته »، إلا أن الذين يعملون علي الأرجح «يغنون ولا أحد يبكي »[76]. ولهذا تشعر بمدى تأثر خبير استخراج الذهب الأورالي ، الذي قضي حياته في روسيا الإقطاعية ، بسطوة جهاز الدولة في إمبراطورية الشرق .

ألقي "ن. ن. مورافيف-كارسكي" الضوء علي نفس المشكلة المتعلقة

74 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة .9.

75 - أ. أ. رافالوفيتش. رحلة في شمال مصر... ص. 378.

76 - ن. ن. مورافيف (كارسكي). المصدر الأسبق. ص. 27.

بالثمن الباهظ الذي يدفعه الشعب المصري في سبيل إصلاحات محمد علي. وقد توجه مورافيف في بداية الثلاثينيات بأمر من نيكولاي الأول إلي الشرق الأدني والشرق الأوسط لتقديم المساعدة إلي تركيا. وفي مذكراته واجه مورافيف مباشرة الأوروبيون ، الذين كانوا يفتخرون بإصلاحات محمد علي، فيقول في وصف مصر في الثلاثينيات : « الجوع والفقر المضقع هم أصل الشرور أينما وجدوا، فالمدن عبارة عن أنقاض والسكان هجروا قراهم، والمنازل خربة – بإختصار، ينازع الشعب، المنهك من نير العبودية القاسية ، الخطى عبر العشوائيات وحتى القبور... يتكلمون عن التعليم في مصر، ولكن لا وجود له هناك ، ولا يمكن أن يوجد في الوقت الراهن ، بما أن التعليم مرتبط برخاء الشعب ، الذي لم يلتفت إليه محمد علي أبدًا، بل أنهك قوي تابعيه من أجل تدعيم المنشآت الحكومية ، التي لا تلائم السكان ولا ثروات المنطقة »[77]. ويعتقد ن. ن. مورافيف ، أن إنجازات محمد علي في مصر لم تكن لصالح الشعب المصري ، بل « لإرضاء رغباته الشخصية ونزواته» . ويؤكد الدبلوماسي الروسي ، أن الشعب المصري « كان يعيش في كرب بسبب المصائب»، التي انهالت عليه بفضل أعمال محمد علي، بل كان غير مستعد لاستيعاب إصلاحاته. بلا شك ، لا يخلو رأي "ن. ن. مورافيف" من بعض التحيز، بما أن الحكومة الروسية أرسلته إلي هذا المكان تحديدًا من أجل مساعدة تركيا في تجنب الهزيمة في الحرب مع مصر. ومع هذا، إذا أردنا تكوين صورة كاملة عن الأوضاع في مصر في عهد محمد علي، يجب أخذ هذا الرأي في الإعتبار.

والأكثر من ذلك، لم ينحاز "ن. ن. مورافيف - كارسكي" وحده إلي هذا الرأي . فمثل تلك الأفكار كانت تراوض مؤلف كتاب «رحلة إلي الأماكن المقدسة ». رأي "أ. ن. مورافيف" أن محمد فعل الكثير في الواقع .

لقد كان رأى الكثيرين أن نحند على فعل الشئ الكثيرمن أجل إعمار مصر. وتعجب الرحالة الروسي من «عبقرية » مؤسس مصر الحديثة، الذي « استطاع بالإصلاحات الداخلية أن يتفوق علي الأقاليم المجاورة له. زراعة أشجار التوت والنخيل، والقطن ومحاصيل إنتاجية أخرى كثيرة ، التي كانت غريبة عن مصر قبل ذلك، وكذلك بناء العديد من الورش والمحلات ، والمدارس ، والترسانات – كل هذا دليل علي مجهود جبار ». يبدو أنه لم يستطع غض الطرف مرة أخري عن ثمن كل تلك الإصلاحات : «لم يكن محمد علي – الذي يحظي بالاحترام في سوريا، والذي يدعي بالرهيب في الجزيرة العربية، كما عرف با نحيازه لأفريقيا - ليبرز بين سلاطين الشرق لولا معاناة الشعب بالجهد المضني تارة، وبالضرائب تارة أخري، تحت نير الإحتكار الجائر، الذي لا تصب ثرواته إلا في خزينة الباشا»[78].

---

77 - ن. ن. مورافيف (كارسكي) المرجع الأسبق. ص. 27.

78 - رحلة إلي الأماكن المقدسة عام 1830. ص. 193.

من القاهرة باتجاه أعالي نهر النيل

إذًا فلنعد إلي فريق بعثة ي. ب. كافاليفسكي. في الثامن من يناير 1848 حانت لحظة الرحيل عن القاهرة المضيافة . تجمع بعض الروس لدي رئيس البعثة وجلسوا القرفصاء وفقاً للعادات القديمة «ورسموا علامة الصليب في خشوع... وطلبوا المغفرة!» خلافًا لسالف الذكر ل. س. سينكوفسكي، سافر مع ي. ب. كافاليفسكي الدكتور تريمو - سلافي الجنسية، ضمه محمد علي لأفراد البعثة (يطلق عليه بارودين «دكتور جيرمانوفيتش ») وهو الترجمان العربي الذي تربي في فرنسا، وكذلك الرسام الفرنسي. أوكلت مهمة حل المشاكل الخاصة بتأمين الحملة إلي المقدم يوسف أفندي، وهو من الشراكسة . وبعد حصر أعداد كل هؤلاء، يقول ي. ب. كافاليفسكي في مذكراته: «خلافًا لتلك الشخصيات، أصطحبنا أيضًا خبراء تعدين روس وخدم من جميع الجنسيات والألوان»[79]. وهكذا كان إيفان بارودين وصديقه يحتلان مكانة داخل البعثة أقرب ما يكون إلي الخدم . علي هذا النحو تحركت البعثة بإتجاه المحطة التالية . شحن متاع البعثة كله إلي سطح المركب، وفي الثانية ظهرًا بدأ أعضاء فرقة ي. ب. كافاليفسكي في الإبحار بإتجاه أعالي نهر النيل. «يذكر إيفان بارودين: كنا مستمتعين برؤية المناطق حولنا. تقع علي شاطئ النهر أحراش شجر النخيل، وفي الأفق تلوح قمم الأهرامات العالية، ويتناوب أمامها وفود من الناس ، كما لو كانوا واقفين للحراسة...»[80].

يا له من رأي غريب من خبير تعدين أورالي بسيط، لا يميل بشكل عام للأفكار الفلسفية ولا النقاش في مواضيع عامة . علي خلافَ ي. ب. كافاليفسكي ، علي سبيل المثال ، ومثلما أثارت حيرة الناس لقرون ، تركت الأهرامات أثرًا كبيرًا في نفسه. من الواضح أن إيفان تروفيموفيتش كان مهتمًا ببعض المعلومات المتعلقة بأهرامات مصر. وكم كان تأثر خبير التعدين الأورالي بعدما تحاور مع رئيس البعثة – وهو شخص صاحب معرفة وقرأ عديد من أعمال الباحثين الأوروبيين عن الأهرامات : «كم من القرون مرت علي بناء الأهرامات منذ 2500 عام قبل ميلاد المسيح! ويقولون أن جهدًا جبارًا قد بُذل لبناء هذا الصرح الهائل » .

تحظي المعلومة الأخيرة بأهمية خاصة ، بما أن "إيفان بارودين" كان مهتمًا

79 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 45.

80 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة .10.

بالمسائل التقنية البحتة، حيث حكي عن نظام فيضان النيل، وكيفية استغلال السكان المحليين له. علم بارودين أن المياه تبدأ في الفيضان في بداية شهر يونيو وفقًا لسجلات «مقياس نهر النيل»، الذي أقامه السكان المحليين في مناطق كثيرة من أجل معرفة إلي أي مدي ارتفعت المياه. وهكذا يستطيعون «التنبؤ بموعد محصول القمح »[81].

يروي إيفان بارودين أيضًا عن طريقة رفع المياه من خلال ساقية هيدروليكية: « يقومون بتثبيت قدرين خزفيين بالأحبال ، ويقرنون بين ثورين أو ثلاثة ». يشير إيفان تروفيموفيتش – مع إلمامه بجميع الأمور- أن تلك الطريقة تعتبر «فعالة» لصاحب الأرض أثناء انخفاض مستوي مياه النيل . كما اثار اهتمامه الشادوف ، الذي كان المصريون يرفعون به المياه لسقي الأراضي. وباعتباره متخصص تقني ، أثارت تلك الوسيلة إعجابه، ولهذا وصف في مذكراته طريقة عمل « هذا الكيس الجلدي ». وفيما يتعلق بشاطئ نهر النيل والأراضي، التي مرت عبرها البعثة، فلم يكن هناك الكثير مما لفت أنظار المسافرين: «علي الجانب الغربي من المياه يمكنك رؤية سلاسل الجبال الليبية الممتدة بمحازاة النيل... وتوجد علي الشاطئ منازل، وأكواخ من الطوب اللبن داخل أعراش النخيل . وفي كل قرية يوجد العديد من أبراج الحمام»[82]. كان "إيفان بارودين" يري مدي الفقر المحدق بحياة المصريين، وإلي أي مدي كان أسلوب حياتهم متواضعًا.

بني سويف

كانت البعثة تتوقف في طريقها علي شواطئ المدن والقري، وكان من بينها، علي سبيل المثال، مدينة بني سويف، التي تقع بالقرب من قناة بحر يوسف . وكانت تلك المدينة أحد أهم المراكز الإقتصادية لمصر في عهد محمد علي. لازال "أ. نوروف" الذي زار هذه المنطقة قبل عشر سنوات، يتذكر بنايتين «من الفن المعماري الرائع» ـ مسجدًا وثكنة، وتتكون باقي مدينة بني سويف من عدد كبير من الأكواخ. دائمًا ما كانت تتغير ملامح النيل والمناظر الطبيعية المحيطة بالبعثة في منطقتي بني سويف والمنيا. كانت الجبال تقترب من الشاطئ وتمتد عن بُعد علي هيئة

81 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفير دلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 10.

82 - نفس المرجع. ورقة 10.

شريط أبيض ، ثم تختفي تدريجيا ويمكنك رؤية قري متفرقة علي الشاطئ[83]. وكلما تحركت البعثة إلي الأمام، كلما اتسع نهر النيل .

أسيوط

بعدما تخطت البعثة مدينة بني سويف، توقفت بعثة ي. ب. كافاليفسكي للتزود بالفحم في أسيوط (سيوط). كانت أسيوط أحد أهم مراكز مصر العليا، « ليكوبوليس القديمة » (أطلق هذا الاسم علي المدينة في عهد البطالمة وتعني «مدينة الذئب ». تعليق المترجم)، وفقا لما أشار الرحالة الروس، الذين تعرفوا جيدا علي الأدب القديم مثل ي. ب. كافاليفسكي . كانت المدينة تقع علي وادي رائع وخصب بالقرب من قاعدة الجبال الليبية ، التي كانت تقيها من رمال الصحراء. كانت القبائل تتوافد علي أسيوط من المناطق الداخلية في القارة السمراء، حيث كانت تُخزن المنتجات، والتي كانت تُباع بعد ذلك للمصريين . وفي أسيوط انتشرت تجارة العبيد السود، وسن الفيل، وريش النعام والأفيون . وكانت مخازن المنتجات موجودة في مرفأ الجمرة بأسيوط، حيث كانت ترسو مراكب التجار الأجانب .

إمتد سد طويل من شاطئ نهر النيل وحتى مدينة أسيوط. في يوم من الأيام تحصن المماليك بهذا المكان، وأحاطوا أسيوط بحوائط من الطوب اللبن ، ولكن لحظة وصول إيفان بارودين ورفقائه كانت الحصون الدفاعية قد تحولت إلي أنقاض منذ فترة. تميزت المدينة بالفن المعماري لمساجدها، ولا سيما المسجدين اللذين انطبعا في ذاكرة أ. نوروف : الأول يذكره، علي حد قوله « بمسجد السلطان حسن في القاهرة » - «ولكن للأسف تم ترميمه». والمسجد الآخر، ذو مقاييس أصغر، ولكنه يتميز بزخارف علي مستوي أعلي[84]. كان هناك أيضا عدة معابد قبطية، قامت بجذب الجزء الأكبر من سكان أسيوط الأقباط. وكان إجمالي سكان المدينة ما يقرب من 20 ألف مواطن.

جرجا

رسا أعضاء بعثة ي. ب. كافاليفسكي في العاشر من يناير عند الشاطئ ودخلوا مدينة جورجا (جرجا). قديما كانت واحدة من أهم مدن منطقة طيبة – مصر العليا. تُعتبر برج الدير المسيحي الشاهق الجميل المكان الأبرز في البناء المعماري لمدينة

83 - أنظر: أ. نوروف. المرجع الأسبق. ص. 15-14.

84 - أنظر: نفس المرجع. ص. 34.

جرجا – والذي كان ديرًا قبطيًا، وكان كاثولوكيًا لحظة وصول بعثة ي. ب. كافاليفسكي . أنه دير القديس الشهيد جورج، الذي تحمل المدينة اسمه . علي أية حال ، في وقت من الأوقات كان الدير يملك أراضي مزروعة شاسعة، وكان يقدم مساعدات مختلفة للمسيحيين الفقراء في مصر. إلا أن زمن إزدهار الدير أصبح في عداد الماضي : في بداية القرن الخامس عشر حصد وباء الطاعون أرواح معظم الرهبان، بعد ذلك بدأ الدير في التدهور.

تمكن بارودين ورفقائه من تفقد عدد من معالم مدينة جرجا، حيث جابوا سوق المدينة : «كان السوق مكتظًا لدرجة أننا تلمسنا طريقنا وسط الزحام بمشقة ، وكانوا يفسحون لنا طريقًا للمرور بصعوبة». تواجد أعضاء البعثة في إحدي الورش، التي لم تكن تعد الأوراق فقط، ولكنها كانت منشأة كبيرة ومتقدمة تكنولوجيًا في تلك الأثناء: فقد كانت الورشة تزخر بثلاثمائة « ماكينة لصناعة أنسجة القماش». وقام إيفان تروفيموفيتش بزيارة المعبد القبطي في طريقه، والذي أثار اهتمامه البناء المتواضع للكنائس القبطية، بعدما تعود علي عظمة المعابد الأرثوذوكسية : حيث يشير باندهاش «إلي عدم تمكنه من رؤية أية زخارف»[85].

ومن جديد أكملت البعثة الطريق! ولم تختلف المناظر الطبيعية التي قابلتهم عن سابقيه، ولهذا لم يتذكر أعضاء البعثة الكثير عنها. ومع هذا كانت ملامح المنطقة تتغير. فقد كانت مناطق مصر العليا تختلف عن تلك المناطق، التي مرت عليها بعثة ي. ب. كافاليفسكي في طريقها من الإسكندرية إلي القاهرة. فقد لاحت أمام إيفان بارودين ورفقائه الجبال الليبية، التي ارتسمت علي خلفيتها أشجار البلوط. حتي في المناطق التي تبدو قاحلة يمكنك رؤية نباتات . حيث تنمو علي شاطئ النهر أشجار البلوط بكثافة، كما تنمو أشجار النخيل.

علي أية حال تحركت البعثة الروسية بسرعة كبيرة لم تمكنهم من الإستمتاع برؤية الطبيعة : يذكر ي. ب. كافاليفسكي: «تنطلق مركبنا بسرعة وهي تتعثر في المياه الضحلة؛ حينها تري نفسك داخل شاطئ النيل الموحل، والذي تخرج منه بعد وقت طويل. قبطان المركب عربي؛ لديه معارف محدودة؛ ضف علي ذلك تواكل العربي، الذي ينظر إلي ما يحدث أمامه بلا مبالاة كالمجنون ». من أجل إضفاء بعض المرح علي الرحلة البحرية وشغل الوقت، بدأ خبراء التعدين الروس في الغناء. يقول رئيس البعثة، وهو يتذكر ذلك : « بالطبع، كنا نسمع كلام

85 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 10.

روسي قبيل شاطئ النيل أو نري مواطنًا روسيًا ولو نادرًا، إلا أننا بالتأكيد كنا نسمع غناء روسي جماعي للمرة الأولي »[86]. لم تكن بعثة ي. ب. كافاليفسكي الوحيدة المسافرة عبر نهر النيل في ذلك الوقت . فقد تصادف وجود سفن أخري، وأحياناً تسنى للرحالة الروس مساعدتهم. علي سبيل المثال، في اليوم التالي من زيارة ورشة صناعة النسيج، لحق أفراد البعثة في الحادي عشر من يناير في أعالي النهر مركب القنصل البريطاني «المتعثرة في الحركة بسبب الرياح العكسية ». يذكر بارودين أن البعثة الروسية قدمت المساعدة للبريطانيين عن طريق « ربط » مركبهم بمركب الروس[87]. وقعت تلك الأحداث قبل ستة سنوات من حرب القرم، التي وقفت بريطانيا وروسيا فيها عدوين لدودين.

وفي الأربعينيات كانت العلاقات مضطربة بين كلا البلدين، فقد سعي الإنجليز لمنع تقوية نفوذ روسيا في مناطق كثيرة بالعالم. ولكن لم يمنع ذلك الروس من تقديم المساعدة الضرورية للمركب البريطاني ، حال لقاء المركبين في مصر البعيدة. علي كل حال، لم تسر العلاقات علي ما يرام بين "ي. ب. كافاليفسكي" والقنصل البريطاني . فقد وقع سوء تفاهم بسبب وجود رغبة شخصية لدي رئيس البعثة الروسية في مساعدة البريطانيين. علي كل حال أرسل القنصل العام لروسيا في مصر "أ. م. فوك" خطابًا من القاهرة بتاريخ 21 يناير 1848 إلي إيجور بتروفيتش، يقول فيه: «أشعر بالأسف لعدم تمكنكم من التفاهم مع القنصل العام البريطاني. أنه شخص لبق ومحترم، وكل ما حدث بسبب سوء تفاهم، أو علي الأرجح، بسبب خطأ خسرو بك، الذي نسي أخطاركم ، أنه، بطلب من القنصل الإنجليزي، قد صدر أمرًا من الباشا إلي مركبكم بسحب المركب البريطاني حال التقائكم به واقتضي الحال لذلك »[88].

طيبة. الأقصر. الكرنك

اكملت بعثة ي. ب. كافاليفسكي طريقها عبر نهر النيل وقامت بزيارة مدينة طيبة الأسطورية، والأقصر القديمة والكرنك. يذكر إبرهام نوروف، الذي سبق بارودين ورفقائه إلي هذا المكان، الإنطباع، الذي خلفته في نفسه رؤية آثار

86 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 60.
87 - أنظر: الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 11.
88 - ب. أ. فالسكايا. ي. ب. كافاليفسكي والمهندسون المصريون... ص. 140.

مصر القديمة فجأة : «بمجرد مرورنا أمام جزيرة العرازات، سرعان ما ظهر أمامي مبني عملاق خلف أشجار النخيل علي الشاطئ الشرقي، ولم أتمكن من وصفه لأن أشجار النخيل الأستوائية العالية بدت أمامه كالأسل؛ كما ظهرت ورائه مسلتين أو ثلاثة تشق عنان السماء، ورأيت صفًا كاملًا من العواميد»[89].

كانت لتلك الآثار الشهيرة وقعها أيضًا علي نفس إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي، الذي قرأ الكثير عنها. والأكثر من ذلك، ساعده ذلك في « التغلب علي شعوره بالملل »، حيث يذكر فيما بعد: «لم أكن أتخيل، أن يدهشني شيء لهذا الحد »[90]. علي الجانب الآخر، كان بارودين أكثر تحفظًا في رأيه؛ حيث يوضح في مذكراته أنه ربما سمع شيئًا عن هذه الآثار، وخاصة، عن تاريخ طيبة المجيد. واستخدم بارودين اسم طيبة المجيدة، متذكرًا الوقت، الذي كانت فيه طيبة في «أزهي عصورها». ولكن حين وصول بعثة ي. ب. كافاليفسكي إلي تلك المناطق ، كان إنطباع خبير التعدين الأورالي عنها مختلف تمامًا: وفقًا لما قاله إيفان تروفيموفيتش «فلم يبق من طيبة سوي بعض الأطلال وبقايا الآثار القديمة » . علي أية حال ، لازال خبير التعدين الأورالي يتذكر تلك الأطلال. وقام بوصف أول ما رآه عام 1848 في مذكراته: «المسلات، وتماثيل أبو الهول، وكباش – معبد الآلهة القديمة ومعابد الفراعنة. بقت ثلاثة فقط من المسلات علي حالتها بطول حتى سبعة ساجين وعرض حتى أربعة أرشين (مقياس روسي قديم يساوي 71 سنتمتر). هناك تمثال عملاق مقطوع الرأس من الجرانيت الخالص. كل هذا تهدم تمامًا الآن إما علي يد البشر أو بفعل الزمن»[91]. بدأ سكان طيبة المحليون في مضايقة «سياح» القرن التاسع عشر، الذين انزعجوا من سلوكهم المتطفل. ولم ينج القنصل البريطاني من تلك المضايقات، خاصة وإن هيئته توحي بأنه صاحب منصب كبير وميسور الحال. أثناء عودته إلي مركبه بعد زيارة بعض المعالم، أدركه حشد من الناس . يصف إيفان بارودين هذا المشهد المضحك بسخرية وذهول: « يلعبون ، ويسيرون بلعب أطفال في أكمامهم. يرقصون بشكل غريب، لدرجة أن من الصعب تمييز تقلبات الوجه من ثني الجسم... حتى أنه (أي القنصل – تعليق أ. ف. أنتوشين) سأم من رقصهم وغنائهم، ولذلك أمر بطردهم بعيدًا عنه »[92].

89 - أ. نوروف. المرجع الأسبق. ص. 65.
90 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 64.
91 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة .11.
92 - نفس المرجع. ورقة 11.

أسوان

في الثالث عشر من يناير بلغت بعثة ي. ب. كافاليفسكي نقطة مهمة في رحلتها عبر نهر النيل – مدينة أسوان. استمدت المدينة أهميتها منذ القدم باعتبارها نقطة حدودية بين مصر وشعوب الجنوب. ولكن لم يلحق الرحالة الروس سوي أطلال حضارة أسوان القديمة: بلغ إجمالي تعداد السكان في المدينة 5 آلاف مواطن، كما كانت معظم المباني في حالة مزرية ومهدمة تقريبًا. «ما لم يحصده وباء الطاعون وعوامل الزمن، حصدته غزوات النوبيين »، ـ هكذا كانت فلسفة رئيس البعثة في شرحه لأسباب تدهور مدينة أسوان. في مدينة أسوان تحديدًا اضطر الرحالة الروس لمغادرة مركبهم بسبب شلالات نهر النيل. في الظهيرة كانوا مضطرين لشحن أمتعتهم علي الجمال. كانت درجة الحرارة عالية جدًا أثناء الشحن: يذكر إيفان بارودين « أن أرجلهم كانت تحترق داخل الأحذية في الرمال». لاحظ خبير التعدين الأورالي بعض الصور من حياة مرفأ أسوان، مما خفف من وطئة الانتظار. أما المرفأ نفسه فبدي له « مخيبًا للآمال ».

فقد أثار إعجابه مشاهدة «البحارة المهرة»، الذين كانوا يناورون وسط الأحجار الكبيرة في النهر. سرعان ما أدرك بارودين مدي صعوبة عملهم، بما أنهم كانوا مضطرين لقيادة المركب حتى « لا تغرق وسط الكاتاراكت (الشلال – إشارة أ. ف. أنتوشين)»، الذي كان قريبًا جداً من هذا المكان: حتى أن « صوت خرير المياه » كان مسموعًا.

ولكن لم يكتف "إيفان تروفيموفيتش" فقط بالوقوف علي مرفأ أسوان لمراقبة شحن الأمتعة علي الجمال. فقد قام بجولة في المكان، وتفقد معالم المنطقة. ومر علي «محاجر الملوك القدامي»، ورأي مسلة قديمة من الجرانيت. من المدهش أن خبير التعدين ، الذي طالما استهوته مثل تلك التفاصيل التقنية، قام بالتحقق من قياسات المسلة (طول – 24 أرشين، وعرض – أربعة ونصف). اضطر إيفان بارودين للإعتراف بكل أسف أن نتائج قياساته تقريبية، بما أنه «كان مستحيلا رؤية السمك من الطرف الآخر (للمسلة – تعليق أ. ف. أنتوشين) بسبب هبوب الرمال ». كان موجوداً بالقرب من المسلة جلمود صخر رُسمت عليه صورة فرعون جالس علي عرشه ويأمر شعبه[93]. ونلاحظ أن الآثار القديمة في ضواحي أسوان تركت أثرًا كبيرًا وقتها علي نفس أ. نوروف. يصرح الرحالة الروسي في الثلاثينيات بعد تفقد معالم

93 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة .12.

المديـنة : «كم هي رائعة تخوم مصر! على الشاطئ الشرقي يرتفع جلمود جرانيتي مغطي بأنقاض سيينا القديمة وأسوان الحالية؛ وعلي الشاطئ الغربي يوجد جبل وعليه قلعة جوبا المهدمة»[94].

بعد شحن الأمتعة استكمل أعضاء بعثة ي. ب. كافاليفسكي طريقهم بحرص. يذكر إيفان تروفيموفيتش «أنهم كانوا مضطرين للمرور بين الجبال أمام الصخور البارزة من المياه»[95]. وبالطبع يتذكر بارودين جيدًا شلالات النيل الشهيرة (أو كما يطلق المصريون أنفسهم عليها، «الكاتاراكت»). وفي وصفه لهذا المنظر الطبيعي، يوضح خبير التعدين شكل هذا المشهد لقراء مذكراته المحتملين (وهم ليسوا مصريين بالتأكيد): «في هذا المكان تتلاقى كتلتين جبليتين سويًا، وكان لابد لنهر النيل أن يشق طريقه ليشكل صخور بارزة وشلالات».

لم تثر طبيعة المنطقة مخيلة الرحالة الروس، حيث من النادر وجود نباتات هناك: «لا أثر لوجود غابات، - يذكر إيفان تروفيموفيتش، - تنمو الحشائش فقط علي شاطئ نهر النيل، وهي إما متيبسة، وإما تنمو وسط الأحجار»[96]. لم يري أعضاء البعثة سوي أشجار النخيل، الممتدة علي طول نهر النيل.

جزيرة فيلة

في الطريق رأي الرحالة المعابد القديمة، والتي يقع أحداها في جزيرة فيلة وسط نهر النيل علي بعد 5 كيلومترات أعلي مدينة أسوان. استفاض أ. أي. بريم – عالم الطبيعة الألماني الشهير وصاحب كتاب « حياة الحيوانات » في وصف هذا المكان بصورة رومانسية: « وسط الطوب والحجارة المتناثرة » « تبرز جزيرة فيلة الخضراء بأشجار النخيل وأطلال المعابد. لأول وهلة تبدو كالقلعة الساحرة». من الغريب استخدام إبرهام نوروف مثل هذا الوصف، وخاصة إذا أخذنا في الإعتبار عدم إتفاقه في الرأي مع أ. أي. بريم؛ فنراه يصف الجزيرة «بالساحرة»، قائلا: «لا توجد صورة أكثر سحرًا ونقاءًا في أي مكان مثل التي تراها في جزيرة فيلة. إذا أردنا أن نعطيها حقها في الوصف، فلابد أن نستوحى صورًا من أعمال أرسطو ودانتي . يحطم

94 - أ. نوروف. المرجع الأسبق. ص. 151.

95 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفير دلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 12.

96 - نفس المرجع. ورقة 34.

النيل الثائر حواجز الجرانيت، ويلقي الصخور بشكل عشوائي ، الواحدة أكبر من الأخري ». لم يكن نوروف أقل رومانسية في وصفه لحظة مغادرته لهذه الجزيرة الرائعة . « كلما أبحرنا بعيدًا ، ـ يذكر لاحقًا، ـ كلما بدت صفوف العواميد أكثر روعة وانتصبت الصروح الهرمية عاليًا. ومع حركة المركب كانت الصخور الحزينة تتخذ أشكالاً خيالية مختلفة، وتبدو كمخلوقات خارقة... ولكن بمجرد أن لاح في الأفق أول شعاع للشمس، بدأ ضباب الفجر في التلاشي مثل الشهاب»[97].

ولهذا ليس مدهشًا أن تبقي جزيرة فيلة في ذاكرة بارودين لفترة طويلة . فقد خصص جزء كبير من مذكرات خبير التعدين الأورالي لوصف معابدها. علم إيفان تروفيموفيتش بارودين ، علي ما يبدو ، من حواره مع ي. ب. كافاليفسكي ، أن المعبد الموجود في جزيرة فيلة تم بناءه قبل 2000 عام من ميلاد المسيح، وخُصص لأحد آلهة مصر القديمة (الإله إيزيس). وبدوره يشير أ. أي. بريم، تأكيدًا علي أهمية هذا المكان بالنسبة للمصريين القدماء، أن أسرة إيزيس استمرت في ذلك المكان أثناء انتشار المسيحية في جنوب مصر[98].

لم تكن هناك أية بقايا للمعبد لحظة وصول البعثة الروسية إلي المنطقة. «ولكن من الجيد رؤية شكل المباني» ـ، كما أشار إيفان تروفيموفيتش. كان خبير الأورالي معجبًا بحرفية البناءين في العصور السحيقة، و«العمارة المتناسقة » التي تميز «العصور القديمة»، « والعناء في الارتقاء بها لهذا الإرتفاع»[99]. كما انطبعت في ذاكرة بارودين العديد من الرسومات علي حوائط المعبد والأعمدة، ورأي هناك عدة « شخصيات » من تاريخ مصر. وكانت الحوائط مزرقشة بالرموز « الهيروغليفية »، التي لم يتسن للخبير الأورالي قراءتها. ونُقشت علي الأعمدة «طغريات مختلفة الأشكال ». ويذكر بارودين أن الألوان التي رسمت بها اللوحات كانت زاهية[100]. مع هذا قام السكان المحليون، كما أشار إيفان بارودين، بتجميع أنقاض حجارة المعبد لبناء عدة أكواخ منها علي الجزيرة . عند بناء سد أسوان عام 1902 غرق معبد إيزيس بالإضافة إلي مباني أخري في جزيرة فيلة . وفي بداية السبعينيات من القرن العشرين تم نقلها إلي

97 - أ. نوروف. المرجع الأسبق. ص. 162، 180.

98 - أ. أي. بريم. رحلة عبر شمال شرق أفريقيا أو عبر البلاد التي تقع تحت حكم مصر: السودان، والنوبة، وسنار، وروسيرس، وكوردفان. موسكو، 1958. ص. 83.

99 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 12.

100 - نفس المرجع. ورقة 13.

جزيرة إيجيليكا (علي بعد 500 متر من جزيرة فيلة . تعليق المترجم) العالية[101].

لم تكتف البعثة، أثناء وجودها في جزيرة فيلة، بتفقد المعبد القديم فقط من الخارج. فقد صعد الرحالة الروس إلي أعلي المعبد (علي الرغم من خطورة تسلق المعبد المهجور) للإستمتاع برؤية الضواحي القريبة. برزت علي الجانب الغربي من الجزيرة جلمود صخر فوق النهر بالإضافة إلي جبل شاهق . وفي الغرب ينكشف مشهد وادي صغير. كما وقعت أعين أعضاء البعثة علي قري صغيرة يسكنها فلاحون. كما انطبعت في ذاكرة خبير التعدين الأورالي حياة المصريين البسيطة : «علي جانب الشاطئ توجد عروش شجر النخيل، وداخلها منازل صغيرة أو مجرد أكواخ، وعنابر من الطوب بلا أناقة»[102]. يعم المكان الهدوء والسكينة، ولا يسمع سوي «صوت مياه النيل المنهمرة بهدوء »، ـ يذكر بارودين. كما تركت بساطة سكان المنطقة وأسلوب حياتهم المتواضع أثره البالغ في نفوس الرحالة الروس الآخرين، الذين أبحروا عبر تلك المناطق. ولازال "أ. س. نوروف" يتذكر الأسرة النوبية البسيطة، التي رآها في هذا المكان: « يجنون قوت يومهم من قطع صغيرة من الأراضي الرملية تغطيها طبقة رقيقة من الطمي، يُري فيها فسيلة من حصاد الذرة»[103]. كان صعبًا عليه أن يطلق علي مساكن السكان المحليين قري: فعلي حد تعبيره ، فهي تذكره لأول وهلة بالمخيم. كانت المنازل ملتصقة إما بإحدي الأنقاض، أو بشجرة نخيل ، أو بإحدي الصخور. كان الرجال يسيرون عراة تمامًا، فقد كانوا يرتدون شئ ما علي هيئة حزام؛ وكانوا مسلحين بحراب، وأقواس وتروس مُغلفة بجلد فرس النهر أو وحيد القرن . النساء تتحرك وهي ترتدي «أغطية»، ولكن حتى الفتيات – البالغات كانوا يرتدون فقط حزاماً تتدلي منه شرائط . عبر شاطئ نهر النيل قاموا بزراعة أحواض من الذرة والترمس. يتميز النبات الأخير بأزهاره الزرقاء الشبيهة بأوراق نبات الفول، وحبوبه المرة، التي كان السكان المحليون يصنعون منها زيوت، يدهنون بها أجسادهم ويستخدمونها لإنارة المصابيح، وأحيانًا يحولون الحبوب إلي دقيق لصناعة الخبز.

خطوط الاستواء

يعتبر يوم الخامس عشر من يناير علامة فارقة في طريق البعثة عند إحدي النقاط علي نهر النيل. ويبدو أن جميع الرحالة الروس لا يزالون يتذكرونها: ولهذا

101 - يعبر الكاتب عن شكره لف. ف. بيليكوف علي تقديمه تلك المعلومة.
102 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 13.
103 - أ. نوروف. المرجع الأسبق. ص. 192.

ليس من قبيل الصدفة أن يتذكر إيفان بارودين وري. ب. كافاليفسكي هذا اليوم، الذي عبرت فيه البعثة خط الإستواء. حدث ذلك بالقرب من قرية كالابشا. وبالطبع قام رئيس البعثة ، الذي علم منه خبير التعدين هذا الحدث، بتقدير الموقف ووضع الإحداثيات ، التي كانت فيها البعثة (23 درجة 37 دقيقة 44 ثانية). كان هناك بعض الأنقاض بجوار القرية، وبالقرب شوهد مدخل مغارة كبيرة. يا له من مكان بديع، لم يمنع من التأثر به حتى الشمس، التي لفحت وجوه أفراد البعثة بصورة لا تحتمل . وتذكر إيفان بارودين السكان المحليين – البرابرة: «بشرتهم أقرب إلي الإسمرار ويتكلمون بلغة خاصة »[104]. وفي السابع عشرة من يناير رأي الرحالة معبدًا آخر علي الشاطئ الغربي لنهر النيل ، ولكنه كان بحالة جيدة، علي حد قول إيفان تروفيموفيتش: «كانت الأبواب والهيكل علي حالتها»[105].

لم يكن سهلاً تفقد هذا البناء القديم، بما أنه كان مغطي بالرمال بارتفاع اثنين ساجين تقريبًا. فلنَعرض ولو لبعض الوقت وصف الأماكن ، التي تمكن أعضاء البعثة من رؤيتها أثناء رحلتهم ، و نحاول الإجابة علي السؤال التالي : كيف كانت تبدو المركب ، التي كان بارودين وكافاليفسكي ورفقائه يبحرون بها عبر نهر النيل؟ تساعدنا مذكرات "أ. أي. بريم" في تفسير هذا الأمر. فقد كان مسافرًا عبر مصر والسودان عام 1848ـ1847، تقريبًا في نفس وقت حملة ي. ب. كافاليفسكي (جرت الرحلة الثانية لعالم الطبيعة الألماني في الفترة بين عامي (1849 و 1852) . كان "أ. أي. بريم" يسير عبر نفس الطريق ، الذي سلكته البعثة الروسية ، مستخدمًا أيضًا مراكب مشابهة ، والتي تركت أفضل الأثر في نفس العالم الألماني : « من الصعب أن تتخيل رحلة أفضل من التي تقوم بها علي متن مركب في نهر النيل، وخاصة إذا ما كانت مزودة بجميع إحتياجاتك... تتمتع جميع مراكب النيل بنفس الشكل . تشغل الكبينة أكثر من نصف طول المركب، بينما يعتبر الجزء المتبقي، الذي يرتفع عدة فوتات فوق مستوي الكبينة، مكانًا لحفظ الحمولة ومأوي للبحارة . كما يبدو سطح المركب حتى منتصف الصارية متاحًا أمام الركاب: فتلك المسافة مغطاه بسقيفة ، يمكنك أن تشم من تحتها رائحة زكية وتستمتع برؤية المناظر حولك . يقع المطبخ عند الصارية الأمامية: وفيه كانون، أو موقد، محاط بصندوق خشبي للحماية من الرياح. بين الصارية الأمامية وصارية المنتصف مقاعد للتجديف... في المعتاد كان هناك شراعين كبيرين وآخر صغير علي متن الذهبية (المركب؛ والذي تعود أن يطلق

104 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 13.

105 - نفس المرجع.

عليه بارودين «داجابيا» – تعليق أ. ف. أنتوشين)»[106]. من الواضح أن الجزء الأكبر من رحلات البعثة الروسية عبر نهر النيل جرت علي متن تلك المراكب .

وفي الطريق عبر نهر أفريقيا العظيم ظهرت بعض حيوانات تلك المنطقة. وبالطبع خلفت رؤية تمساح النيل ذكريات لا تُنسي . وكان رئيس البعثة قد قرأ كثيرًا من قبل عن هذا الحيوان ، ولهذا، بعد رؤيته، تذكر السطور المكتوبة عن التمساح في أعمال عالم الجغرافيا الشهير جومبولد، والقصص المختلفة عن استئناس التماسيح[107]. علي ما يبدو أن أفكار بارودين أخذت منحني آخر عندما رأي هذا الوحش لأول مرة في 17 من شهر يناير. يذكر بارودين ، أن البحارة رأوا تمساحًا علي بُعد، وأخبروا الرحالة الروس بذلك. في البداية كانوا ينظرون إليه لبعض الوقت عبر النظارة المُكبرة، وبعد ذلك اقتربوا منه أكثر. كان التمساح راقدًا فوق الرمال وبالقرب منه « يقف كالحارس طائرًا يُدعى أبو منجل » . عندما اقترب المركب من التمساح بمسافة قريبة جدًا، ضرب الطائر «منخاره، كما لو كان يحذره، ولهذا انتصب التمساح واتجه إلي الماء ». في تلك الحالة أقر إيفان تروفيموفيتش فقط « بحقيقة رؤيته تمساحًا، علي الرغم أنه أشار إلي شعوره بالدهشة من رؤية « هذا التنين المائي » لأول مرة.

ولكن تشير مذكرات بارودين، أن خبير التعدين الأورالي ظل مدة طويلة يحتفظ في ذاكرته بصورة هذا الحيوان . كلما تحركت المركب في أعالي نهر النيل وعلي متنها أعضاء البعثة، كلما ازدادت أعداد التماسيح. في بعض الأحيان كانوا يرون عشرة وحوش ملقاه في مكان واحد. ويذكر بارودين أن حجم البعض منها يصل إلي سبعة أرشين . تعلم "إيفان تروفيموفيتش" كيفية ملاحظة السمات المميزة لتلك الحيوانات ، وعاداتها أيضًا. فهي ترقد «دائمًا وتطل برأسها في الهواء ، فاغرة أفواهها، التي ينسل داخلها طائر صغير ». في بعض الأحيان أقبل الرحالة الروس علي «اللهو» «واللعب » مع تلك الوحوش العملاقة . حيث كانوا يقتربون منها ويطلقون النار من أسلحتهم وهم علي سطح المركب . حينها كان التمساح « ينطلق ، وهو بين الحلم واليقظة، بخوف شديد في المياه، ثم يرتفع إلي سطح الماء ». وبعد أن يرتفع كان التمساح ينظر إلي المركب بعض الوقت ، « راغبًا في الإنتقام لشعوره بالخوف، بل وخطف شخصًا من فوق سطح المركب»[108]. علي

106 - أ. أي. بيرم. المرجع الأسبق. ص. 71.

107 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 89-88.

108 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة .14.

أية حال، كانت تلك الألعاب محفوفة بالمخاطر لحد كبير، وفي بعض الأحيان كانت تنتهي نهاية سيئة. تحقق خبير التعدين الأورالي بأم عينيه من مخاطر هذه الوحوش الإفريقية : « ذات مرة اصطدم المركب بمكان ضحل ، كما ذكر الخبير، ولهذا كان عليهم السباحة عبر الجبال إلي الجزيرة المقابلة من أجل سحب المركب. وعندما بدأ أحد العرب في السباحة، التقطه أحد التماسيح... وبمجرد أن تم تخليصه، تسبب التمساح في جرح الكثيرين... وعندما توقف أحد الزنوج في سن الثانية عشر تقريبًا بالقرب من الشاطئ، وترك المقود من أجل التغوط، التقطه التمساح وسحبه. ولقي الأخير حتفه »[109].

كوروسكا

بعد يومين من رؤية البعثة للتمساح وقعت حادثة هامة في التاسع عشر من يناير. وصلت البعثة الروسية إلي الشاطئ التالي حيث انفصلت أيضًا عن القنصل البريطاني. بعدما أصبحوا وحدهم، تزود أعضاء البعثة بالطعام والماء في أحد المناطق السكنية – في قرية كوروسكو. يبدو أن بعثة "أ. أي. بريم" وصلت في 24 من أكتوبر عام 1847 إلي قرية كوروسكو قبل وصول بعثة كافاليفسكي بعدة أشهر. والأكثر من ذلك هو التشابه المثير للدهشة: فقد صادف عالم الطبيعة الألماني وجود فرقة من «عمال المناجم» ، الذين كانوا متوجهين، بتكليف من محمد علي، لبناء نفس ورشة غسل الذهب في كاسان، التي سرعان ما ستتوجه إليها بعثة ي. ب. كافاليفسكي! وفي اللحظة التي وصل فيها أ. أي. بريم إلي كوروسكو، كان هؤلاء العمال متواجدين منذ ثمانية عشر يومًا هناك في انتظار الجمال للتوجه عبر الصحراء إلي الممر الخطير[110]. بلا أدني شك، يوجد من بين هؤلاء العمال أشخاصًا تعرف عليهم "إيفان بارودين" و "ي. ب. كافاليفسكي" شخصيًا، بل ومن سيساعدونهم في استخراج الذهب.

كانت كوروسكا علي ما يبدو قرية صغيرة، بل وتركت انطباعًا حزينًا في نفس خبير التعدين الأورالي. يذكر أيفان بارودين لاحقًا، أن هذه «المدينة » : « عبارة عن أكوام من الطوب المجمع دون أي تنسيق». كانت كوروسكا تتكون من عدة قري صغيرة داخل ظلال عروش النخيل. وليس صدفة أن يتوقف "أ. بريم" وفريق "ي. ب. كافاليفسكي" في هذا المكان: فقد كانت القوافل تتوافد إلي

109 - نفس المرجع. ورقة 14-13.

110 - أنظر: أ. أي. بريم. المرجع الأسبق. ص. 84.

هذا المكان من المناطق الداخلية لأفريقيا السوداء . كانت تجارة ريش النعام إحدي أهم السلع الرائجة هناك. وبالقرب من كوروسكا بإمكانك رؤية العديد من آلات الري، التي كانت تعمل في أوقات الليل يوميًا. وكان صرير عجلات تلك الآلات يزعج معظم أعضاء البعثة، الذين توقفوا في القرية للمبيت بعد تنقلاتهم الشاقه.

يذكر بارودين ، أن مسئولوا الإدارات المحلية قدموا العون للبعثة، التي تحركت بتوصية من محمد علي . فقد ساقوا الجمال إلي مكان لقاء فرقة كافاليفسكي، وملئوا له أكياس المياه ، كما أعطوا لهم كميات من الخبز للطريق . «كان المحافظ يهرول ويدبر الأمور بنفسه»، علي حد قول إيفان تروفيموفيتش. مع هذا لاحظ خبير التعدين الأورالي أن ممثل الإدارة المحلية لم يكن يختلف كثيرًا عن سكان القرية البسطاء: «كان يرتدي سترة من التيل الأبيض ، وسراويل واسعة، ويحمل سيفًا في جانبه». كان يرتدي طربوش أحمر علي رأسه، ويمسك في يده دواة حبر نحاسية وقصاصة ورق: «بالتأكيد، من أجل تسجيل أوامره »، كما كان يظن خبير التعدين الأورالي.

تقدم مذكرات خبير التعدين الأورالي إطلالة علي نظام إدارة المحليات في مصر إبان عهد محمد علي. دُعي أعضاء بعثة ي. ب. كافاليفسكي إلي «منزل المحافظ»، وهو المصطلح الذي استخدمه بارودين، تعبيرًا عن المبني، الذي كان رئيس إدارة السلطة المحلية متواجدًا فيه، والذي يشير إليه متهكمًا: «يطلقون عليه منزل المحافظ»، ولكنه لا يشبه أية مقرات أخري. فهو عبارة عن مخازن برية من الطوب، مدهونة بالطين وبدون شبابيك، كما أن الأبواب مغطاه بقماش سميك منسوج من أوراق شجر النخيل... وبدل من الموبيليا ضُممت أقفاص من الطمي ووضع فوقها القماش السميك». بدل من السقف غُطي المنزل بنفس الأقمشة المصنوعة من شجر النخيل، التي كانت مخصصة للنجاة من الحروق، بما أن الأمطار نادرة في هذا المكان. أثار مدخل «منزل المحافظ» اندهاش خبير التنقيب عن الذهب الأورالي، الذي تأقلم علي حياة ممثلي السلطات المحلية في زلاتؤوست.

كان «المحافظ» يتحاور مع "ي. ب. كافاليفسكي" عبر مترجمًا باللغة الفرنسية . بعد ذلك، كما ذكر بارودين، « قدموا لنا فنجان قهوة، ولم يتسن لنا رؤية زوجاته». «كنا نجلس في غرفة الاستقبال، لا توجد بها أبواب مفتوحة علي الغرف الأخرى»[111]. لم يقتصر الأمر علي ذلك فقط. فقد كان "إيفان تروفيموفيتش" يعلم أنه من غير المقبول لدي الشعوب الإسلامية اختلاط السيدات بحرية مع الرجال

111 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 15.

الغرباء. فقد كان يدرك جيدًا «أنه من المستحيل رؤية الزوجات، فهم يخفونهم عن أنظار الناس».

صحراء النوبة

يبدو أن فترة الراحة لم تستمر طويلاً. علي ما يبدو أن المسافرون بانتظار أصعب جزء في رحلتهم عبر صحراء النوبة الشاسعة. في العشرين من شهر يناير قاموا بشحن الجمال، ويذكر بارودين: « مرت قافلتنا عبر طرق متعرجة بين الجبال وحتي الصحراء، حيث تقضي مسيرة تسعة أيام ، لا تري فيها ماء ولا عشب ولا غابة، بينما تري جبال سوداء قاحلة ورمال تحترق من الشمس »[112].

لازال جميع أعضاء البعثة يتذكرون التسعة أيام كاملة .
حتي رحالة خبير مثل ي. ب. كافاليفسكي يصف بشكل بديع الصعوبات ، التي واجهتهم عندما تجاوزوا الصحراء ، وكيف كان السراب يلاحقهم. وبالمثل يروي الخبير عن الرياح الرهيبة التي لحقت بهم، وكيف تعذبوا من الظمأ طيلة هذه الأيام . «لم أري شيئًا في حياتي أصعب من ذلك!» - يقول الخبير، متذكرًا صحراء النوبة الشاسعة[113].

إذا كانت تلك هي انطباعات ي. ب. كافاليفسكي، الذي عبر مسالك صحراء وسط آسيا، فكيف يمكننا تصور مدي صعوبة هذه الأيام علي بارودين . يبدو أن مذكراته توضح، أنه حتى في أحلك أيامه لم ينس، أنه، قبل أي شيء، خبيرًا في التعدين. ولهذا لم تخل مذكراته من وصف صخور الجبال المختلفة، التي رأوها علي السطح. وظهرت أمام أعضاء البعثة الكثير منها بعد أن بلغوا منطقة جبلية في اليوم الرابع والخامس من رحلتهم عبر الصحراء. يذكر إيفان تروفيموفيتش رؤيتهم «صخر ديوريت أخضر» وحجر رخو وحجر الحية وحجر الصوان. كما تمكنوا من رؤية صخور الكوارتز بألوانه المختلفة. ولاحظ خبير التعدين أنواع مختلفة من الجرانيت. أثار كل ذلك اهتمام خبير منطقة تعدين زلاتؤوست، الذي يشتهر بإقتنائه الصخور النادرة من جميع أنحاء الإمبراطورية الروسية. وحتي الظروف العصيبة أثناء التنقل عبر الصحراء النوبية لم تحل دون اهتمام الخبير الأورالي بالأشكال المتنوعة لحفريات المنطقة الصالحة.

112 - نفس المرجع.
113 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 93.

وفيما بعد انطبعت في ذاكرة خبير التعدين الأورالي جبال المنطقة ـ «مرتفعات مستديرة»، «تبدو كأنها مصقولة يدويًا من كل الجوانب». يتكون الوادي في الأساس من أحجار رملية، كما لو كانت تمهد الطريق للرحالة: «تسير عبر الطريق، بينما يصدر صوت عويل من الفراغ »، علي حد ذكر إيفان تروفيموفيتش. علي الرغم من هذا الموقف، إلا أن خبراء التعدين الروس كانوا يجرون تجاربًا في محاولة لاكتشاف مخابئ المعادن النفيسة في تلك المنطقة . ولهذا قرروا تجربة نظرية عالم الجيولوجيا البريطاني سالف الذكر "ر. مورشيسون" ، التي تؤكد أن ظهور الطبقات البركانية دليلاً علي وجود مكامن تحوي علي كميات كبيرة من المعدن ، وخاصة في مناطق تلاقي تلك الصخور مع الطبقات الرسوبية، والتي تخرج من خلالها إلي السطح. من المفترض أن مناطق إلتقاء بعض الطبقات الرسوبية والمعادن النفيسة تنتشر في مكامن رواسب الذهب وكذلك المكامن الناتجة عن الانهيارات . أخذ الخبراء الروس القليل من الرمال في منديل جيب أثناء تواجدهم في المنطقة الجبلية من أجل غسلها بالماء عند وصولهم إلي البئر بعد ذلك .واصل أعضاء الحملة دراستهم المتأنية لطبقات الجبال . وقبل الوصول إلي آبار (المورات) بيومين ، انتبهوا إلي أن طبقات صخور التلك تتفتت بواسطة صخور الديوريت و الصخور البركانية المتفرقة ، والتي تحولت إلي صخور أرجوان وصخور الحية وسيانيت[114]. وتدريجيًا أخذت الجبال المحيطة بالرحالة في الإرتفاع أكثر وأكثر.

في الخامس والعشرين من يناير وصلت البعثة أخيرًا إلي البئر : « لم تكن المياه في البئر سيئه كثيرًا، وعلي الرغم من إنبعاث الروائح ولونها المائل للخضار، إلا أنها كانت صالحة للشرب»، كما ذكر إيفان تروفيموفيتش. كان فريق ي. ب. كافاليفسكي راضيًا تمامًا عن تلك المياه بعد تلك الرحلة الشاقة. ومع إرهاقه من مسيرة الصحراء، أثار اهتمام إيفان تروفيموفيتش مقاييس هذا البئر. وأوضح أن عمق البئر كان يبلغ ثلاثة أرشين (71 سنتمتر. تعليق المترجم) ونصف. وتم حفر البئر في وهدة تمتد بين الجبال بطول سبع فرستا (1060 متر. تعليق المترجم) . كما انكشف منظر طبيعي للصحراء في الجوار. ومن وقت لآخر يمكنك رؤية أشجار (الميموزا). عند رؤية هذه الصورة تداعت الأفكار الطريفة في رأس إيفان تروفيموفيتش : « كما لو كانت الأشجار مزروعة وقت العيد أمام المنازل في الساحة ». وبين الجبال يمتد وادي نظيف نموذجي – فلا شائبة بالمكان، حيث تزيل رمال الصحراء كل شيء .

بالقرب من البئر تمكن الرحالة الروس من أخذ قسطًا من الراحة من عناء الطريق وروي الجمال. كان خبير التعدين الأورالي مندهشًا أثر تعامله لأول مرة مع تلك

114 - أنظر: ي. ب. كافاليفسكي. حوض النيل... ص. 83.

الحيوانات التي لا غني عنها في الصحراء: «أنها حيوانات صبورة لدرجة أنا تسير خمسة أيام دون شرب ». وفي هذا المكان التقت بعثة ي. ب. كافاليفسكي بقافلة كبيرة، وبها ما يقرب من 80 جمل. اقترب أصحاب القافلة من البئر علي أقدامهم وجمالهم المحملة بالمتاع ، وكانوا يرتدون «قماشاً واحداً»، يتلفحون به دائمًا. وكانوا يتسلحون بسيف «ذو شفرتين» ورمح. وعلي حد وصف بارودين ، فلطالما ظهرت فوائد هذا السلاح في باقي الطريق . فقد نما إلي علمه ، أن القوافل دائمًا ما كانت تتعرض لهجوم قطاع الطرق. مع هذا يشير خبير التعدين الأورالي «أن هذا الأمر لم يحدث معهم ». وبعد الوصول إلي البئر بدأ التجار في التزود بالمياه واستعادة قواهم لباقي رحلتهم.

وكما جرت العادة في الصحراء، كان البئر مصدر حياة المنطقة بأكملها، فدائمًا ما كان الناس يسعون للسكن حوله. ولكن في تلك المناطق كان من الصعب بالطبع توفير الطعام لإعداد كبيرة من الناس. يكتب بارودين : «توجد ثلاثة عرائش بدوية بالقرب من البئر. وعندما دخلت إلي إحداها، كان الأطفال كلهم عراه ولم أري عليهم أي ملابس... لم أري من قطيعهم سوي ما يقرب من خمسة ماعز نحيلة ولا يظهر منها تقريبًا سوي العظام ، ولا توجد أعشاب لتقتات منها »[115]. وقد أثار اندهاش خبير التعدين الأورالي مجرد حقيقة وجود حياة في هذا المكان وسط الصحراء النوبية. ولهذا سأل خبير التعدين مترجمه، علي ماذا يقتات هؤلاء الناس. أجابه المترجم : « يقتاتون من عطاءات القوافل المارة ». وخلافًا لهذا، إذا مرض أحد الأشخاص في القافلة (مما يعتبر في تلك الظروف خطرًا مميتًا)، « يستقبله السكان بالقرب من البئر لمداواته ».

استغل أعضاء البعثة وجودهم عند البئر ليكملوا تجاربهم. عندما جرت عملية غسل الرمال، تم اكتشاف أجزاء دقيقة من الذهب، مما يعتبر دليلا بينًا علي توافر مخابئ المعدن النفيس في تلك المنطقة. ولكن كانت مشكلة أعضاء البعثة الروسية تكمن في إدراكهم الجيد أن استغلال تلك المناجم في الصناعة صعبًا جدًا. يقول إيفان بارودين آسفًا: «للأسف لا توجد مياه بالقرب ، ولا يمكن استعمالها لأنها صعبة المنال»[116]. إرتأي بارودين أنه بجانب عدم توافر المياه، فإن نقص الأخشاب والأعشاب وقف حائلاً دون تطوير صناعة استخراج الذهب في تلك المنطقة . فلا تبدو علي المنطقة «أي مظهر من مظاهر الحياة». كان خبير التعدين الأورالي يدرك

115 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة .15.

116 - نفس المرجع. ورقة 15.

أن غياب مصادر المياه، ووسائل المواصلات البدائية أدت إلي بقاء الذهب، الذي كان من الممكن أن يكون مصدر ثراء محمد علي، مجرد «كنزًا مخبأ تحت الأرض».

عادت قافلة "ي. ب. كافاليفسكي" إلي طريقها مرة أخري. وفي طريقهم رأوا شواهد غدر الصحراء النوبية الشاسعة، وكيف أنها تعاقب بقسوة كل من يتهاون في تقدير قوتها، أو من تباغته السموم علي حين غرة أو من ينضب مخزون الماء والطعام لديه. شاهد الرحالة الروس على طول الطريق نماذج محزنة لضحايا الصحراء . كتب بارودين: « في طريق مرور القوافل تتناثر في كل خطوة تقريبًا عظام الجمال والثيران وقبور لأشخاص لم يتحملوا مصاعب الطريق...»[117]. وتفاقمت مخاوف تلك الصورة بعد تحذير البعض الواردين علي البئر من زيادة متاعب أعضاء البعثة الروسية . كان التجار ، الذين قابلوهم، يخيفونهم من نفوق حوالي نصف جمال قافلة ي. ب. كافاليفسكي بعد اجتياز الصحراء . ولكن، لحسن الحظ، لم ينفق سوي جمل واحد خلال ثلاثة عشر يومًا في الطريق. أثناء مسيرة أعضاء البعثة عبر الصحراء ، كانوا مضطرين لركوب الجمال . كان ي. ب. كافاليفسكي متعودًا منذ فترة علي امتطاء هذا الحيوان، فبعثاته العديدة لم تعطه الفرصة للتعرف جيدًا علي طباع الجمال فقط، ولكن أيضًا للتمييز بين أنواعها. يعترف كافاليفسكي، قائلاً: «في الماضي اعتدت علي ركوب الجمل، وتعاملت معه عن كثب في أفريقيا وآسيا... أنه أمر محبب إلي قلبي! إذا تثني له تتبع رحلاتي السابقة عن كثب ، سيبدو ضروريًا أن أنهي حياتي فوق الجمل »[118]. علي الجانب الآخر، تعامل بارودين بصورة مغايرة تمامًا مع الجمل .

من الواضح أنها المرة الأولي له ولصديقه – عامل غسل الذهب فومين، التي يرا فيها هذا الحيوان. فقط في تلك الحملة كان عليهم امتطاء الجمل والترنح خلف سنامه الكبير أثناء السير في الصحراء. ودائمًا ما كان إيفان تروفيموفيتش يذكر « أن الأمر مخيفًا حينما لا تمتطي هذه الحيوانات». وظل يذكر حادثة طريفة مرتبطة بالجمال ، عندما سقط أحد الأعضاء المنضمين إلي فريق ي. ب. كافاليفسكي، عالم الطبيعة سينكوفسكي من فوق الجمل « وأصيبت مؤخرته »[119]. وسقط بارودين نفسه ذات مرة من فوق الجمل، وأتلف الباروميتر الذي كان يمسكه بيده في تلك اللحظة.

117 - المرجع الأسبق. ورقة 16.
118 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 115.
119 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة .17.

علي كل حال، تعود سينكوفسكي وبارودين بالتدريج علي هذا الحيوان. أدرك إيفان تروفيموفيتش كيفية التعامل مع هذا الوحش، الذي رآه لأول مرة: «يجب امتطائه وهو جالس عندما يرفع مؤخرته. وبمجرد أن تثبت فوقه... احترس حتي لا تسقط مرة أخري علي الأرض». علي الرغم من ضرورة الحفاظ علي تركيزك أثناء ركوب حيوان مثل الجمل، إلا أنه بنهاية الرحلة كان خبير التعدين قد ألم بطباع هذا الوحش : «يمشي الجمل في طريقه، وإذا به يخر علي ركبتيه الخلفيتين دون إكتراث». يُكمل إيفان تروفيموفيتش، قائلاً: «أن السفر بالجمال في مثل هذا المكان تحت الشمس الحارقة يعتبر عذابًا»[120]. اتفق الكثيرون ممن سافروا عبر الصحراء علي هذا الرأي.

في التاسع والعشرين من يناير جاء اليوم الموعود، فقد انتهت مسيرة الأثني عشر يومًا عبر صحراء النوبة الشاسعة . يبدو ي. ب. كافاليفسكي إعجابه لذلك، قائلا: «لا يمكنكم تخيل مقدار سعادتنا عندما وصلنا إلي المياه ! بالتأكيد لا يمكنكم التخيل، إذا لم تمروا بمثل هذا الموقف . في التاسع والعشرين من يناير (10 فبراير) حوالي الساعة الثالثة رأينا في الأفق مياه رقعة زرقاء... أنها نهر النيل»[121]. وصل أعضاء البعثة أخيرًا إلي نهر النيل الشهير، الذي يعرف لدي الرحالة بمذاق مياهه العذب . علي سبيل المثال يذكر أ. أ. رافالوفيتش : «مياه نهر النيل هي أنقي وأفضل مياه ضمن ثلاث أماكن علي وجه الأرض تصادف وجودي بها، باستثناء مياه إحدي الجداول التي تمر عبر مدينة بعلبك في سوريا، والتي، علي ما أعتقد، أفضل». يشير الرحالة الروسي أن مياه النيل عكرة تقريبًا طوال العام بسبب احتوائها علي نسبة كبيرة من شوائب الطمي الحمراء المائلة للإصفرار ؛ فقط في فصل الخريف تصبح المياه أكثر نقاءًا. ولكنها « نقية لحد كبير وطعمها عذب، ومهما شربت منها ، لا تؤدي لأي ألم أو إرهاق في المعدة »[122].

في القرية التالية رغبت البعثة أخيرًا في أخذ قسطًا من الراحة والإرتواء من مياه نهر النيل . ولكن لم تبد الإدارة المحلية نفس النشاط، الذي كان يتمناه مندوبوا محمد علي المرافقين للبعثة. حتي أنهم اضطروا لاستخدام العقاب البدني. قام « المقدم » الملازم لبعثة ي. ب. كافاليفسكي بضرب « محافظ المنطقة » 50 ضربة بالعصي على ظهره لأن الأخير لم يوصل لهم لبنًا صافيًا. وترك ذلك انطباعًا سيئًا في نفس خبير التعدين الأورالي، وأحد سكان الإمبراطورية الروسية الإقطاعية،

120 - نفس المرجع. ورقة. 17.

121 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 109.

122 - أ. أ. رافالوفيتش. رحلة عبر صعيد مصر... ص. 182-181.

والذي، علي ما يبدو، قد تأقلم علي حدوث كل ما يخطر علي البال في مناجم الذهب بمياس. وبالمقارنة بالإجراءات في روسيا إبان حكم الإمبراطور "نيكولاي"، كان الإضطهاد في الشرق في عهد محمد علي رهيبًا من خلال استخدام القسوة بشكل علني وفاضح . فيما بعد يعبر إ. ت. بارودين عن أساه لذلك، قائلاً : «كان رهيبًا رؤية ذلك»[123] .

أكمل أفراد البعثة طريقهم بعدما رووا ظمأهم وقضوا الليل في تلك القرية . ومن هنا بدأوا في رؤية قري صغيرة . فالنيل يقع بالجوار، ولهذا استطاع الناس تدبر قوت يومهم من خلال الإمكانيات ، التي أتاحها لهم نيل أفريقيا العظيم . في تلك الأيام رأي خبير التعدين الأورالي الكثير من الأشياء الممتعة والغريبة، والتي لا تشبه ما رآه في روسيا. وقعت في الثاني من فبراير أحد أبرز الأحداث التي انطبعت في ذاكرته. يذكر خبير التعدين، أنه في هذا اليوم « لدي اقترابهم من إحدي القري رأوا عن بعد بريق سيوف، وظنوا أن الجنود يتدربون علي المبارزة . ولكن عند اقترابهم أكثر سمعوا وقع الدفوف وصوت غناء. تجلس جميع السيدات حول أحد المنازل ، بينما تضرب اثنتان منهن علي الدف والأخريات ينشدن إحدى الأغاني . علي بعد عدة ساجين يجلس الرجال بدورهم في مجموعة بشكل متحفظ وبصمت. ظننا أنه ربما يكون أحد الأعياد، ولم أجد من أسئله عن هذا، فلم يكن هناك مترجمًا. ومرت القافلة أمامهم...

بمجرد أن تناولنا طعام الغداء رأينا حشد من الناس يخرج من القرية باتجاهنا، وبدأنا في تجاذب أطراف الحديث: يبدو أنهم يريدون إضفاء بعض المرح علينا، ولكن بدي الأمر غير ذلك. يسير الشيوخ في المقدمة ويحملون في أيديهم طوب. يسير خلفهم أربعة سيدات ويبكون بحرقة ومن ورائهم شابين شاهري سيوفهم ويزأرون بأعلي صوتهم وتنهمر الدموع علي وجوههم. في الخلف يحملون نعش ميت ويسير ورائه جميع الحشد...»[124].

بعد أن مروا بالنعش أمام أعضاء البعثة، هرول الأعضاء وراء الموكب. فقد أثارهم الفضول لمشاهدة ، كيف تجري مراسم التشييع لدي من قابلوهم من الأفارقة. وبالفعل رأوا مراسمًا مثيرة للإهتمام. فقد وضعوا النعش علي الأرض بالقرب من المقبرة . بدأ الشيوخ في إعداد الطمي من أجل دهن الطوب، بينما صعد الشابان بسيفيهما المشهرين علي جانبي المقبرة « وأخذا يمارسان أشكال مختلفة من

123 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة .17.

124 - نفس المرجع.ورقة 18.

المبارزة بالسيوف». «كانت الزوجات تنوح وهن جالسات علي الأرض ، ويعانقن بعضهن البعض والدموع في أعينهن، ـ علي حد وصف إيفان بارودين . واقترب منهن بعض الرجال ، وربتوا علي كتوفهن لإقناعهن، بالتأكيد، بعدم البكاء. بعد ذلك كونوا حلقة وبدأوا في الغناء ... كان البعض يجري إلي داخل الحلقة ويذر الرمال فوق رأسه و يحركها للوراء بينما تتمايل أجسادهم ». بعد ذلك أنزل الشيوخ النعش داخل المقبرة وبدأوا في وضع الطوب ودهنه بالطمي . لم ينتظر أعضاء البعثة الروسية حتى تنتهي مراسم التشييع ، حيث أن قافلتهم قد تحركت بعيدًا.

تمثل هذه القصة نموذجًا جليًا لإلتقاء حضارتين وثقافتين . فقد شعر خبير صناعات الذهب الروسي بمدي صعوبة فهم أناس ينتمون لثقافة أجنبية. فمن الصعب حدوث ذلك، خاصة في الظروف التي وقعت فيها بعثة ي. ب. كافاليفسكي. فقد كان من بين البعثة مهندس تعدين مؤهل، وخبراء تعدين وعالم طبيعة أيضًا، يبدو أنه لم ينضم ولو متخصصًا واحدًا في ثقافة الشعوب الإفريقية (ولم يكن في روسيا مثل هؤلاء في ذلك الوقت) . ولطالما أشار "إيفان بارودين" في مذكراته إلي مشكلة جهل أعضاء البعثة الروسية باللغات الإفريقية. فمن البديهي أن يشعر أن عدم معرفة اللغات سيساهم في تكوين صورة محدودة عن أفريقيا وشعوبها. والأكثر من ذلك: في مثل تلك الحالات التي طالما وصفناها من قبل ، يمكن لهذا الموقف أن يمثل مشكلة حقيقية ، بل ويمكن أن يشكل خطرًا علي حياة أعضاء البعثة.

سلطنة سنار

بعد تلك الأحداث وصل فريق بعثة ي. ب. كافاليفسكي في اليوم التالي، الثالث من فبراير، أخيرًا إلي منطقة سكانية مكتظة لحد ما ـ مدينة بربر (محارف). وطأت قدم أعضاء البعثة الأرض التي ظلت لوقت طويل مستقلة عن سلطنة سنار. فهي عبارة عن دولة كانت تضم في الماضي أراضي شاسعة من وادي النيل من حدود مصر في الشمال وحتى فاشودا في الجنوب، كما كانت تضم أراضي الجانب الشرقي من النيل حتى شاطئ البحر الأحمر وأثيوبيا، والمناطق الشاسعة المتاخمة للشاطئ الغربي لنهر النيل . في الواقع كانت سنار تستحوذ علي جميع الأراضي بين النيل الأبيض والنيل الأزرق ووادي نهر راحات ونهر الدندرة. كان الفونج (اسم يطلق علي أسرة سلاطين سنار الأولي بين 1821-1504. تعليق المترجم) السكان الأصليين لسلطنة سنار، والذي التقي بهم أعضاء بعثة ي. ب. كافاليفسكي أكثر من مرة. امتدت علي طول وادي النيل ممالك مستقلة عن سنار، ومن بينها دو نجل وشا يجي وشندي وغيرها بجانب مملكة بربر.

ولكن في اللحظة، التي وصل فيها إيفان بارودين ورفقائه إلي تلك المنطقة ، كانت أيام ازدهار سنار قد ولت. تعرضت مدن السلطنة للإنهيار أثناء حملة القوات المصرية التي بدأت عام 1820 وعلي رأسها إسماعيل – ابن محمد علي. كان الجيش المصري يتكون من 600 جندي مشاه تركي وعدة كتائب من سلاح الفرسان التركي و800 بدوي وسكان من صعيد مصر وقوات مختلطة من البربر والأفارقة الذين تم استجلابهم من وسط أفريقيا. كان جيش إسماعيل بك يتكون من جنسيات عديدة من الألبان وسلافي الجنوب والأكراد والمهاجرين من القوقاز. يشير المؤرخ السوفييتي "س. ر. سميرنوف" أنه بالإضافة إلي ذلك، فقد تم تدعيم الجيش المصري « بوحدات من المدفعية تحت قيادة ضباط أمريكيين »[125]. إذا كان الجيش المصري يملك وقتها كثير من الأسلحة النارية ، فإن الجيش السوداني كان يملك قطع منها فقط .

مع ذلك حاولت قبائل شا يجي تنظيم مقاومة شرسة، ولكنهم هُزموا في المعارك بالقرب من كورتي (في نوفمبر عام 1820) وبالقرب من جبل دايكا (في ديسمبر عام 1820). بعد أن دخلت القوات المصرية إلي واد ـ مدني، استسلم سلطان سنار بادي الخامس أمام إسماعيل باشا. وفي الخامس من مارس عام 1821 احتلت مدينة بربر، وبعد أسبوع، في الثاني عشر من مارس جاء الدور علي مدينة شندي. وفي الرابع عشر من يونيو عام 1821 دخلت القوات المصرية إلي عاصمة السلطنة – سنار. كانت الغزوات التي قام بها حاكم مصر زائعة الصيت في أوروبا، حيث جلبت له المجد باعتباره إمبراطورًا. حتى "ن. ن. مورافيف كارسكي" الذي كان معارضًا لمحمد علي، كتب فيما بعد: «كان خضوع البدو، الذين دعموا سلطة محمد علي في الصحراء العربية، بالإضافة إلي الحملة التي قام بها في عمق أفريقيا لغزو النوبة ودارفور ودو نجل وسنار ، الفضل في إضفاء بريقًا جديدًا علي سلاحه، بل وساهمت في القضاء علي فلول المماليك المختبئة في النوبة »[126].

مع هذا لم يكن لدى السودانيون النية في إلقاء السلاح، أو الخضوع لمصر. وفي خريف عام 1822 اندلعت ثورات علي أراضي سنار. لقي إسماعيل بك حتفه علي يد الثوار في شندي أثناء عودته إلي مصر. في نفس الوقت وقعت القوات المرابضة في بربر تحت الحصار. اجتاحت الثورة الجزء الأكبر من البلاد، وطَردت القوات المصرية خارج مدن عديدة على نهر النيل.

---

125 - س. ر. سميرنوف. تاريخ السودان (1956-1821). موسكو، 1968. ص. 30.

126 - ن. ن. مورافيف (كارسكي). المرجع الأسبق. ص. 24.

في ذلك الوقت بدأت حملة إنتقامية وعلي رأسها صهر محمد علي. نتيجة لذلك احترقت مدينة شندي ، وبعد مرور عدة سنوات قضي علي ما يقرب من 50 ألف مواطن من سلطنة سنار. نتيجة لتلك الثورة تعرض نظام إدارة الأراضي في سنار للتغيير. فقد ترأس تلك الإدارة حاكم مصر – الحكمدار. كانت البلد مقسمة إلي محافظات (خرطوم وبربر وفازوغلي وغيرها) . وعلي رأس كل محافظة يوجد مدير. كان القانون التركي في الأحوال المدنية والجنائية يسري علي أراضي السودان. وقبل وصول بعثة ي. ب. كافاليفسكي إلي السودان بعدة سنوات، في عام 1845 عَرفت وظيفة قاضي القضاه في جميع أنحاء البلاد. وفي حالة الإستئناف يمكن للمدعي التوجه إلي محكمة خرطوم التابعة للمحكمة العليا في مصر.

هكذا بدت السودان أثناء تواجد بعثة ي. ب. كافاليفسكي علي أراضيها.

بربر

كما أشرنا سابقًا، فإن مدينة بربر أولي المدن الكبرى، التي رآها إيفان بارودين ورفقائه. أشار ي. ب. كافاليفسكي في وصف تلك المدينة أن بربر- « مدينة علي نحو المدن ، التي كنا نراها كثيرًا في مصر، والتي لا يوجد الكثير ليقال عنها ؛ مع هذا تملك طابعًا مميزًا: مباني التوكول (نوع من المباني في السودان. تعليق المترجم)، ومنازل صغيرة مستديرة من الخوص، تثير البهجة من الخارج، وتتميز بأسقفها»[127]. لم تنطبع في ذاكرة إيفان بارودين أي شيء مميز عن المدينة. ويذكر الأخير أن بربر، علي الرغم أنها «ليست جميلة في الشكل المعماري »، إلا أنها تتمتع بخاصية رائعة : «حيث يوجد بها الكثير من الحدائق الغنية بثمارها المتنوعة »[128]. بعد مسيرة طويلة بعيدًا عن المناطق السكنية توقف أعضاء حملة ي. ب. كافاليفسكي في سوق المنطقة لشراء بعض البطيخ . وما أثار اندهاش بارودين هو حجم البطيخ: «البطيخ كبير الحجم لدرجة أنك لا تستطيع حمل أثنين سويًا». استلذ إيفان تروفيموفيتش ورفقائه من طعم البطيخ. وخلافًا للبطيخ رأي أفراد البعثة العديد من الثمار الغريبة الأخرى. وما لفت انتباههم ، أن معظم سكان المنطقة من السود. ظهرت أفريقيا السوداء الشهيرة، التي لم يرها أي شخص من سكان الأورال الأصليين من قبل.

127 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 117.

128 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 19.

بعد قضاء اليوم في بربر، ركب الرحالة المركب وبدأوا في الإبحار بإتجاه أعالي نهر النيل.

شندي

وصل أعضاء بعثة ي. ب. كافاليفسكي إلي مدينة شندي في السادس من فبراير. بعد كارثة عام 1822 لم تشهد مدينة شندي استقرارًا بعد حملة التنكيل التي قام بها صهر محمد علي. في نهاية الأربعينيات بلغ تعداد سكان المدينة ما يقرب من 4 آلاف مواطن. وربما لهذا السبب لم تقض بعثة ي. ب. كافاليفسكي في المدينة سوى ما يزيد علي ثلاثة ساعات بقليل. قضي أعضاء البعثة معظم الوقت في زيارة سليمان باشا – الجنرال الإقطاعي ومحافظ شرق السودان . وصل سليمان باشا بنفسه إلي مكان لقاء البعثة الروسية علي متن المركب وبصحبته عدد من الموظفين. إنه شخص تركي راشد بشوش ومرح جدًا. وبعد زيارة المركب أخذ علي عاتقه التنظيم لاستقبال أعضاء البعثة في مقره . أخذ سليمان باشا والرحالة الروس يدخنون الغليون ويشربون القهوة و يجرون حوارًا هادئًا. تعتبر هذه الرفقة أفضل راحة لإفراد البعثة بعد رحلة شاقة للغاية. ولهذا ليس مدهشًا أن تظل لدي بارودين و ي. ب. كافاليفسكي إنطباعات طيبة للغاية من هذه الزيارة.

وفيما يتعلق بمدينة شندي تحديدًا، فإن معظم المنازل ، كما ذكر بارودين ، كانت مغطاة بأسقف من القش[129]. وكانت العديد من قطعان الحيوانات المتوحشة ترعى في المروج المجاورة، وتحلق فوق النيل أنواع مختلفة من الطيور . ركز إيفان تروفيموفيتش الاهتمام على مدى تطور الزراعة في تلك المنطقة، حيث الطقس أفضل من الأماكن الصحراوية ، التي مر عليها أعضاء البعثة سابقًا. يشير الأخير «أن المروج مزروعة بكثير من محاصيل القمح والخضروات »[130]. علي كل حال، كان الطقس حارًا جدًا في تلك المنطقة ، لدرجة أن البقاء علي سطح المركب أثناء التوقف غير ممكن عمليًا. وعند الجلوس كان الجو خانقًا لدرجة أنهم كانوا مضطرين لسكب المياه على حوائط المركب أثناء توقفها.

ولكن لم تستمر فترة الراحة طويلاً. فالمحطة التالية للروس هي الخرطوم. من الملاحظ أن أعضاء البعثة الروسية قد غيروا وجهة نظرهم جذريًا عن النهر الإفريقي

129 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 19.

130 - نفس المرجع. ورقة 19.

العظيم أثناء تحركهم عبر نهر النيل . نما إلي علم ي. ب. كافاليفسكي أن جومبولت وعدد من علماء الجغرافيا الأوروبيين الآخرين قد أشاروا إلي وجود نهر عطبرة ، الذي يصب في النيل علي الجانب الشرقي، علي بعد عدة مئات فرستا جنوب الخرطوم. مع هذا يعلن رئيس البعثة في مقالته علي صفحات «مجلة التعدين»: «تمكنت اليوم من اكتشاف نهر آخر يصب في النيل من الجانب الغربي، يطلق العرب عليه عبود؛ يشق طريقه عبر صحراء النوبة الصغرى ويصب في نهر النيل في جنوب ميراوي »[131]. من الملاحظ أن إيفان بارودين قد أشار أيضًا في مذكراته إلي نجاح البعثة في تأكيد هذه الحقيقة[132]، ولكنه لم يول إهتمامًا كبيرًا بهذا الإكتشاف، مع عدم علمه باكتشاف جومبولت، علي عكس رئيسه .

الخرطوم

تركت الخرطوم ، حيث وصل أعضاء البعثة في التاسع من فبراير، انطباعًا مهيبًا جدًا علي نفس رحالة خبير مثل ي. ب. كافاليفسكي: فقد بدت له المدينة، بعد زيارة القاهرة والإسكندرية، «واحدة من أفضل مدن مصر ». يذكر مساعد رئيس منطقة تعدين زلاتوؤست: «أن المنازل موزعة بشكل فني رائع ومحاطة بالحدائق ، والتي ليس من الضروري إيلائها عناية خاصة : فهي تنمو بفضل الطقس الرائع والأمطار دائمة السقوط؛ الشوارع نظيفة ومساحة الميادين شاسعة »[133]. من المدهش أن صديقه في الرحلة- إيفان بارودين قام بوصف الخرطوم ، مستخدمًا نفس العبارات ، دون إتفاق مسبق مع رئيسه. فقد بدت له الخرطوم «الأفضل في البناء المعماري، إذا ما قورنت بسائر مدن هذا البلد». بعد مسيرة تسعة أيام في صحراء النوبة وبعد رؤية مدينتي بربر وشندي المحطمتين علي يد قوات محمد علي ، خلف الفن المعماري بخرطوم وحقيقة أن جميع مباني المدينة بشكل رئيسي من الحجارة انطباعًا خاصًا في نفس خبير التعدين الأورالي .

مع هذا لم تثر «أحد أفضل مدن إفريقيا» إعجاب أ. ي. بريم والذي، كان متواجدًا في الخرطوم في الأربعينيات ، علي حد علمنا. ويصف الأخير عاصمة السودان الحالية بشكل مختلف تمامًا: «قبل الوصول إلي المدينة ، تصادف في الطريق رؤية

131 - ي. ب. كافاليفسكي. حوض النيل... ص. 80.

132 الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة .20.

133 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 126.

جيفة متربة وعفنة، وتري قاذورات أخري عند عبور الميدان والجسر المبني لحماية المنازل من فيضان النهر. يؤدي هذا الطريق إلي الشارع الرئيسي في الخرطوم ، الذي يقطع المدينة من الغرب إلي الشرق؛ من الممكن الوصول إلي السوق من خلال هذا الطريق » . في ذلك السياق يؤكد عالم الطبيعة الألماني ، أن جميع شوارع المدينة تبدو علي هذه الشاكلة : « في أوقات العام ، حيث الطقس جافا تبدو الشوارع الرملية مليئة بالأتربة؛ بينما تبدو أثناء تساقط الأمطار برك وأكوام من الوحل . ولكن ما لا يمكن تخيله درجة الحرارة المرتفعة والرائحة النتنة المنتشرة بها في جميع أوقات العام»[134].

كما هو الحال بالنسبه لي. ب. كافاليفسكي، انطبعت في ذاكرة بارودين صورة مختلفة . فقد أشار إلي وجود « عدد وافر من الحدائق » في الخرطوم . وكان البرتقال من بين فواكه تلك الحدائق ، التي أثارت اهتمامه ، بل كانت مدعاه للمقارنة من جانب خبير التعدين الأورالي، الذي طاف ممالك الدوناي والقسطنطينية ورودوس ومصر. وبعد أن تذوق فواكه الخرطوم، أشار في كتاباته، أن البرتقال في تلك المنطقة « علي الرغم من حجمه الصغير ولونه الأخضر ، إلا أنه يُخرج عصير أكثر بمرتين من برتقال قبرص »[135].

وبالطبع لم يكن الشغل الشاغل لأعضاء بعثتي. ب. كافاليفسكي في الخرطوم تذوق البرتقال المحلي فقط . بمجرد مغادرتهم الصحراء سقطوا في شبكة من التناقضات السياسية المتشابكة . كانت عاصمة السودان المستقبلية ، التي تُعد مركزًا دينيًا كبيرًا ، مقصدًا لعديد من القوي . كانت الكنيسة الكاثولوكية تحاول القيام بلعبة سياسية محسوبة . فالحديث الذي ورد في مذكرات بارودين مع ممثلي هذه الكنيسة يدل علي عدم الخبرة والسذاجة: «التقينا بالوفد، الذي أرسله البابا من أجل الترويج لبناء كنيسة في أثيوبيا... دخلنا إلي أسقف مريض في حديقة، يوجد بها منزل صغير، وتنمو حوله شجرة عنب، وبالقرب من الباب توجد أشجار ليمون وبرتقال ورمان وموز، وكذلك أشجار نخيل، تتدلي منها ثمار البلح »[136]. بعد لقاء الأسقف المصري لم يتذكر خبير التعدين الأورالي في منزله سوي أسد مروض. هذا الوحش الصغير كان متعودًا علي الناس، وسمح لهم بإطعامه ومداعبته بأيديهم ...

134 - أ. أي. بريم. المرجع الأسبق. ص. 148.
135 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 20.
136 - نفس المرجع. ورقة 19.

بالطبع قام ي. ب. كافاليفسكي بذكر نفس الموقف بشكل مختلف تمامًا. بالنسبة لموظف تعدين محنك من المدهش تمامًا قيام الكنيسة الكاثولوكية في السودان بعمل ترويجي في مثل هذا الموقف . فمن المفترض أن عمل بعثة ي. ب. كافاليفسكي « سياسيًا تجاريًا ، أكثر منه دينيًا »[137]. ولهذا كان يتعامل بتوجس مع الأسقف ريللو الشاحب الهزيل ، والذي كان يخطط لإرسال مجموعة من المبشرين مع بعثة ي. ب. كافاليفسكي إلي فازوغلي .

واد مدني

بعد عبور مدينة الخرطوم ، كما يذكر إيفان بارودين ، « يتفرق النيل إلي فرعين ذو أسمين مختلفين، الأبيض والأزرق ». بعد قضاء ثلاثة أيام في عاصمة السودان المستقبلية ، بدأت البعثة الروسية الإبحار إلي المحطة التالية عبر النيل الأزرق. مر الرحالة في طريقهم بمدينة واد مدني (وَدْ مَدَنِي مدينة تقع في وسط السودان على ارتفاع 409 متر فوق سطح البحر. تعليق المترجم)

حيث توقفوا لمدة قصيرة – نصف يوم. كانت المدينة صغيرة، ولم تكن لتترك إي انطباع خاص في نفس الرحالة . علي سبيل المثال، لم يذكر أ. أي. بريم عن تلك المدينة سوي أنها كانت تتكون في الأساس من تخشيبات طينية ، يطلقون عليها السكان المحليون تاناكا[138]. مع هذا ظهر في الجوار الوجه الحقيقي لقارة أفريقيا أمام أعين الرحالة الروس علي شاطئ نهر النيل. لكم أثارت مخيلة أعضاء بعثة ي. ب. كافاليفسكي تنوع أشكال نباتات وحيوانات المنطقة ، وخاصة بعد المشهد الرتيب أسفل مجري نهر النيل والملل الفظيع في صحراء النوبة الشاسعة . حتي رحالة علي قدر من الحنكة مثل رئيس البعثة لم يستطع الوقوف صامتًا أمام هذا المشهد: «يا لجمال الطبيعة ! ما أغرب هذا التناقض العجيب مع مصر! »[139]

ابحرت بعثة ي. ب. كافاليفسكي ثمانية أيام من الخرطوم عبر النيل الأزرق. في العشرين من فبراير جنحت المركب في المياه الضحلة، واضطروا للنزول إلي الشاطئ والسير « بقطعة حديد صغيرة » علي أقدامهم حتي مدينة سنار . وقبل الوصول إلي مدينة سنار بقليل رأي الرحالة الروس في تلك المنطقة وفرة من النباتات لأول مرة بعد الراحة الطويلة. في البداية، علي حد ذكر إيفان تروفيموفيتش، ظهرت أشجار ميموز

137 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 128.

138 - أنظر: أ. أي. بريم. المرجع الأسبق. ص. 537.

139 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 133.

قصيرة ومن بعدها أشجار السنط والنخيل. قام خبير التعدين الأورالي بتقييم شجر النخيل من وجهة نظر عملية، مشيرًا أنها شجرة عالية، ولكنها «ضعيفة ولا تصلح للبناء ». ورأي أيضًا أشجار الجميز، التي تنمو عليها ثمار «التين». كما انطبعت في ذاكرته «أشجار الرمان» وهي عبارة عن «شجيرات تتدلي منها ثمار رمان ذات طعم لذيذ». وتصادف رؤية أشجار «الشزندرة» بسيقان «ملتوية» غير سميكة . وبنفس الشكل تقريبًا بدت له «أشجار البرتقال». رأي خبير التعدين الأورالي شجرة موز بأوراقها العريضة وطولها المتوسط . حاذ مذاق ثمار الموز علي إعجاب إيفان تروفيموفيتش . «أكبر» الأشجار التي رآها بارودين هي الباوباب الأصبعي (الاسم العلمي: التبلدي الأصبعي. تعليق المترجم) بثماره التي تستخدم، علي حد قول الخبير الأورالي، في إعداد «شراب الليمون». يذكر بارودين، أن «لهذا الشراب مذاق رائع»[140].

سنار

سرعان ما وصلت البعثة إلي سنار – عاصمة سلطنة السودان القديمة. في وقت ما كان مدينة كبيرة، وبنهاية القرن السابع عشر بلغ عدد سكانها 100 ألف شخص. يبدو أن هذه المدينة كانت تحتل المركز الثاني في أفريقيا من حيث أعداد السكان بعد القاهرة آنذاك. كانت الغالبية العظمي من المنازل في المدينة من الطوب الأحمر، وواقفة تحت أشعة الشمس الحارقة. يشير المؤرخ السوفييتي الشهير "س. ر. سميرنوف" في وصف فترة إزدهار مدينة سنار: «تذكرنا المنازل الطينية في وسط المدينة بالأسقف المستقيمة والفناء الداخلي، التي يتملكها النخبة الإقطاعية ، ورجال الدين المسلمين والتجار البارزين، من ناحية الشكل والتخطيط تذكرنا بمنازل المصريين . يعيش فقراء المدينة والحرفيون في ضواحي المدينة داخل أكواخ من الخوص المغطي بالطين؛ بينما تتمتع الأسقف المصنوعة من القش بشكل مخروطي»[141]. قلت أعداد المنازل ذات الطوابق المتعددة في سنار، بينما تميز المسجد وقصر السلطان ذو الست طوابق بمساحاته الشاسعة . وشهد سوقا المدينة الرئيسان رواجًا في تجارة الأحصنة وسن الفيل والأبل والخضروات والفواكه وغيرها. وفي هذا المكان كان التجار المصريون والأتراك يحصلون علي أعداد كبيرة من العبيد، الذين كانوا يتوجهون إلي الهند ومصر وبلاد الشرق الأوسط وغيرها.

140 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة .34.

141 - س. ر. سميرنوف. تاريخ السودان. ص. 13.

يطلق إيفان بارودين علي سنار «عاصمة السودان » . استخدام هذا الوصف في ذلك الوقت كان رهنًا لحالة المدينة قديمًا. فالغزوات الخارجية ودخول السودان ضمن إمبراطورية محمد علي كان له بالغ الأثر علي وضع مدينة سنار . كما أشار ي. ب. كافاليفسكي : «منذ أن قام الأتراك بنقل إدارة الأراضي الرئيسية» إلي الخرطوم، أصبحت سنار «خاوية» [142]: لحظة وصول البعثة الروسية كان عدد سكانها يبلغ 5 آلاف شخص .

خلفت مدينة سنار في تلك السنوات انطباعًا كئيبًا جدًا علي نفس أ. أي. بريم. ذكر عالم الطبيعة الألماني في كتاباته أن العاصمة السابقة للسلطنة أقل نظافة من ود مدني، وبدل من السوق الشرقي المعروف لا يوجد سوي «عدة دكاكين صغيرة متواضعة»، حيث يبتاعون المنتجات اللازمة لاستهلاك الأتراك اليومي»[143]. مع هذا كانوا يقيمون بالمدينة سوق كبير مرتين في الأسبوع ويتوافد عليه سكان الضواحي المجاورة، بعضهم يصل علي قدميه والآخر علي حمار أو جمل. لم يكن الليل في سنار يشهد أي مظاهر للبهجة، فبحلول منتصف الليل تبدأ الضباع في السعي بشوارع المدينة .

علي أية حال التقي خبراء التعدين الروس مع ممثلي الإدارة المحلية في سنار. يذكر بارودين، أنهم مروا علي منزل «حاكم البلاد» إبراهيم باشا في سنار، كما تحدث عن نشوب ثورة ضد مصر في العشرينيات، ولهذا كان الوضع مضطربة بشكل عام في إحدى مناطق نفوذ محمد علي البعيدة. ولهذا ليس غريبًا أن يبدو المنزل، الذي نزل فيه الروس كالحصن : «يحاط المنزل من جميع الجهات بحوائط، ويوجد جنود علي كلا جانبي الغرفة، حيث يعيش الحراس... وعلي الجانب الأيسر من الفناء وضعوا مدافع»[144]. من المدهش أن الإدارة المحلية كانت متخوفة من خطر غزوات الشعوب الثائرة ، التي تعيش في منطقة سنار.

بدي متاع المنزل الداخلي متواضعًا تمامًا. ولم يلحظ أعضاء البعثة الروسية أي شكل من أشكال الزينة هناك، بل وجدوا فقط قدران فخاريان بهما ماء . وقاموا بإعداد وجبة الغداء للضيوف الأجانب داخل «حانة » . ومع هذا قام الضيوف بزيارة سنار في غياب الحاكم : فقد غادر إبراهيم باشا البلاد في سفرية .

142 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 136.

143 - أ. أي. بريم. المرجع الأسبق. ص. 540.

144 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 20.

بعض قضاء بعض الوقت في مدينة سنار أكملت البعثة طريقها. كلما ابتعد الرحالة الروس عن أرض الوطن أكثر وأكثر، كلما شعروا بحنين كبير إلي الماضي ، لا سيما إذ صادفهم ما يذكرهم بروسيا. وقعت إحدي تلك المواقف في نهاية شهر يناير. ويمكن وصف ذكريات إيفان تروفيموفيتش عن هذا الموقف بالعاطفية علي نحو خاص : «ظل مبعوثونا يشعرون بقلق طوال الليل ، ومع نيتهم العودة إلينا في أوروبا، كانوا يصدرون صرخات رهيبة فوق الرمال ، تشبه أصوات البط، أو الكركي ، أو الأوز... لقد كانت لديهم النية للعودة... بسبب درجة حرارة المكان العالية لم يكن باستطاعتهم الإستمرار أكثر من ذلك »[145]. فلربما نمت الرغبة لدي خبير التعدين الأورالي في التحليق خلف الطيور المتجهة إلي روسيا، لرؤية جبال زلاتوؤست ومناجم مياس بأقصي سرعة !

ولكن كان أعضاء البعثة الروسية مضطرين للاستمرار في طريقهم عبر أراضي شمال شرق أفريقيا الشاسعة. بدأت مشاهد الطبيعة بالتغير أمام أعينهم تدريجيًا . بدأت رقعة الأعشاب بالظهور في المروج، كما ازدادت أعداد الأشجار. أبرز ما أثارته شكل الحديقة في نفس إيفان تروفيموفيتش هي ذكرياته عن روسيا، بما أن أوراق الأشجار، علي حد وصفه، كانت خضراء يانعة، «مثل التي في وطنه»، «ولكنها مصفرة بعض الشيء بفعل الأتربة »[146]. يعتقد خبير التعدين الأورالي أن لهذا الأمر علاقة « بعدم تساقط المطر لغسل النباتات ، علي الرغم أن السكان يروون الأرض بعد ذلك حتى الجذور ». ولهذا يري بارودين أن طبيعة أفريقيا « ليست نوذجًا للجمال ».

روصيرص

في الثامن والعشرين من شهر فبراير بلغ أعضاء البعثة الروسية منطقة سكنية. إنها روصيرص (مدينة تقع في ولاية النيل الأزرق بالسودان على الضفة الشرقية لنهر النيل الأزرق بارتفاع 467 متر (1532 قدم) فوق سطح البحر. تعليق المترجم) – عاصمة مقاطعة فازوغلي ، حيث منطقة استخراج الذهب . إذا كان بارودين قد أطلق علي هذا المكان «مدينة »، كما كان يطلق معظم من قابلهم في الطريق ، فإن رئيسه كان يصفها مباشرة «بالقرية». علي الجانب الآخر رأي "أ.

145 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة .20.

146 - نفس المرجع. ورقة. 34.

اي. بيرم" أنه من الصعوبة أن تسمي «مدينة». وكما هو الحال بالنسبة للمناطق السكنية الأخرى في السودان ، وبشكل عام تركت عاصمة مقاطعة فازوغلي انطباعًا كئيبًا في نفس عالم الطبيعة الألماني ، الذي يكتب عن روصيرص : «أنها بلا حياة وتسودها الكآبة»[147].

بلغ عدد سكان القرية ما يقرب من ثلاثة آلاف مواطن (كانت النسبة الأكبر منهم من السود) . تقع مدينة روصيرص بالقرب من الضفة الشرقية للنيل الأزرق، وتفصلها عن النهر غابة كبيرة من النخيل، بينما تحيط بها سهول السافانا من الجوانب الثلاث الأخرى. لم تكن مياه الشرب متوافرة في عاصمة مقاطعة فازوغلي، ولهذا بالإمكان رؤية حشد من السيدات كل ليلة وهي تقود الحمير المحملة بالماء . اكتسي المكان كله بألوان طبيعة إفريقيا الإستوائية . كان مقر مدير مقاطعة فازوغلي متواجدًا في مدينة روصيرص الصغيرة. والمدهش، وفقًا لشهادة إيفان بارودين، أن « الحاكم » في روصيرص «من بشكير كازان»[148]، الذي أخبر مواطنيه في الماضي، أنه ولد علي نهر الفولجا، إلا أن القدر ألقي به في شمال شرق أفريقيا. وبالطبع، ظل اللقاء مع المواطن الكازاني في ذاكرة إيفان بارودين لمدة طويلة، فلم يكن يتوقع أن يري مواطنه في هذا المكان بعيدًا عن أرض الوطن.

اللقاء مع الصديق العربي

بعد عدة أيام كان بانتظار البعثة لقاءًا لا يقل غرابة، بل وربما أكثر سعادة. في الثاني من مارس علي مسيرة ثلاثة أيام من جبال كاسان - المكان المحدد لعمل البعثة الروسية ـ قابلهم في الطريق المهندس عيسى الدهشوري، الذي كان "ي. ب. كافاليفسكي" يجوب معه مصانع التعدين بالأورال لعدة أشهر . في ظل ذكرياته عن تلك الأوقات ، التي طاف فيها مع "الدهشوري" وصديقه "علي محمد إبراهيم" معظم مناطق الأورال ، اعترف ي. ب. كافاليفسكي، قائلاً: «لم أكن أتوقع حينها أن أتقابل معهم في كاسان!» .

لحظة وصول البعثة الروسية إلي كاسان لم تكن الأمور تسير بشكل جيد لدي المتدربين السابقين في ورش الذهب في بيروزوف ومياس . فلم يتوصلوا إلي الأهداف التي وضعها لهم محمد علي . عن هذا الأمريكتب "ي. ب. كافاليفسكي"

147 - أنظر: أ. أي. بريم. المرجع الأسبق. ص. 554.

148 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة .21.

بمزيج من الألم والتعاطف : «مع عدم توافر التطبيقات اللازمة للعمل، كان المتدربون يشعرون بيأس، بعد تعرضهم لضغوط من قبل حاكم المنطقة وإجبارهم باستمرار من قبل محمد علي . ولهذا شعروا بسعادة حقيقية عند وصولنا، الذي أزاح بالمسئولية عن كاهلهم ». في الواقع ظل الشخص الخبير والمؤهل مثل مساعد رئيس منطقة تعدين زلاتوؤست يقود العمل علي بناء الورشة آنذاك. استطاع الدهشوري وعلي محمد أخذ قسط من الراحة ولو لبعض الوقت. من المهم في هذا، أن عبء المسئولية قد أثر سلبًا علي صحة أصدقاء ي. ب. كافاليفسكي المصريين : علي الرغم من تأقلمهم علي طقس أفريقيا، إلا أنهم ، علي ما يبدو، بدأوا يشعرون بأثره الضار. يذكر رئيس البعثة الروسية في كتاباته أن « الدهشوري المسكين» « قد دفع ثـمن تعرضه لأضرار للطقس، ومنذ أن وصل إلي السودان تعرض للمرض باستمرار»[149].

بعد لقاء "الدهشوري" لم يبق علي الوصول إلي جبال كاسان سوي ثلاثة أيام . ولكن في المحطة الأخيرة من هذه الرحلة الطويلة وقعت حادثة أخرى مدهشة ، لازال يتذكرها بارودين . « توقفنا في الطريق لتناول الغداء. نزل إلينا من فوق الجبال أربعة زنوج مسلحين بحراب و يحملون خنزيرًا بريًا مرقطًا كهدية. عبر المقدم لهم عن إمتنانه ، ولكنه لم يقبل الهدية لعدم تمكنه من طهيها، فجميع الطباخين مسلمون»[150]. يمكنك تخيل مدي صعوبة رفض رئيس البعثة وأصدقائه، الذين اجتازوا العديد من المحن، تذوق خنزير بري مشوي، أحضره إليهم السكان المحليون كهدية !

لا يزال بانتظار البعثة أيام وليالي علي هذا الطريق . وكما كان في السابق ، من الضروري اتخاذ تدابير الحيطة اللازمة في أفريقيا. كان إيفان تروفيموفيتش معتادًا بالطبع علي «عدم وضع أي شيء علي الأرض في مكان مبيتهم. بل يجب وضعها فوق حجارة أو شجرة بسبب النمل الأبيض»[151]. مع هذا لم يتخل بارودين وصديقه – خبير صناعات الذهب الأورالي الآخر – عن التفاؤل وضبط النفس. فقد كانوا يحاولون اجتياز تلك الرحلة الطويلة والصعبة دون أي مشاكل مثل أي عمل صعب آخر قاموا بتنفيذه في مناجم الذهب بمياس. ويبدو المثال علي هذا الأمر

149 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 155.

150 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة .21.

151 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة .21.

جليًا. يذكر رئيس البعثة كيف سأل بارودين شريكه أثناء وصوله إلي مكان التنقيب في جبال كاسان :

«ـ إلي أي مدي سينقلوننا أبعد من هذا يا إيفان؟»
«ـ لن يكون أبعد من الشمس، ـ رد فومين بلا مبالاه، وهو يتثائب مستلقيًا تحت الشمس الساطعة»[152].

بناء الورشة

وصلت بعثة ي. ب. كافاليفسكي في الرابع من مارس أخيرًا إلي مقصدها. ولم يكن اختيار مكان بناء ورشة غسل الذهب مصادفة. بالقرب من المعسكر يجري نهر تومات (توميل. تعليق المترجم) ـ المجري الغربي للنيل الأزرق (كان بارودين يطلق عليه اسم «توماكو»). وبعد أن رأي النهر، سرعان ما تذكر "ي. ب. كافاليفسكي" مياس علي جبال زلاتؤوست ، بما أن ـ مثل مناجم الأورال ـ رواسب الذهب تقبع في الأساس داخل حوض من الأنهار، «وعبر المروج والأنهار الصغيرة التي تصب فيه مع التيار من الإتجاه الغربي »[153]. وكما حدث في الأورال وألتاي كانت طبقات «الصخور الخضراء » بالنسبة لعالم الجيولوجيا دليلاً دامغًا علي توافر مخابئ الذهب في هذا المكان . وكما كان يشير رئيس البعثة، فإن «صفيحة الجبال الرئيسة» في وسط أفريقيا تتكون من صخور الكلوريت والتلك ، التي «تخرج من خلالها صخور البلور والسيانيت ». علي كل حال، كان من الصعب أن نطلق علي تومات نهرًا في معظم أوقات العام . فقد كان درجة الحرارة في شمال السودان كفيلة بتجفيف مجراه بحيث يصبح من النادر إحتوائه علي الماء . « يذكر إيفان بارودين ، أنه لم ير سوي الرمال بدل من المياه، فالمياه تتوافر فقط عند سقوط الأمطار ».

خلف معسكر العاملين علي بناء ورشة غسل الذهب الموجود في كاسان انطباعًا مدهشًا علي نفس خبير التعدين الأورالي . وبالطبع كان لطقس السودان أثره في ذلك الأمر ، ولهذا ، إذا كان من الضروري علي إدارة منطقة تعدين زلاتؤوست الإعتناء بتدفئة منازل مهندسي التعدين ، كما أشرنا سابقًا، فقد غابت مثل تلك المشاكل هنا : «فالبعض يعيش في خيام من قماش الأشرعة ، و البعض الآخر يعيش في أكواخ من القش . أنها القوات، أي الجنود . بينما يعيش حاكم المنطقة خالد باشا والضباط الآخرون في أكواخ من التبن ، ما عدا المهندسين الدهشوري وعلي ،

152 - مجموعة أعمال يجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 155.
153 - نفس المرجع. ص. 152.

اللذان يعيشان في خيام ... بالنسبة لنا قاموا ببناء غرف من التبن في غضون ليلة واحدة »، ـ كما ذكر إيفان تروفيموفيتش[154]. لم يكن من قبيل الصدفة الإشارة إلي وجود العديد من الجنود في المعسكر. يتعلق الأمر بقيام القوات السودانية في ذلك الوقت بأعمال عسكرية ضد قبيلة من الغال في المنطقة ، ولهذا كان من الضروري حماية ورشة غسل الذهب التي تم بنائها.

سرعان ما أدخل المتخصصون الروس تعديلات جذرية علي أعمال استخراج الذهب في منطقة تومات . «قبل وصولنا ـ كما أشار بارودين ـ كانت عملية الغسل تجري علي شاطئ النهر... يجلس عاملوا الغسيل الزنوج علي شكل دائرة... يقوم هؤلاء بوضع نصف بود (16،38كيلو جرام) علي الميزان. يقوم البعض بإحضار الرمال للغسل، بينما يزيل آخرون الرمال المغسولة». قام أحد العمال بغسل ما يقرب من خمسة عشر بود من الرمال في اليوم. وفقًا لرأي المهندسين والخبراء الروس، كان منهج الغسل اليدوي للرمال غير فعالا بالمرة: « فهم يجلبون العديد من العمال ، ويقنعونهم بكيفية استقبال وتسليم سلة الرمال لبعضهم البعض. فالأول يضع الرمال في السلة ويسلمها للعامل القريب منه وهكذا تسير السلة حتى آخر فرد. ويقوم الأخير بإفراغ الرمال الغير صالحة فوق الكومة». في تلك الأثناء كانت التجهيزات التقنية في هذا المنجم بدائية لأقصى حد. يكفي القول أن العمال كانوا يضعون الرمال فوق الميزان بإيديهم وليس بالفؤوس . وكانوا ينقلون الرمال علي الجمال ، ففي مثل تلك الظروف وبحالة الطرق السيئة كانت الجمال وسيلة النقل الوحيدة المتاحة .

من البديهي أن يسارع خبراء التعدين الروس باتخاذ قرار بإدخال العديد من التعديلات الجديدة علي نظام عمل تلك المنشأة . وكان استخدام الآلات، التي كانت تستخدم بشكل فعال في مناجم مياس للذهب، أثره بالطبع علي زيادة الإنتاج بشكل كبير. أمري. ب. كافاليفسكي، كما كان يشير مساعده، « بالحفر » ، كما قام بتطوير منظومة العمل علـي غسـل الذهـب . وبدورهـم « نصـب » خبراء التعدين الروس في الورشة بمنطقة تومات « أربعة آلات وآلة أخري مجرية الصنع بأطراف مستقيمة »[155]. وكما أشرنا سابقًا، فقد كانت الآلات مجرية الصنع تستخدم في مناجم مياس للذهب منذ فترة، وحتى قبل ظهور «طاحونة» ب. ب. أنوسف الشهيرة.

154 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 22.

155 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 23.

كان حتميًا التغلب علي الفكر القديم للقائمين علي بناء الورشة في المنطقة. يذكر ي. ب. كافاليفسكي « أن الوقت كان يمر سريعًا أثناء العمل المتواصل والصراع مع الطبيعة وجهل الأتراك... وأخيرًا كُللت جهودنا بالنجاح... بدأت الورشة بالتطور سريعًا. كنا نعمل ليلاً ونهارًا. ومن جديد بدأ الأتراك في الحديث عن أن الورشة لن تجنى شيئًا: فالأمر يفوق إدراككم »[156]. مع هذا كان "ي. ب. كافاليفسكي" نفسه راضيًا عن نتائج بعثته الأولية. وكتب من مسرح العمل خطابًا إلي القنصل العام أ. م. فوك ، الذي فسر محتواه في رسالة إلي المبعوث الروسي في القسطنطينية "ف. ب. تيتوف" . وفقًا لما أورده أ. م. فوك، « فقد تمكن ي. ب. كافاليفسكي من اكتشاف رمال غنية برواسب الذهب وكذلك العمل علي بناء ورشة هناك... في ظل شكواه من الصعوبات المختلفة ، التي اضطر لتحملها، عبر السيد "ي. ب. كافاليفسكي" عن أمله في إنهاء هذه المهمة الشاقة الملقاة علي عاتقه نهاية سعيدة ، كما ينوي العودة إلي القاهرة في شهر يوليو...»[157]

نشر "ج. ف. جارياتشكين" خطابًا موجه من "إيجور بيتروفيتش" شخصيًا إلي "محمد علي" في مارس عام 1848. يشير المقدم إلي نجاحه في الوصول إلي « نتائج مرضية جدًا»: « بالتأكيد أخبر خالد باشا صاحب السمو عن قيام أحد عمالنا من غسل 69 حبة (1 زولوتنيك و60 جزء) ، إلا أنني سأضيف ضرورة عدم الوقوع في الأوهام بسبب تلك النتيجة الباهرة ». يبدو أنه أشار إلي أن الرواسب الحاملة للذهب «غنية جدًا»، ولهذا يمكن اعتبار بناء الورشة في منطقة كاسان «أمرًا مفيدًا جدًا » .

أشار "ي. ب. كافاليفسكي "في هذا الخطاب، المرسل مباشرة من مسرح العمل إلي محمد علي ، إلي أهمية استعمار تلك المنطقة من أجل تطوير صناعة استخراج الذهب هناك . يؤكد رئيس البعثة ضرورة أن تأخذ المستعمرة في الإعتبار «جميع الوسائل الآمنة المتاحة التي تتطلبها تلك المنطقة المنعزلة ، وصعوبات العمل ، وأخيرًا المنفعة من وراء هذا المشروع، بل والتصورات العامة، التي لا يفوق سعادتكم فيها أحد...»[158].

بمبادرة من ي. ب. كافاليفسكي أخذ أفراد البعثة يصعدون فوق جبل كاسان، الذي يوجد علي بعد خمس فرستا من المعسكر. أثناء تخطيطه رأي رئيس البعثة، أنه من الأفضل تفقد المنطقة وتقييم المنابع من أجل تطوير الإنتاج . كما عقد أعضاء البعثة العزم أيضًا علي القيام ببعض المشاهدات التي تخص قياس منسوب المياه وجيولوجيا ونباتات وحيوانات المنطقة . يذكر بارودين أن «المحافظ» خالد

156 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 152.

157 - ج. ف. جارياتشكين. مصر في أعين الروس... ص. 265.

158 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 266-265.

باشا وموظفين محليين ، بالإضافة إلي مجموعات من الجنود تحركوا مع الروس من أجل « الحراسة ». بعد الصعود علي جبل كاسان، بدأ رئيس البعثة بلا إرادة في المقارنة بينه وبين العديد من الجبال التي رآها في حياته. ولكن، بشكل مفاجئ، استدعت تلك الذكريات في نفس الرحالة الروسي صورة قريبة جدًا إلي قلبه : «ليست جبال السويد التي ترتفع هاماتها فوق السحاب ، وليست جبال ألبانيا و مونتينيجرو الصخرية الجرداء الوعرة. بل هي جبالنا في جنوب الأورال ، وجبال سيبيريا بوديانها الجبلية الرائعة، والجبال الخلابة! »[159]

لم يكن إيفان تروفيموفيتش يميل في مذكراته لاستخدام نماذج بهذا القدر من الرومانسية . بطبيعة الحال كان خبير التعدين الأورالي مهتمًا قبل كل شيء بثروات الجبال في شرق السودان . وفيما بعد يصف تلك المناطق ، قائلاً : «أنها مناطق جبلية ، مع أن الجبال ليست شاهقة . وفي المنحدر الشمالي يقوم الزنوج بعمليات التنقيب منذ قديم الأزل . تغطي الرمال الحاملة للذهب طبقات جوفاء بسمك أربعة فيرشوك (4،4سم. تعليق المترجم) إلي ثلاثة أرشين (71سم. تعليق المترجم)... تنمو الأعشاب الطويلة والنادرة، وتوجد أنواع مختلفة من الغابات »[160]. في الحقيقة، كان ضروريًا أخذ كل التفاصيل في الإعتبار أثناء تقييم الآفاق المستقبلية لتطوير صناعة التعدين في السودان المصرية (وخاصة ما يتعلق بتوافر الغابات) . لاحظ إيفان تروفيموفيتش وجود طبقات من الطمي والتلك والحجارة وطبقات مختلفة من الكوارتز داخل الطبقات الجبلية. كما ألفت الانتباه إلي حالة التربة في تلك المناطق ، مشيرًا إلي «عدم وجود تربة خارجية أو تربة سوداء»[161].

أصبح الأول من أبريل يومًا مشهودًا في تاريخ ورشة غسل الذهب في شرق السودان: فقد اتخذت جميع التدابير من قبل « الحاكم » خالد باشا للإحتفال ببداية عملية غسل الذهب. خلال ذلك يخبرنا ي. ب. كافاليفسكي أنه صاحب المبادرة في القيام بهذا الحدث : فقد قام رئيس البعثة الروسية شخصيًا بدعوة خالد باشا لحضور هذا الحدث « لتجنب أي مشاكل أو سوء تفاهم يمكن أن يحدث بعد ذلك »[162].

كان ذلك ، في الحقيقة ، أحد أبرز الأحداث التي انطبعت في ذاكرة بارودين، الذي يذكر : «خرج الجنود في عرض عسكري ووقفوا في صفوف ثم قاموا بعدة

159 - نفس المرجع. ص. 158.

160 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة .22.

161 - نفس المرجع. ورقة 22.

162 - ي. ب. كافاليفسكي. حوض النيل... ص. 99.

حركات منتظمة ووضعوا السلاح في الغمد، والباشا يأمر القوات بنفسه . بسطوا السجاجيد، التي وقف الباشا والموظفين عليها . كان الزنوج يجلسون علي مسافة بعيدة بما أنهم عبدة أوثان . كنا نجلس مع رفاقنا ونشاهد المراسم »[163]. كانت المراسم مثيرة جدًا للدهشة، كما عكست تعددية جنسيات المشاركين فيها. يذكر إيفان بارودين أن الجنود في البداية استغرقوا في الإبتهال إلي الله ، ثم اقتاد السودانيون ثلاثة ثيران ، وقاموا بنحرهم وبدأوا يمسحون الآلات بدماء الثيران . بلا أدني شك، يعكس كل ذلك الطابع المعقد والكامل لخلفية سكان المنطقة الدينية. بعد تلك المراسم الاحتفالية بدأ العمل المكثف علي غسل الرمال باستخدام الآلات. مع هذا لا يزال بيت القصيد في فاعلية عمل ورشة غسل الذهب، التي أنشأت بمشاركة المتخصصين الروس . تتفوات وجهات نظر رئيس البعثة ومساعده بشأن تلك القضية. فقد كان "ي. ب. كافاليفسكي" يحاول جاهدًا من خلال مذكراته إثبات حقيقة أن الأوراليون تمكنوا من تحقيق نجاح باهر في قضية تطوير صناعة استخراج الذهب في شرق السودان . كما اعترف أن العمل كان يسير في البداية «ببطء»، «حيث استغرق الزنوج مدة طويلة حتى يدركوا طريقة تشغيل تلك الآلة» .

كانت إنتاجية العمال السودانيين في الأيام الأول أقل بثلاث مرات عن مثيلتها لدي عامل ورش الذهب في مياس. إلا أنه بعد مرور أسبوع تعود عمال غسل الذهب، أصحاب البشرة السمراء علي العمل بالتقنية الجديدة وارتفعت إنتاجيتهم إلي الضعف[164]. أثبت ي. ب. كافاليفسكي أن الورشة كانت «تعمل بشكل جيد» «حتى تحت قيادة العرب»، وكان الذهب « يستخرج تقريبًا كل يوم »[165]. وفيما يتعلق بآفاق استخراج المعدن النفيس في السودان المصرية، فقد ارتبط ذلك لدي المهندس الروسي بشخصية محمد علي: «يمكن القول بكل شجاعة أن صناعة الذهب سوف تزدهر، طالما بقى محمد علي علي قيد الحياة »[166].

لم يتح لنا التاريخ الفرصة لاختبار مزاعم ي. ب. كافاليفسكي : من المعروف أن مؤسس مصر الحديثة العظيم قد فارق الحياة بعد بناء الورشة في فازوغلي مباشرة . يبدو أن تحليل أقوال إيفان بارودين – مساعد ي . ب. كافاليفسكي يجعلنا نشك في وجود أية آفاق مستقبلية حقيقية للعمل الذي بدأه المهندسون

---

163 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 23.

164 - ي. ب. كافاليفسكي. حوض النيل... ص. 99.

165 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 209.

166 - نفس المرجع. ص. 249.

الروس في ظل ظروف السودان المصرية في القرن التاسع عشر. من الصعب أن يكون خبير التعدين الأورالي قد عول علي إمكانية نشر مذكراته، ولهذا بدي أكثر حرية من رئيسه في تقييمه. وبدت تلك التقديرات أكثر تشائمًا للغاية .

فقد أكد أنه علي الرغم من قيام قادة المنجم « بإجبار » العمال بكل الوسائل «من أجل غسل كميات أكبر»، إلا أنهم لم يستخرجوا شيئًا: «فمن بوسعه رفع الإنتاج إذاً! فالشعب خائر القوي – فكيف له أن يصبح قويًا بدون طعام جيد»[167]. فالطعام الوحيد المتوفر فعليًا هو « الذرة » البدائي المسلوق (أصناف من الحساء). وبهذا الشكل، كان خبير التعدين الأورالي يعترف بصراحة أن حالة الموارد البشرية العاملة إحدي أهم المشاكل التي تعيق منظومة تطوير صناعة استخراج الذهب في المنطقة. في مثل هذه الظروف لم يتسن للعمال السودانيين المضي قدمًا في رفع إنتاجية عملهم، التي وصلت إلي ما يقرب من 400 بود من الذهب المغسول للآلة الواحدة . ففي أول يوم عمل أنتجت أربعة آلآت 15 زولوتنيك ذهب . وبالطبع كانت القدرة الإنتاجية منخفضة جدًا. من المعروف أن السودانيون العاملون علي بناء ورشة غسل الذهب في فازوغلي كانوا يتقاضون من السلطات قرش واحد (وهو ما يعادل في الحساب الروسي ستة كوبييات من الفضة) في اليوم[168].

من الملاحظ أن رأي بارودين يتوافق تمامًا مع تلك التقديرات، التي أعطاها الرحالة الروس الآخرين الذي كانوا في زيارة لمصر والسودان في تلك الأعوام. علي سبيل المثال، في أربعينيات القرن التاسع عشر في جنوب النوبة أبحر عبر نهر النيل الجيوغرافي الروسي "أ. أ. رافالوفيتش" ، الذي قام بدراسة بيئة وطباع قبائل البربر القاطنة في تلك المناطق. وفي التقرير، الذي قرأه في شهر مارس عام 1849 في جلسة الهيئة الجيوغرافية التابعة للإمبراطورية الروسية ، أشار أن السكان المحليون « قليلاً ما يستخدمون اللحوم (علي الرغم من نهم الكثيرين به) وبشكل عام هم مقلون في تناول الطعام إلي حد كبير». ذكر رافالوفيتش أن طاقم المركب ، الذي سافر علي متنه عبر نهر النيل ، « كان يقتات باستمرار علي كسرات من الخبز وعدس مسلوق في ماء وملح دون أي إضافات أخري. في غضون ذلك كانوا مضطرين أكثر من مرة للإبحار من 12، 14 ساعة عدة أيام علي التوالي ... وبسبب هذا الطعام المتواضع سرعان ما خارت قوي البرابرة »[169].

167 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة .23.

168 - ي. ب. كافاليفسكي. حوض النيل... ص. 93.

169 - أ. أ. رافالوفيتش. تعليقات عن اثنوغرافيا سكان جنوب النوبة // مذكرات الهيئة الجيوغرافيةللإمبراطوريةالروسية. سانت بطرسبورج، 1850. الكتاب الرابع. ص. 180.

كما أشار أن السبب وراء ضعف إنتاجية عمل السودانيين ليس في عدم رغبتهم في العمل، ولكن بسبب الطبيعة الفقيرة لكثير من مناطق السودان، التي لم تمنح سكان المنطقة الفرصة للحصول علي طعام كاف. في ظني ، لابد من أخذ تلك التصورات في الإعتبار عند تقييم القدرة الإنتاجية لسكان شمال شرق أفريقيا. من المحتمل أن هذه الإعتبارات ظلت خارج دائرة إهتمام مؤلف كتاب «رحلة إلي الأماكن المقدسة»، علي سبيل المثال، الذي نقلنا عنه أكثر من مرة، ومؤلف «القبائل العربية الضعيفة » ، الذي « يثير صخبًا أكثر من كونه فعالاً». أبدي "أ. ن. مورافيف" جرأة في التعبير عن رأيه بصورة لاذعة: «يمكن لعامل روسي واحد أن يعوض مجهود عشرة أشخاص»[170]. ولكن هل يُعد السبب وراء هذا الرأي في النزعة القومية فقط؟ فمن بين جميع الظروف يبدو ضروريًا ذكر عامل الظروف الطبيعية والمناخية في المنطقة.

اعتمادًا علي تقديرات بارودين وبعض الباحثين في تلك المشكلة ظلت الشكوك تحوم بشكل كبير حول تقديرات آفاق استخراج الذهب في شرق السودان . أعتبر "أ. ليبرمان" الباحث في طبيعة منطقة زلاتؤوست سالف الذكر أن البعثة الروسية لم تتمكن من زيادة معدلات غسل الذهب: «كان الزنوج هزالي وقلت إنتاجية عملهم »[171]. يجدر الإشارة إلي أن رئيس بعثة فازوغلي ي. ب. كافاليفسكي كان مناهضًا لفكرة الدونية العنصرية التي طالما لاقت صداها في الأدب الروسي في ذلك الوقت . ولهذا خصص في مذكراته فصلاً كاملاً عن الشعوب الإفريقية، استعرض فيه تفصيليًا طباع وتقاليد تلك الشعوب. مع استعراض الآراء المختلفة للكتاب الأوروبيين السابقين حول هذا الأمر ، لم يمتنع إيجور بيتروفيتش عن إبداء رأيه، مؤكدًا باستمرار علي فكرة الطبيعة البربرية وتخلف الأفارقة[172].

علي الجانب الآخر قام مساعد رئيس البعثة، الشخص الذي لديه اهتمامات مختلفه تمامًا وغير المطلع علي المصادر الأدبية الأوروبية العديدة ، التي تناقض هذا الموضوع، بوضع صور متفرقة علي صفحات مدوناته « من وحي الطبيعة» تُظهر نمط حياة شعوب شرق السودان في منتصف القرن التاسع عشر خلال المدة القصيرة التي قضاها الرحالة الروس في منجم فازوغلي . وبالطبع لم يتمكن إيفان تروفيموفيتش سوي وضع تصورًا عامًا عن السكان المحليين. أشار الأخير إلي حقيقة أن سكان المنطقة

170 - رحلة إلي الأماكن المقدسة... ص. 110.

171 - أ. ليبرمان. الأوراليون في مصر // عامل زلاتؤوست. 1976. 11 سبتمبر.

172 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 236-214.

يختلفون جنسيًا وعرقيًا عن سكان مصر، الذي كان يشاهدهم أثناء رحلتهم الطويلة : « جميع سكان المناطق المجاورة من الزنوج » . ونتيجة لتأملاته أوضح أن القبائل المحلية تتمتع باللامركزية تمامًا من الناحية السياسية : «حيث يوجد سلطان حاكم لكل جبل ». كما يعطي وصفًا عامًا لتأملاته الخاصة بنمط ووسائل تدبير أمور حياتهم : « يسيرون عراة في أغلب الأحيان. يملكون قطعان كافية من الماشية ، ولا يتحركون إلي أي مكان بدون سلاح ».

كان السكان المحليون يعيشون في الأساس علي منحدرات الجبال المجاورة « في عرائش من القش »، كنا نري من بعيد أضواء النيران التي كانوا يشعلونها كل ليلة . وفقًا لما ذكره ، فالمحارب التقليدي من قبائل شرق السودان كان يحمل معه بين ثلاث إلي أربعة بلطات وأسهم «هراوات» و «تروس» . كانت الغالبية الحقيقية لسكان المنطقة من أصحاب العقائد المحلية التقليدية . أنهم « عبدة الأوثان »، كما أطلق عليهم إيفان تروفيموفيتش . علي أية حال ، لم يكن أعضاء البعثة الروسية يتواصلون كثيرًا مع قبائل فازوغلي البربرية ، لإدراكهم جيدًا مدي خطورة هذا الأمر. أعترف بارودين ، قائلاً: « لم يذهب أي أحد منا إليهم ولو بدافع الفضول »[173]. مع هذا، أثارت تجارة العبيد في أفريقيا إعجاب خبير التعدين الأورالي. في عهد محمد علي كانت تلك التجارة إحدي أشكال « احتكار الدولة»، التي كانت تدر ربحًا كبيرًا لخزينة الدولة. قبل وصول البعثة الروسية إلي السودان بتسعة أعوام عام 1839 تم جلب أكثر من 200 ألف عبد أسود إلي مصر من هناك[174]. كان تجار العبيد-الجلابة يكونون مملكتهم الصغيرة الخاصة ، والتي تقوم بغارات علي القبائل الإفريقية المجاورة وتحول آلآف الأسري إلي عبيد . انتقل بعض هؤلاء التجار للخدمة في الحكومة كرؤساء للقواعد العسكرية أو كموظفين برتب أعلي.

بالطبع لم يستطع خبير التعدين الأورالي البسيط الإطلاع علي تلك الظروف، إلا أنه كان يراقب إلي أي مدي كانت تجارة البشر تُمارس بشكل علني في السودان: « كانوا يسوقون عدة أشخاص لبيعهم، يسوق أحد الزنوج سيدة مقيدة بالحبال لمدة ثلاثة أيام ولكن لم يشتريها أحد»[175].

173 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 24.

174 - أنظر: ي. إ. زيلينيف. مصر: القرون الوسطى. العهد الجديد. ص. 234.

175 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 24.

والسؤال المطروح: هل كان هناك أي نوع من التواصل بين أعضاء البعثة والسكان المحليين ؟ وكيف كان خبير التعدين الأورالي البسيط، الذي لا يعرف لغات أجنبية، يتواصل مع ممثلي قبائل شرق السودان؟ تشهد مذكرات بارودين ، أنه بالرغم من الصعوبات، يبدو أنه تمكن في النهاية من الوصول إلي صيغة تفاهم مشتركة: «كان من الصعب خلال مدة قصيرة التعود علي الحديث معهم، ولكننا كنا نفهم كلامهم بعض الشيء... في حالات الضرورة كانوا يفهموننا وكنا نفهمهم، علي الرغم من صعوبة ذلك » . بما أن لا أحد من أعضاء البعثة يعرف اللغات، التي كان سكان المنطقة يتحدثون بها ، فلم يبق سوي مخرج واحد من هذا الوضع: كان ي. ب. كافاليفسكي يتحدث معهم «عبر مترجم باللغة الفرنسية»[176].

توجب علي إيفان بارودين تعيين إدارة مؤقته لقيادة عملية غسل الذهب في منجم فازوغلي . بعد أن تم تسوية هذا الأمر قرر ي. ب. كافاليفسكي التوجه إلي عمق قارة أفريقيا (إلي منابع نهر تومات)، وعلي الرغم من معرفته الجيدة بهذا المكان، ولكن لم يسبق لأحد التواجد هناك. في الرابع من أبريل، علي حد قول بارودين ، سافر المقدم إلي إحدي مناطق التنقيب. « وهناك تحتوي رمال الذهب علي نصف زولوتنيك (4 جرام وربع. تعليق المترجم) في كل 100 بود (16،38 كج. تعليق المترجم) . بينما كان كافاليفسكي في طريقه، كنت متواجدًا وحدي من أجل مزاولة الأعمال مع الدهشوري »[177]. من الملاحظ أن ي. ب. كافاليفسكي قد أكد في أحد أعماله حقيقة قيامه بتكليف خبير التعدين الأورالي بإدارة أعمال بناء الورشة بشكل مؤقت[178].

بقي أعضاء البعثة الروسية أكثر من شهر بقليل في منطقة بناء ورشة غسل الذهب . كان الطقس حارًا جدًا وغير ملائم لمواطني الأورال حتي في شهر مارس وبداية شهر أبريل : « يا لها من درجة حرارة – لا يمكنك الوقوف علي الرمال – يذكر بارودين – وفقًا لقياسات العقيد، فقد سجل مقياس درجة الحرارة في الثاني عشر من مارس 45 درجة . مع هذا كان الجو رطبًا في الليل » . ذات مرة في ليلة الرابع من شهر أبريل، وتحديدًا قبيل مغادرة ي. ب. كافاليفسكي من المعسكر بشكل مؤقت ، « هطلت الأمطار ، وسمع صوت الرعد... وعلي الصباح فاضت شواطئ نهر التوماك... وبعد سقوط المطر بدي الطقس بأوجهه السيئة». أوضح إيفان تروفيموفيتش، أن موسم المطر في تلك المنطقة تظهر بوادره من شهر مايو وحتى شهر

176 - نفس المرجع. ورقة 35.

177 - نفس المرجع. ص. 23.

178 - أنظر: ي. ب. كافاليفسكي. حوض النيل... ص. 94.

سبتمبر، ولهذا كانوا متواجدين في أوقات الطقس الجاف . أدي عدم تساقط الأمطار لوقت طويل إلي تشقق تربة الأرض، بل أحاق الرحالة الروس بخطر داهم : « من الخطر امتطاء الجواد وخاصة عبر المناطق المنخفضة » .

كانت الغابات كثيفة في الأماكن المحيطة بالمخيم . « يا لها من غابة رائعة » ، ـ يقول خبير التعدين الأورالي بإعجاب. وانطبعت في ذاكرته بشكل خاص شجرة الباوباب الأصبعي والتي كان محيطها يبلغ حتى 10 ساجين (متر و13 سم . تعليق المترجم).

إلي طريق العودة

في الثالث عشر من شهر أبريل عقد فريق ي. ب. كافاليفسكي العزم علي العودة. استيقظ أعضاء البعثة في الصباح الباكر وربطوا امتعتهم فوق الجمال. وكانت لدي أعضاء البعثة نية في امتطاء الجياد عند السفر، ولكنهم جلبوا «حصان عربي أصيل» مجهز إلي ي. ب. كافاليفسكي فقط، بينما امتطي خبير التعدين وعامل غسل الذهب حماران . يذكر رئيس البعثة ، أن الموظفون المحليون كانوا سعداء بفكرة رحيل الروس : «كانوا يعبرون عن رضاهم بشكل طفولي وهيستيري ، وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث مع خبراءنا بشكل ودي ، علي الرغم من صعوبة فهم بعضهم البعض ». لم يكن إيفان بارودين وصديقه «أقل رضًا»، إلا أنهم كانوا يحتفظون بملامح موظفي الدولة الصارمة، من وقت لآخر ترددت في المكان أصداء مزاحًا موجهًا إلي قائد عربي أو إلي إحدي الجمال ، ومنها علي سبيل المثال: هيه، يا صديقي اخفض السنام ولو قليلاً من فضلك، كأننا نجلس علي خازوق! »[179]. وبالتأكيد، شعر الأوراليون بسعادة بالغة ، فالوجهة هذه المرة إلي أرض الوطن.

يذكر بارودين ، أن ما يقرب من مائة جندي شاركوا في مراسم الوداع. أثناء مراسم الوداع أهدي خالد باشا «خمسة جنيهات لشراء فودكا»[180] إلي خبير التعدين الأورالي بنفسه . والمدهش ، أن صديق بارودين – فومين و « خادم كافاليفسكي» (مراسل المقدم) الذي يحمل اسم أسكندر ، نقلوا نفس المبلغ. وبهذا الشكل ، من وجهة نظر موظفي محمد علي ، كان وضع خبير التعدين

179 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 237.

180 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة .24.

وعامل غسل الذهب أقرب ما يكون إلي وضع خادم أكثر من كونه رئيس بعثة .

وسط هذا الحشد السعيد ، علي حد وصف ي. ب. كافاليفسكي، ارتأى شخصان فقط، أن رحيل البعثة الروسية ينبأ بالمتاعب . كان علي محمد إبراهيم وعيسى الدهشوري ينظرون بأسى إلي استعدادات الروس للرحيل. يصف ي. ب. كافاليفسكي شعورهم ، قائلاً: «بالنسبة لهم ، بعد ما استنشقوا مجددًا نسمات الحياة الأوروبية ، تلوح في الأفق أيام سوداء ، تصحبها مهانة تلو المهانة ومذلة تلو المذلة ». يبدو أن وصول الخبراء الروس جعل المهندسين المصريين الشابين، اللذين تربيا في ألمانيا، يشعران أنهما أورروبيان ، ومتخصصان مؤهلان يستحقان المعاملة بالمثل . أما الآن «أصبحوا ضحية مصيرهم : فقد اتسع أمامهم أكثر وأكثر مستنقع متحرك من الجهل والتراهات ، علي استعداد لإغراقهم »[181].

قبل رحيله من فازوغلي كتب إيجور بيتروفيتش خطاب وداع إلي أصدقاءه المصريين . وقد سلم نسخة من تلك الوثيقة الهامة إلي أ. م. فوك وقام البروفيسور ج. ف. جارياتشكين بطباعتها بعد ذلك . من الصعب عدم إدراج مقتطفات من هذا الخطاب ، الذي يوضح المشاعر الدافئة التي كان يضمرها المقدم الروسي للشابين المصريين : « صديقي العزيزين محمد وعلي أفندي . بعد العديد والعديد من النصائح التي أسديتها لكم ، أريد أن أقول لكم كلمة أخيرة . إن المعاناة التي حلت بكم خلال مدة غيابي لبضعة أيام ، أضهرت مدي الضرر الذي لحق بالورشة جراء تغيير وتجاهل النظام الذي وضعته أنا ؛ لا أذكر هذا بهدف إلقاء اللوم عليكم مجددًا، بل أشعر بالسعادة لرؤيتكم هذا الإختلاف بأم أعينكم، مع ضرورة الاقتناع بأن المهندس ، في مجال التعدين بشكل خاص، الذي لا يحضر إلي الورشة ولو ليوم واحد، لا يستحق أن يحمل هذا اللقب . استمروا في التنقيب عن مكامن الذهب ، التي لن تكون بالقدر الكافي ، ولهذا يجب عليكم البحث عن مناطق جديدة ، تتوافر بها مادة خام أكثر من المناجم السابقة . عليكم إجراء التجارب كل يوم في مناطق مختلفة من المناجم حتى تتعرفوا جيدًا علي العروق الغنية ، ولا تقفوا أمام ضرورة غسل رمال لا تحوي شيئًا... أصدقائي الأعزاء ، لقد أوضحت لكم الأماكن ، حيث يمكنكم بناء ورشة...، وكيف يمكنكم بناء سدًا لتجميع مياه المطر والكثير من الأمور المتعلقة بهذا الأمر . وعلي العموم ، تعرفون أنني علي استعداد بكل ترحاب لإسداء النصيحة لكم ، إذا ما احتجتوا إليها... تعرفون جيدًا يا سادة أن صاحب السعادة يعلق آمال عريضة علي هذا المجال حديث النشأة، كما أنهم يراقبون هذا الأمر عن كثب ، ليس فقط في مصر ولكن إيضا

181 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 238.

في أوروبا. ولهذا بانتظاركم أما التكريم أو العقاب. أحرصوا علي إكمال مسيرة النجاح التي بدأناها»[182].

كان لفراق الأصدقاء الروس وقعه الأليم "علي محمد إبراهيم" و"عيسى الدهشوري" . من الممكن، ولهذا السبب لم تكن لدي علي محمد الرغبة في العودة سريعًا إلي المخيم بعد صرف رئيس البعثة « الحراسة » المعينة له من قبل خالد باشا، والتي خرجت بصحبة الرحالة الروس لبعض الوقت. استمر "علي محمد" بصحبة البعثة الروسية إلي ما أبعد من ذلك « للقيام ببعض التجارب في الطريق »[183]. من الواضح أن هذا لم يكن السبب الوحيد، فقد أراد المهندس المصري التواجد بعض الوقت مع الخبراء الروس، الذي كانت تربطه بهم علاقة صداقة . وبالطبع أجروا بعض التجارب. كما يذكر إيفان بارودين فقد وجدوا في إحدى المناطق طبقة تحتوي علي ذهب بقيمة ما يقرب من نصف زولوتنيك كل 100 بود. ولكن لم تستمر صحبة "علي محمد" لبعثة "ي. ب. كافاليفسكي" طويلاً. بعد يومين ، في الخامس عشر من شهر أبريل ، في إحدي المدن الصغيرة فارق "علي محمد" أصدقاءه الروس ، ولكن هذه المرة إلي الأبد. وفي نفس الوقت أجري أعضاء البعثة عدة تجارب، وقاموا بغسل 50 بود رمال وحصلوا علي 20 سهم ذهب.

أكمل الرحالة الروس طريقهم بعد ذلك بدون "علي محمد". وفي الثامن عشر من أبريل وصلوا إلي مدينة روصيرص، حيث قام أعضاء البعثة بالصعود علي متن المركب وأبحروا عبر نهر النيل ، في نفس الوقت افترقوا عن عالم الطبيعة "ل. س. سينكوفسكي"، الذي قرر انتظار موسم المطر (الذي بقي عليه ثلاثة أشهر)، من أجل رؤية نباتات وحيوانات المنطقة في أبهي صورها.

مع هذا تمكن أعضاء بعثة ي. ب. كافاليفسكي في شهر أبريل من الاستمتاع بمشاهد الوحوش والطيور الغريبة . كانت أسراب من القرود تتجول علي طول الطريق . عبر شاطئ نهر النير تصادف أمام الرحالة الروس رؤية أنواع كثيرة من الطيور، والتي ذكرت إيفان تروفيموفيتش بطائر الغرغر (دجاج وادي غرب أفريقيا هو طائر ينتمي إلى الدجاج الحبشي . تعليق المترجم)، بما أن لديها نفس الريش. كانت الطيور تسير بمجموعات كبيرة وكانت « مسالمة جدًا » . بجانب ذلك حلقت أسراب من طيور صغيرة فوق نهر النيل. وكان عددهم كبير لدرجة «أنها إذا هبطت في مكان ما علي الشجيرة ، لا يري منها شيئًا». عند رؤية هذه الطيور

182 - ج. ف. جارياتشكين. مصر بأعين الروس... ص. 268.

183 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 25.

تذكر بارودين أحد أشهر الطيور انتشارًا في وطنه – وهي العصافير البسيطة والتي فاقت حقًا سلالاتها الإفريقية في الحجم.

تمكن الرحالة الروسي من التعرف علي نمط حياة ممثلي القبائل المحلية الغريب عليهم تمامًا. يذكر خبير التعدين الأورالي: «ذات مرة عندما كنا نسير عبر شاطئ النيل، توقف المقدم تحت شجيرة بالقرب من أحد الأكواخ. تعيش إحدي الأسر في هذا المكان بلا مأوي، تعيش فقط تحت أغصان كثيفة مترابطة ومغطاه من إحدي الجوانب للحماية من أشعة الشمس»[184]. من المدهش أن ي. ب. كافاليفسكي حاول النقاش مع سكان هذه القبيلة الإفريقية. في هذا الوقت لاحظ بارودين ورفقائه ثمار البطيخ الذى ينمو بجوار نهر النيل. لم تحذ تلك الفواكه علي إعجاب خبير التعدين وعامل غسل الذهب – فهي «صغيرة الحجم» وحامضية، كما يذكر إيفان تروفيموفيتش. ولكن عندما غادروا أرض البطيخ، رأوا بعض القرود، التي أتت بالتأكيد من أجل البطيخ: يرصد بارودين هذا المشهد الطريف، قائلاً: «وقف أحد القرود علي قدميه الخلفيتين للحراسة، بينما بدأ الآخرون بانتقاء البطيخ وحمله». حاول خبير التعدين ورفيقه ملاحقتهم ولكن بلا فائدة.

تمكنت البعثة الروسية من رؤية حيوانات كبيرة. علي سبيل المثال، رأوا في إحدي الأنهار مجموعة من أفراس النهر، التي، كما يذكر بارودين، «تظهر جباهها العريضة قبل غروب الشمس». «تصدر صوت خرير وهي تخرج رأسها من الماء، - يكتب عن هذا خبير التعدين الأورالي لاحقًا، - ثم يغطس مرة أخرى في الماء». والأكثر من ذلك: كان أعضاء البعثة الروسية يراقبون أيضًا عملية صيد هذا الوحش الإفريقي الكبير. ذات مرة، رأوا، وهم علي متن المركب، كلب بحر يحاول التخلص من الحبل الملقي عليه. كان مثبت بإحدي أطراف الحبال قطعة خشب. ظل الصيادون يحومون مدة طويلة حول هذا الوحش في النهر. «ترغب في انتشاله حيًا وتشاهده، - كما يذكر إيفان تروفيموفيتش، - ولكنه يجري سريعًا، بحيث لا يمكنك اتباعه»[185]. حكي الصيادون أصحاب الخبرة إلي خبير التعدين الأورالي أن فرس النهر بإمكانه الصراع بهذا الشكل ما يقرب من ثلاثة أيام، بعد ذلك فقط تخور قواه ويمكن التعامل معه. أخبر السكان المحليون إيفان تروفيموفيتش عن طريقة أخرى لصيد هذا الحيوان. فهو يخرج كل ليلة إلي الشاطئ «من أجل تناول

184 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 26.

185 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 26.

الغلال المزروعة » . في هذا الوقت يقوم الصيادون بمراقبته، ويتسللون بالقرب منه ويغرزون في جسده « سن حديدي مثبت بخيط ». وعندما يحاول الوحش الهروب في الماء يقومون باصطياده .

خلافاً لأفراس النهر ، يذكر أعضاء البعثة الروسية رؤيتهم للأسود، التي كانت تقترب ليلاً بعد غروب الشمس من شاطئ نهر النيل، مصدرة زئيرًا مخيفًا. رأي إيفان تروفيموفيتش ضباعًا « تزمجر » . أخبره السكان المحليون أنها كانت تجذب إليها الحيوانات المنزلية عن طريق « الزمجرة » .

في وقت لاحق أمعن رئيس البعثة في التخمين: « لا يمكنني تحديد لماذا حل المرض فجأة ؟ ، وفي يوم واحد أصابنا جميعًا »[186] . كان الطبيب على يقين من أن كل أعضاء الحملة كانوا مصابين بالعدوى من قبل، إلا أن « العمل المتواصل » أدى إلى عدم ظهور أعراض المرض بشكل واضح .

الخطر المميت

وصلت البعثة في الخامس والعشرين من أبريل إلي مدينة سنار . وفي هذه المدينة تحديداً واجهت بعثة " ي. ب. كافاليفسكي " حادثة مهمة جداً، كادت أن تؤدي بهم إلي الموت. عن هذا يذكر " إيفان تروفيموفيتش " ، في ليلة السادس والعشرين من شهر أبريل: « أصبنا كلنا بالمرض: بعضنا بالحمى ، وبعضنا بالإسهال . لفترة طويلة لم يصب أحد منا تقريباً بمرض ، ولهذا أسرعنا بالرحيل من سنار في الثالثة ظهراً للهروب من المرض ، الذي كان يلاحقنا »[187] .

فالعمل داخل المنجم والرحلة على الجمال لم تعط أعضاء البعثة أي فرصة للشعور بالوهن . إلا أنهم أبحروا إلي مدينة سنار على متن المركب نفسه ، الذي سافروا به من قبل . يتعلق الأمر بالإبحار لمدة ثلاثة أيام ، حيث كان الروس المرهقون في حالة « استرخاء تام » ، مما أدى إلي ظهور أعراض المرض بسرعة.

أكمل أعضاء البعثة رحلتهم وهم مرضى . ولكن مع كل خطوة أصبح تحركهم أكثر صعوبة . في التاسع والعشرين من أبريل وصلوا إلي إحدى المدن

186 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 241.

187 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 26.

الصغيرة (في الغالب ، إنها مدينة ود مدني) ، « وأقاموا في إحدى الشقق نظراً لحالتهم المرضية ، ولم يتسن للمقدم المضي قدماً أكثر من ذلك » . ظل الروس في تلك المنطقة السكنية حتى السادس من شهر مايو . لم يكن رئيس البعثة وحده من أصيب بالمرض: كان " إيفان بارودين " نفسه يعاني من « إسهال دموي » . في وقت لاحق اعترف بارودين ، « أنه لم يكن في حسبانه العودة إلي أرض الوطن لأنه المرض الأخطر في هذه البلد »[188] .

شعوب أفريقيا

يذكر " إيفان تروفيموفيتس " أن الرحالة الروس أكملوا مسيرتهم علي طول شاطئ نهر النيل وهم يعانون من الأمراض « لعل هذا يخفف من آلامهم». تنوعت ذكريات جميع أعضاء البعثة الروسية عن تلك الفترة تحديداً من الرحلة . في الواقع لم يهتم " ي. ب. كافاليفسكي" و" إيفان بارودين " بمراقبة مزارات المنطقة آنذاك. فلم يبق لهم سوى الكفاح من أجل البقاء علي قيد الحياة. ومع هذا أولي كلاهما اهتماماً بإحدى عادات القبائل المحلية الغريبة عليهم – ألا وهي تشريط أجسادهم . « يذكر بارودين في كتاباته أن الرجال والسيدات في القرى يجزون أجسادهم بالسكين على هيئة خطوط في أنحاء متفرقة من الجسد ، ويجدلون شعرهم في عدة ضفائر» [189]. كانت أجساد السكان المحليين كلها مدهونة بنوع ما من الدهانات ولهذا ، كما ذكر بارودين، « تفوح منهم رائحة كريهة » .

استفاض " ي. ب. كافاليفسكي " في وصف عادات السكان المحليين في شق بعض الخطوط علي أجسادهم. بعدما تعرف على أعمال الرحالة وخبراء علم الأعراق البشرية في ذلك الوقت ، لم يستطع إغفال هذا العمل الغريب ، كما أنه أولي بالطبع اهتماماً بطريقة القيام بهذا الأمر. « يصف كافاليفسكي في مذكراته قيام أحدهم برسم وشماً علي جسد الآخر بالسكين ، أو قيامهم بصنع جروحاً طولية وكانوا يقومون أحياناً بكيها بقطعة حديدية » . فى تلك الأثناء لم يكتف رئيس البعثة بالاهتمام بالأمور المتعلقة بإجراء تلك العملية؛ فقد أثار اهتمامه سؤال أكثر أهمية : ما المعني الذي تحمله تلك الندبات؟ حاول " ي. ب. كافاليفسكي "

188 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 27.

189 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك . صندوق 101 . الفهرس الأول . ملف 559 . ورقة 27 .

الرد علي هذا السؤال، ملاحظاً: « إنه الزنجي، الذي يقتل ولو عدواً واحداً في الحرب، يتمتع فقط بشرف حفر هذه الندبات علي أجسادهم ... يمثل هذا الشكل المميز لهم تعبيرا عن الشجاعة»[190] .

من ضمن القبائل التي قابلتها البعثة في تلك المنطقة أولي " بارودين " و" ي. ب. كافاليفسكي " اهتماماً خاصاً لقبيلة الدنكا . وجُل ما تذكره خبير التعدين الأورالي تمثل في « قيامهم بخلع السنتين الأماميتين »[191] . أعطي " إيفان تروفيموفيتش " تفسيراً مبتكراً جداً لتلك العادة ؛ فعلي حد وصفه، لم يود سكان الدنكا أن يبدوا مثل الكلاب . و أبدى رئيس البعثة ملاحظات أكثر أهمية علي نمط حياة قبيلة الدنكا ، مشيراً إلي أن هذا الشعب يعيش علي إمتداد نهر النيل « على الأنقاض » ، ويقتاتون علي الجذور « وبذور أعشاب المستنقعات » ، ويتاجرون بالعاج . « يبدو سكان القبيلة ضعاف وشكلهم قبيح ، كما أنهم قبائل متحاربة بشكل كبير»[192] ، - هكذا وصف " ي. ب. كافاليفسكي " هذا الشعب.

بشكل عام ، يمكننا ملاحظة أن بارودين ورئيسه كانا يبديان اهتمامًا كبيرًا بشعوب السودان المختلفة . وتعلما تدريجيًا التمييز بين ممثلي القبائل المختلفة، وأدركا عاداتهم وأساليب حياتهم. من الهام بالطبع أن يتمتع خبير التعدين الأورالي المتواجد للمرة الأولي في القارة السمراء بتلك الميزة. و يبدو في تلك الأثناء أن تنوع الشعوب الإفريقية أثار حيرة الرحالة الخبير. يشير عالم الجغرافيا سالف الذكر أ. أ. رافالوفيتش، الذي كان مبحرًا في تلك السنوات عبر نهر النيل، أنه: «بمجرد وصول الرحالة من أوروبا إلي مصر، فإنه يتعود ببطء علي التمييز بين أجناس سكان القبائل العديدة، التي تظهر في المدن التجارية الرئيسية في تلك المنطقة... فالمراقب في البداية يندهش من شيء واحد: ألا وهو الإختلاف في ملامح الوجه والبنية الجسمانية ولغات سكان المناطق المحلية بشكل عام عن جميع من رآهم في عالمنا الآخر»[193]. خلال تلك المدة القصيرة التي قضاها إيفان تروفيموفيتش

190 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 241.

191 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101 . الفهرس الأول . ملف 559 . ورقة 27 .

192 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي ... ص 218 .

193 - أ. أ. رافالوفيتش. تعليقات عن اثنوجرافيا سكان جنوب النوبة // مذكرات الهيئة الجيوغرافية للإمبراطورية الروسية. سانت بطرسبورج، 1850. الكتاب الرابع. ص. 186.

في أفريقيا، تجاوز مرحلة مجرد إدراك خصائص شعوب مصر والسودان .

فعدم إتقان " بارودين " و رفاقه للغات العديد من القبائل الإفريقية التي قابلوها كان له أثراً بالتأكيد. لطالما أدرك خبير التعدين الأورالي أن هذا الأمر أضاع عليهم إلي حد بعيد فرصة فهم ثقافات تلك الشعوب. ولهذا لم يتسن له سوى رسم صور قصيرة تتعلق علي سبيل المثال بشكل ملابسهم، مشيراً إلي أن ممثلي القبائل علي طول المسافة بين أسوان والسودان كانوا يسيرون في الأساس « عرايا » ، علي الرغم أن معظم سكان المدن كانوا يرتدون ملابساً ويغطون أجسادهم بقماش الكتان . وفيما يتعلق بثقافة التغذية ، كان " بارودين " يشير إلي فقر السكان المحليين المدقع في كل مكان تقريباً، وعجزهم عن تدبير الاحتياجات اليومية من الغذاء. يتحدث خبير التعدين الأورالي عن قيامه أكثر من مرة هو وصديقه بالمرور على أكواخ الأفارقة علي أمل الحصول علي بعض الطعام ، ولكن فى أغلب الأحيان باءت تلك المحاولات بالفشل : « عندما تطلب من السكان شيئًا لتأكله لا تجد في المنزل أي طعام سوى البلح الجاف »[194] .

ليس من المدهش في تلك الظروف أن يثير المظهر الخارجي لمعظم ممثلي الشعوب الإفريقية انطباعاً سيئاً في نفس " إ. ت. بارودين " ، الذي يشير إلي أنه « مظهرهم لا يوحى بالجمال » ، مفسراً ذلك « بأن الغالبية ، علي ما يبدو، شوهتهم عوامل طبيعية – فإما كانوا فاقدي البصر ، أو مصابين بعرج أو جروح في الجسد إثر الإصابة ببعض الأمراض »[195]. يجدر الإشارة إلي أن خبير التعدين الأورالي وصل إلي أفريقيا في الوقت الذي كانت فيه القارة الإفريقية بعيدة عن مظاهر الحضارة الأوروبية ، وما واكبها من تقدم في نظام الرعاية الصحية ، والتي تسمح بالتداوى من العديد من الأمراض الخطيرة . يذكر بارودين ، أن أفراد البعثة قلما تواصلوا مع الأفارقة « لعدم وجود حاجة لذلك » . ولكن ، حتى في تلك الظروف تولد لدى خبير التعدين الأورالي شعور بأن " محمد على " لم يكن يبسط نفوذه مطلقاً على كافة شعوب السودان . فبعض القبائل لم تكن راضية عن سياسات القاهرة ، التي غالباً ما اقتصرت فقط على بعض الخطب العفوية . لاحظ خبير التنقيب عن الذهب أصداء عدم الرضا عن تلك السياسة . كما ذكر لاحقاً ، فعندما كانت البعثة الروسية في طريقها عبر النيل « وهبت رياح معاكسة » ، اضطروا – كما كان

194 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 35.

195 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 35.

معتادًا في مثل تلك الظروف - لاستدعاء السكان المحليين من أجل سحب المركب بالحبال للأمام، مثل بحارة جر المراكب في نهر الفولجا. ولكن محاولة قائد البعثة للإتفاق مع القبائل المجاورة أثارت حنقهم: فالأفارقة ، علي حد وصف بارودين ، « كانوا يلقون الحجارة من الشاطئ ويركضون عبر الشاطئ ويصرخون دون النظر إلي علم الباشا المرفوع، وأخذوا ينثرون التراب في الهواء في إشارة الي تمردهم علي الباشا»[196]. تمكن أعضاء البعثة بصعوبة بالغة من تهدئة المشاركين في هذا « التمرد العفوي ضد مصر ».

ظل بارودين - علي الرغم من معاناته من مرض عضال - مهتمًا بالإمكانيات التقنية المختلفة التي تصادف رؤيتها في طريقه . يذكر علي سبيل المثال آلات ري النباتات التي كانت تُستخدم في تلك المنطقة ، وتتبع باهتمام تقنية عمل تلك الآلات . بالقرب من الشاطئ تم حفر خزان، يمتد عبر «قناة» من نهر النيل . وعلي الجانبين استقر عمودان تكسوهما عارضة مثبت بها عمود منتصب يكسوه عجلة مسننة («لا، ليست أسنان - قالها إيفان تروفيموفيتش متداركًا - من الأفضل القول، أنها أقرب إلي الإبر»[197]). وبالجوار كان هناك عمودًا آخر، مثبت بإحدي أطرافه عجلة بأسنان كالإبر. كما ثُبِتَ العمود الأول برافعة، مربوط بها زوجان من الثيران . عن طريق تلك الآلة كان بالإمكان رفع المياه علي ارتفاع ثلاثة ساجين ، ثم كانت المياه تمر عبر الأخُدود إلي المكان الذي يحتاجه السكان المحليون.

أبدى إيفان بارودين ورئيسه كل تلك الملاحظات في خضم تنقلهم من منطقة سكنية إلي أخرى في السودان. وأثناء تنقلهم كانوا مضطرين للتوقف لمدد طويلة، حتى يستعيدوا ولو جزءًا من قواهم التي فقدوها بشكل كبير. وفي الخرطوم التقوا مجددًا بالوفد الكاثوليكي، مع أن الحالة الصحية للأسقف ريلو تحسنت بعض الشيء ، علي حد قول بارودين . كانت محطة البعثة التالية في السابع عشر من مايو في شندي « بسبب مرض المقدم كافاليفسكي ».

صحراء بيوضة

بعد عشرة أيام، وتحديدًا في السابع والعشرين من مايو تحرك أعضاء البعثة علي الجمال عبر الشاطئ الغربي لنهر النيل في اتجاه دونجل. «يكاد إيفان بارودين يتذكر ولو شيئًا من هذه المرحلة الصعبة من رحلتهم: سرنا عبر صحراء - وهي

196 - نفس المرجع. ورقة 35.

197 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 27-26.

عبارة عن سهول تغطيها الرمال... ولا تنبت فيها سوى شجيرات جافة تمامًا. وأحيانًا تري بعض الأحراش عبر المنخفضات... لا يوجد ثـمة كائن حي علي إمتداد البصر، والكل يرتدي تعصيبة سوداء كأننا في حالة حداد»[198]. حتى السكان المحليون يشبهون الطبيعة المحيطة بهم: وجوه الجميع سوداء، فقد كانوا «يتمرغون» في الرمال والتراب وتحت الشجيرات « دونما المكوث في مأوي مناسب ».

هذا هو المكان المسمي "بصحراء بيوضة". وهناك أصيب رئيس البعثة بوعكة صحية: يذكر إيفان بارودين «أنه أصيب بحمي شديدة ». يصف إيجور بيتروفيتش نفسه حالته آنذاك، قائلا : « في اليوم الرابع تمكنت بالكاد من الثبات فوق الحصان ، ولكن كان التوقف مستحيلا لعدم وجود مياه في الطريق . وصلنا بشق الأنفس إلي بئر موتوين. استلقيت في هذا المكان ستة أيام تحت شجرة سنط جافة مغطاة بنفايات مختلفة ، و كنت أشعر بالضجر من الحرارة العالية التي تنبعث من داخل جسدي ومن خارجه، وعذاب العطش والملل – وهي الأعراض الحتمية للحمي الصفراء». أخبرنا بارودين، أن كافاليفسكي « استلقي في إحدى المناطق تحت شجيرة لمدة ستة أيام». ونلاحظ أنه أثناء تواجده بالقرب من البئر، استجمع ي. ب. كافاليفسكي قواه وأرسل خطابًا إلي أركان فيلق مهندسي التعدين. عندما أدرك أن هناك احتمالية لعدم رؤية زملائه إلي الأبد، كتب لهم ، قائلا: «من بين 26 شخص اصطحبوني من القاهرة أصيب 21 شخصًا بالمرض»[199]. بالطبع كانت حالة ي. ب. كافاليفسكي سيئة جدًا، إلا أن الاستراحة في الصحراء لمدة ستة أيام لم تكن بالأمر اليسير لأعضاء البعثة . ويذكر بارودين أن « درجة الحرارة لا تطاق نهارًا » داخل الخيمة، مضيفًا أنه « نجا بفضل الله وحده، علي الرغم أن البئر كان قريبًا ».

إلا أن التواجد في مكان واحد فقط وسط الصحراء لمدة طويلة ينذر بخطر مميت. كان رئيس البعثة والرحالة المحنك نفسه أكثر من أدرك هذا الخطر حيث تذكر لاحقا حوارًا سمعه ذات مره بين مساعديه . يبدو أن « المؤن تنضب » « والمياه في البئر تنفد ». من الضروري اتخاذ قرار ما. اتخذ ي. ب. كافاليفسكي في تلك الظروف قرارًا بحمله علي نقالة. أهم ما في الأمر كان المضي قدمًا باتجاه شاطئ النيل والمدن الكبرى للنجاة من الصحراء . لازالت تنطبع في ذاكرة بارودين صورة أعضاء البعثة وهم يحملون رئيسهم علي النقالة لمدة ثلاثة أيام حتي مدينة مروي (مدينة أثرية علي الضفة الشرقية لنهر النيل ، كانت تبعد حوالي 200 كيلو متر من الخرطوم . تعليق المترجم) علي شاطئ النيل.

لم تتبق تقريبًا أية ذكريات عن تلك المرحلة الصعبة من الرحلة . لا يذكر خبير

198 - نفس المرجع. ورقة 27.

199 - ب. أ. فالسكايا. ي. ب. كافاليفسكي والمهندسون المصريون... ص. 136.

التعدين الأورالي سوى لحظة أن تبقي ساعتين فقط في الطريق لبلوغ نهر النيل، عندما رأوا « دير مسيحي تم تشييده في القرن السادس »[200]. كان الدير مهدمًا «منذ أيام الاقتتال الأهلي».

أخيرًا وصلت البعثة الروسية إلي نقطة النجاة علي شاطئ نهر النيل. و بعد أن ارتاح أعضاء البعثة من عناء السفر عبر الصحراء ، تسني لهم تفقد المنطقة . بالقرب من الجبل المتواجد بالجوار أقاموا معبدًا للإله إيزيس . أدرك بارودين (علي ما يبدو من ي. ب. كافاليفسكي) أن المعبد كان عتيقًا - فقد تم بنائه «منذ ما يقرب من 5000 عام ». وفي اللحظة التي وصل فيها الروس إلي هناك كان نصف المعبد مهدمًا تمامًا. يغلب الظن - كما افترض بارودين - أن المعبد تحطم علي يد سكان المنطقة أنفسهم الذين كانوا يستخدمون حطامه لبناء منازلهم : تحمل بعض المنازل آثار الرسومات التي كانت تزين المعبد . وأمام المدخل - علي حد وصف إيفان تروفيموفيتش -يمكنك رؤية البوابات، و الأعمدة، التي كان مرسومًا عليها «بعض الأشخاص ». توجد عدة غرف داخل المعبد، التي تعكس حوائطه رسومات مختلفة.

يوجد علي مسافة أبعد بقليل أربعة عشر هرمًا. عند دخول أي من تلك الأهرامات تجد «بهوًا» مزينًا باللون الأزرق ورسومات لشخصيات مختلفة - يعتقد خبير التعدين الأورالي أنها شيدت « لحكام » مصر القديمة - ورموزًا هيروغليفية[201]. في تلك الأثناء لاحظ إيفان تروفيموفيتش غياب الرموز المكتوبة باللغات الأوروبية، كما استنتج أن بعثة ي. ب. كافاليفسكي أول بعثة من نوعها في ضواحي معبد إيزيس.

أكملت البعثة طريقها بعدما تفقدت هذا الجزء من شاطئ نهر النيل وأخذت قسطًا من الراحة .

دنقلا

في الثالث عشر من يونيو وصلت بعثة ي. ب. كافاليفسكي إلي مدينة دنقلا. من المدهش أن إيجور بيتروفيتش لم يتذكر أية شيء عن فترة تواجده هناك ، ولكنه علم من خلال المؤلفات بوجود «معسكر من فلول المماليك» في دنقلا،

200 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 27.

201 - أنظر: الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 28.

استولت عليه قوات محمد علي آنذاك. وتذكر أيضًا العديد من أسراب النمل الأبيض ، الذي يعتبر «مأساة السودان »: « تهدمت منازل بأكملها بسبب النمل، وتبدو بسبب ذلك الآن وسط المدينة كالهياكل»[202].

لا تبدو قصة إيفان بارودين للوهلة الأولي أكثر تفصيلًامن مذكرات رئيسه، الذي كان علي ما يبدو في حالة مزرية لدرجة أنه لم يتذكر مكوثهم بعد ذلك ثلاثة أيام كاملة في دنقلا، وذهبوا « إلي أحد الموظفين لمشاهدة زرافة يافعة »[203]. وبالطبع لم يستطع خبير التعدين الأورالي -الذي سنحت له الفرصة لرؤية هذا الحيوان لأول مرة عن كثب -تجاهل تلك الزيارة . ولهذا كان من المنطقي تمامًا أن تنمو لديه الرغبة في وصف هذا المخلوق العجيب بشكل مفصل (لا سيما وأنه كان يعتقد أن أي من قراء مذكراته لم يسبق له رؤية زرافة علي قيد الحياة) . وفقًا لما قاله إيفان تروفيموفيتش ، فإن الزرافة تشبه « من حيث الهيكل الخارجي » الحصان: « صدرها مرتفع ، ومؤخرتها منخفضة ، وعنقها طويل ومنحني كالترس ، بينما وجهها صغير وجبهتها مكتنزة وصدرها عريض ومنقسم إلي شطرين ، وحوافرها مشقوقة إلي نصفين ، وجلدها مزدان برسومات كالتفاح الصفير، والشفاه السفلي متدلية » .

استحوذت الزرافة التي كان يمتلكها موظف مدينة دنقلا علي اهتمام ضيوفه. فالكثير من الضيوف الذين قاموا بزيارة هذا الموظف - كما هو الحال بالنسبة للرحالة الروس - سعوا بالطبع لتقديم أي شيء لهذا الحيوان. ولهذا، كما ذكر بارودين ، كانت نظرة الحيوان تنم عن سعادة : « فلا مانع لديه من تناول أي شيء يقدم له » . كما أثار سعر الزرافة دهشة خبير التعدين الأورالي، الذي أبهره : «أن الصغير الذي لم يبلغ عاماً بعد يقدر بـ300 تالر (وهي عملة معدنية من الفضة . تعليق المترجم) »[204].

ومن جديد انطلقت البعثة في طريقها، بينما لا تزال مسيرة طويلة بانتظارها. في خضم تلك الرحلة رأي أعضائها المعابد القديمة (وخاصة معبد أبو سمبل المنحوت في الجبل، والذي اكتشفه ليبسيوس «عالم ألماني متخصص في علم المصريات (1810ـ1884). تعليق المترجم»). يوضح أ. نوروف الإنطباع الذي خلفه ذلك في نفس الرحالة الروسي. ويكتب في ذلك «تبدو معابد أبو سمبل الضخمة كأنها تجذب مركبك بمغناطيس ، وعندما تقف أمامها تشعر أنك كالقزم علي الشاطئ،

202 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 257.

203 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 28.

204 - نفس المرجع. ورقة 28.

تستقبلك كأنها كائنات خارقة»[205]. بمجرد عبور مدينة دنقلا تغلب إيفان بارودين و رفاقه علي ثلاث « شلالات » نيلية صغيرة، وفي إحدي تلك الشلالات اضطروا إلي إنزال المركب بالحبال. ولم يكن اتخاذ تدابير الحيطة من قبيل الصدفة، بما أن الإبحار كان مستحيلاً تمامًا : « فالمياه تضرب الشواطئ ، والرذاذ يتطاير ، وتصدر الأمواج صوتاً مرعبًا يصم الآذان». علي كل حال تغلبت البعثة علي هذه العقبة وأكملت طريقها. و اضطر أفراد البعثة من جديد للتوقف بسبب مرض ي. ب. كافاليفسكي و رفاقه ؛ فعلي سبيل المثال، توقفوا في إحدى المدن الصغيرة ليومين . وكم كان إيفان بارودين منصفا عندما أشار إلي سوء حظ البعثة الروسية طوال ارتحالها في طريقها إلي الوطن : «واجهتنا عقبات مختلفة في طريق العودة، بسبب المرض تارة، وبسبب الرياح المعاكسة تارة أخرى...». نتيجة لذلك لم يتمكنوا من «إسراع الخطى»، بل كانوا يتحركون ببطء شديد.

في العشرين من شهر يونيو مرت البعثة علي ظهر الجمال عبر شاطئ النيل أمام حافتي جبل « حتى أطراف الصحراء الليبية » . يعتبر هذا الجزء من الطريق الأكثر صعوبة بالنسبة لإيفان تروفيموفيتش الذي اجتاز كل الظروف. علي حد وصفه، فإن «الشمس تشع لهيبًا ، والرياح محملة بغبار الرمال – كانت ببساطة رحلة مليئة بالعذاب »[206]. في الثامن والعشرين من يونيو وصلت البعثة إلي إحدي القري وركبت المركب مجددًا وبدأت رحلتها عبر نهر النيل .

معبد آمون

يوضح بارودين ، أنه في اليوم التالي ـ 29 من يونيو ظهر أمام أعينهم معبدًا قديمًا مخصص لعبادة آمون إله مصر القديمة . تم بناء المعبد قبل عدة آلاف سنة من ميلاد المسيح. انطبع في ذاكرة خبير التعدين الأورالي المكان الغريب، الذي بُني فيه المعبد. كان الجبل « ملاصقًا» لنهر النيل « ويبدو مشطورًا أو مبتورًا » . كان المعبد الذي عاينه الرحالة الروس عبارة عن مجمع معابد كامل يتكون من عدة مباني. علي أبواب المعبد الرئيسي تقف ستة « تماثيل » من الحجر الخالص . يقع مدخل المعبد وسط تلك التماثيل. تجد علي الحوائط الموجودة في ردهات هذا المعبد العديد من صور حيوانات وطيور « وأشخاص بقبعات بارزة ». قدر "إيفان تروفيموفيتش" عدد ردهات المعبد بعشرة. يوجد علي مدخل المعبد الثاني أربعة «تماثيل واقفة»

205 - أ. نوروف. المرجع الأسبق. ص. 232.

206 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 28.

بالإضافة إلي عدة تماثيل جالسة. يحتوي المعبد علي العديد من الغرف أيضًا، رأي الرحالة في الغرفة الأخيرة عدة تماثيل في وضعية جلوس ويدها علي ركبتها.

كانت بساطة البناء أكثر ما أثار دهشة إيفان تروفيموفيتش في مجمع المعابد. يقول خبير التعدين الأورالي : لا يوجد هناك أي شيء سوى «التماثيل»، «لا يعيش هناك الآن سوى مجموعات من الخفافيش ». ويتعجب بارودين من «كم الجهد وكم الوقت، الذي استغرقه بناء هذا الصرح ». الآن وبعد كل هذا المجهود، الذي بذله البناءون القدامي في إنشاء هذه المعابد، «يأتي الأجانب ببساطة» لمشاهدة «أشخاصًا عاشوا في أزمنة ما، كأنهم يدفعون إتاوة مقابل فضولهم ». اعتبر خبير التعدين الأورالي ذو الشخصية العملية أن اهتمام السياح بالآثار القديمة أمرًا غريبًا. ولهذا يعبر عن حيرته من هذا في كتاباته ، قائلاً: « ينفقون علي الرحلة كم من النقود من أجل مشاهدة مأوي للخفافيش »[207].

تذكر إيفان تروفيموفيتش عبر زيارة معبد آمون أيضًا أن أفضل أنواع البلح في المنطقة كلها كانت تنمو حول المعبد. فقد كان البلح يدر دخلاً مجزيًا علي السكان المحليين . لطالما رأي بارودين وأصدقائه شحنات من البلح تُنقل من هناك في قوافل إلي مناطق أخرى من إمبراطورية محمد علي.

وبعدما شاهد أفراد البعثة مجمع معابد الإله آمون ، وبعدما ذاقوا لذة ثمار البلح ، أبحرت مركب أعضاء البعثة الروسية بإتجاه المحطة التالية .

دير

في اليوم التالي من زيارة معبد آمون وصلت البعثة إلي مدينة دير. تقع المدينة في منطقة خصبة تحيطها أراضي مزروعة بالتبغ والقطن والفول وغيرها. حول المدينة ترعي قطعان من الأغنام والأبل ، وتحيط بها أشجار النخيل . في الوقت نفسه كان بالمدينة العديد من المنازل ذات طابقين (ومن بينهم منزل من طوب ذو لونين)، ومسجد صغير وعدة زوايا صغيرة بقباب . كما انتشرت العديد من الأكواخ، التي تسكنها عرقيتان رئيسيتان – إما المهاجرين من البوسنة أو أهل النوبة . سرعان ما يلحظ الرحالة الفروق الشاسعة في العادات وأسلوب حياة ممثلي كلا الشعبين .

207 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 29.

أثار وصول البعثة الروسية اضطرابًا وسط سكان مدينة دير: يذكر إيفان بارودين «أن سكان المدينة أخذوا يدقون علي الطبول ويهرولون بأعداد كبيرة لدرجة أننا لم نجد ممرًا في الشارع وتمكنا بصعوبة شديدة من التوجه إلي أطلال المعبد القديم »[208]. مع هذا هدأ الناس شيئاً فشيئاً، وبينما كان الضيوف الروس عائدين بعدما شاهدوا المعبد، لم يقابلوا أحدًا. وأثارت أسعار السلع المنخفضة في السوق دهشة إيفان تروفيموفيتش في هذه المدينة: يذكر بارودن أنهم قاموا بشراء 2 بود (يعادل البود 38,16 كجم . تعليق المترجم) بلح مقابل قرشين . لا تبدو تلك الأسعار غريبة إذا ما أخذنا في الاعتبار وفرة مزارع البلح بالقرب من تلك المدينة . خلافا للبلح، كانت مدينة دير مشهورة بالحصير والسلال التي كانت تباع في مدن الشرق البعيدة .

بلغت البعثة الروسية في الأول من يوليو مجددًا خط الإستواء بالقرب من كلابشه، كما فعلت في الطريق إلي فازوغلي . وفي هذا المكان تفقدوا المعبد، الذي ذكر بارودين أنه تحطم علي يد حاكم الفرس الشهير قمبيز[209]، أحد أشهر ملوك أسرة الأخمينيون وابن الملك كورش الكبير. ومن المعروف أن قمبيز الثاني غزا مصر عام 525 قبل الميلاد. حكي رئيس البعثة – الذي أطلع جيدًا علي التاريخ القديم – لخبير التعدين الأورالي، أن أعداد قوات قمبيز كانت كبيرة جدًا «وأقسموا» علي هدم المعبد بأكمله ، « ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك بسبب حجم الحجارة الكبير » . ومع هذا كان لديهم الكثير ليفعلوه، وفي النهاية لعب الوقت والأحفاد دورهم في إتمام هذا العمل: لحظة وصول الروس كان أساس المعبد مهدم بشكل كامل .

اقترب أعضاء البعثة الروسية في اليوم التالي من أحد موانئ نهر النيل، حيث كانوا يتركون مركبهم الذهبي الصغير ، الذي كان يقوم برحلات ذهابًا وإيابًا عبر أعالي نهر النيل الملئ بالحواف. «انتهت مرحلة الشلالات الصغيرة». وأعاد أعضاء البعثة شحن متاعهم علي الجمال وتحركوا عبر الجبال إلي مدينة أسوان، حيث كانت الباخرة بانتظارهم منذ فترة. وصل أعضاء البعثة في الثالث من شهر يوليو علي متن هذه الباخرة إلي قاعدة شحن، كان الحجاج المسلمون يستخدمونها أثناء أدائهم فريضة الحج إلي مكة. ولهذا أقيم سوق جيد في تلك المنطقة، حيث تمكن الرحالة الروس – علي حد وصف إيفان تروفيموفيتش – من شراء «قهوة ممتازة»

---

208 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 29.

209 - نفس المرجع.

مقابل قرشين. ولم يكن هذا أكثر ما انطبع في ذاكرة خبير التعدين الأورالي في تلك المدينة. فقد رأي أمام عينيه «رجلاً عربيًا يُدعي مبروك»، والذي كان يرتدي ملابس ثقيلة جدًا في الطقس الحار، ويعلق العديد من أباريق المياه. وكان هذا الرجل يبيع للناس الماء للإغتسال والشرب.

في القاهرة مجددًا

أخيرًا وصلت البعثة الروسية إلي القاهرة في الخامس من يوليو. تمثل أفضل خبر بعد رحلة سفر طويلة عبر الصحراء في النزول في «فندق علي الطراز الأوروبي». من الجيد أن تشعر من جديد أنك إنسان «متحضر»، بعد المبيت تحت السماء المفتوحة، وسط شجيرات السنط وداخل خيم السفر. مع هذا لم يتسني لهم التواصل مع أي شخص روسي: علي حد قول إيفان بارودين «لم يكن سواء القنصل الروسي، أو الملك بالمدينة ، رحل الجميع إلي الإسكندرية، ولهذا توجهنا إلي الإسكندرية في الثامن من نفس الشهر»[210].

غير أن السفر إلي الإسكندرية لم يكن بتلك البساطة. فقد اجتاح المنطقة مرض الكوليرا ولهذا قاموا في التاسع من يوليو باحتجاز الروس في المحمودية، حيث أمر محمد علي - كما كان معروفًا - بحفر قناة شهيرة آنذاك من الإسكندرية- «قناة تمر خلالها السفن والمراكب الصغيرة»، وفقا لما ذكره إيفان تروفيموفيتش.

ومن جديد في الإسكندرية

وصلت البعثة إلي الإسكندرية في نهار العاشر من يوليو. قضي خبراء التعدين الروس أسبوعين هناك. يقول إيفان بارودين: «لم يُسمح لنا بالخروج من الفندق بسبب انتشار وباء الكوليرا»[211] ردد رئيس البعثة - الذي رسم الصورة المرعبة للمدينة الواقعة تحت تهديد الوباء - علي مسامع خبير التعدين ما يلي: «كانت الإسكندرية خالية تمامًا: هرب البعض إلي الجزر، وحبس آخرون أنفسهم في

210 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 30.

211 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 30.

منازلهم، واضعين أنفسهم طواعية في حجر صحي بسبب الكوليرا؛ لم تمتد سوى مواكب الجنازات بشكل متقطع حتي المقابر»[212]. اندهش بارودين وأعضاء البعثة الروسية الآخرين من سلوك محمد علي المريض، والذي كان «يتجول عبر شوارع المدينة الخاوية كل يوم في موكب من أربعة أحصنة، غير آبه بالكوليرا»[213].

في تلك الأثناء كان ابراهيم باشا ابن محمد علي يحكم مصر فعليًا نيابة عن والده المريض. وفقاً لأقوال بارودين، «فقد كان ابراهيم باشا يتجول في البحر هربًا من الكوليرا». لم يكن بوسع أعضاء البعثة رفض استضافته. أثناء هذا اللقاء أخذ أعضاء البعثة يطلعون حاكم مصر الفعلي علي النجاحات التي توصلوا إليها بشأن بناء ورشة غسل ذهب في منطقة فازوغلي. علي ما يبدو أن ابراهيم باشا وضع آنذاك خططًا كبيرة لتطوير صناعة استخراج الذهب في مصر. جري الحديث تحديدًا عن إرسال خمسة شبان مصريين إلي روسيا من أجل تعلم أمور التعدين. بعد علمه بهذا المشروع قام "ي. ب. كافاليفسكي" بعرض هذا الاقتراح: حيث رأي أنه من المستحسن إرسال ثلاثة أشخاص «مباشرة إلي مناجم جبال الأورال»، بينما يتوجب علي اثنين آخرين تلقي العلم بداية في معهد تعدين سانت بطرسبورج، وبعد إنهاء الدراسة يتوجب عليهم التوجه إلي مناجم الأورال وألتاي.

خلافًا لهذا ارتأي ي. ب. كافاليفسكي من الضروري عدم الإكتفاء بما تحقق بشأن تطوير ورشة غسل الذهب في منطقة كاسان. ورأي أيضًا أنه من الممكن إسناد إدارة هذه الورشة إلي أحد أصدقائه القدامى من المهندسين المصريين الذين قدموا إليه في الأورال، أو إلي «الرائد بسلاح المدفعية أحمد أفندي المرتبط كذلك بمناجم التعدين»[214]. طرح إيجور بيتروفيتش هذه الفكرة علي إبراهيم باشا في مذكراته المكتوبة في يوليو عام 1848.

وعلي مايبدو لم يتخذ الرحالة الروس تدابير حيطة ولم يتعاملوا بجدية مع إجراءات الحجر الصحي . «يعترف إيفان تروفيموفيتش بصراحة، أنه علي الرغم من وجود الحجر الصحى، كنا نذهب حيثما نرغب ونحضر أنواعًا من الفواكة الطازجة ». كان من الممكن قطعًا أن يؤدي هذا التصرف إلي عواقب وخيمة في ظل انتشار وباء الكوليرا. ولكن هذا الأمر لم يعكر صفو خبير التعدين الأورالي: بل علي العكس، افترض أنه يتصرف بشكل صحيح تمامًا في ظروف

212 - مجموعة أعمال إيجور بيتروفيتش كافاليفسكي... ص. 248.

213 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 30.

214 - ب. أ. فالسكايا. ي. ب. كافاليفسكي والمهندسون المصريون... ص. 137.

الوباء خلافًا للسكان المحليين. في تلك الأثناء صاغ خبير التعدين رواية مدهشة لأسباب انتشار الكوليرا في مصر : «كان السكان المصريون يؤدون فريضة شهر رمضان (الصوم – تعليق أ. ف. أنتوشين). بمجرد أن يأكلون ثمارًا رمادية، في الصباح نجد مائة وخمسون ميتًا. هذا هو السبب الرئيسي للكوليرا»[215].

شارفت فترة التواجد لمدة أسبوعين في الإسكندرية علي الإنتهاء. ولولا عدم قدرة أعضاء البعثة علي استعادة عافيتهم من الأمراض التي أصابتهم، لكانوا حاولوا بأقصي سرعة ترك المدينة المصابة بالوباء قبل ذلك. ولكن لم يتحدث أحد عن إمكانية عودتهم للديار قريبًا. افترق أعضاء البعثة بشكل مؤقت في الرابع عشر من شهر يوليو. يتعلق الأمر برغبة ي. ب. كافاليفسكي في التوجه إلي الأرض المقدسة، إلي القدس، بغض النظر عن الرحلة الشاقة، الذي نجا فيها من الموت بأعجوبة. وبالطبع كان بارودين وصديقه يتوقون للتواجد في الأماكن، التي تمثل قدسية لأي مسيحي أرثوذكسي. ولكنهم كانوا مضطرين لرفض ذلك ببالغ الأسي: «يشير إيفان تروفيموفيتش بعد ذلك، أنه علي الرغم من دعوته لنا للسفر معه، ولكن كان مستحيل السفر إلي هناك بسبب المرض»[216].

في النهاية افترق بارودين عن رئيسه وتوجه علي متن باخرة إلي إسطنبول. وكما هو الحال بالنسبة لرحلته البحرية الأولي من أوديسا إلي القسطنطينية، عاني خبير التعدين الأورالي مشقة السفر. وارتبط ذلك ارتباطًا وثيقًا بالمرض العضال الذي أصابه وأصدقائه في الصحراء. وفي النهاية أصابته الرحلة البحرية «بدوار البحر». ولكن في هذه المرة لم يكن إيفان تروفيموفيتش مستعدًا للمتاعب المصاحبة للرحلة البحرية. بدأت أعراض المرض في الزوال تدريجيًا، «حيث أخذ بالتعود، علي حد ذكره، شيئًا فشيئًا علي الإهتزازات»[217].

في التاسع والعشرين من يوليو اقتربت السفينة التي كانت تقل بارودين من رودوس، حيث تزودوا بالفحم ثم أكملوا الرحلة. وصل المركب في الأول من أغسطس إلي خليج الدردنيل، حيث اضطر للتوقف لمدة اثني عشر يومًا كاملًا: فقد كانت السلطات المحلية تحتجزهم في الحجر الصحي، تخوفًا من وباء الكوليرا. بعد انتهاء مدة الحجر الصحي تم السماح لإيفان تروفيموفيتش بإكمال رحلته علي متن سفينة تركية.

215 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 30.

216 - نفس المرجع. ورقة 30.

217 - نفس المرجع.

اللقاء الأول بإسطنبول

وصل بارودين إلي إسطنبول أخيرًا في الثالث عشر من شهر أغسطس. قضي خبير التعدين الأورالي قرابة شهر في عاصمة الدولة العثمانية في انتظار ي. ب. كافاليفسكي. وخصصوا له غرفة في مقر ديوان المفوضية الروسية . تمكن بارودين خلال هذه الفترة من رؤية العديد من الأشياء الممتعة. وكما أشرنا سابقًا فقد شعر خبير التعدين الأورالي في زيارته الأولي وهو في طريقه إلي مصر والسودان، بالدهشة من حقيقة قيام سكان إسطنبول بوضع المناقل وإشعال النيران مباشرة في الشوارع . بينما أيقن الآن في طريق عودته أن عاصمة الإمبراطورية العثمانية ليست المدينة الأكثر أمانًا من ناحية التعرض لخطر الحرائق في منتصف القرن التاسع عشر. في الفترة التي كان بارودين متواجدًا فيها في المدينة في أغسطس عام 1848، وقعت خمسة حرائق قضت علي شوارع بأكملها. أرتأي خبير التعدين الأورالي أن السبب وراء ذلك يرجع - بالإضافة إلي إهمال المواطنين - إلي المستوي السيء لعمل أجهزة الإطفاء في إسطنبول: «ففرق الإطفاء ليست علي المستوي المطلوب». كانوا يحكون لبارودين، أنه بمجرد نشوب الحريق ويصل عمال الإطفاء- «يبدأ الجدال معهم حول المبلغ، الذي سيتقاضونه مقابل هذا العمل، حتى يحترق الشارع عن آخره»[218].

يذكر بارودين، «أنهم كانوا سعداء جدًا» لحظة وصول ي. ب. كافاليفسكي إلي اسطنبول أخيرًا في الخامس من سبتمبر. ولكن لم تستمر سعادة لقائه بصديقه طويلاً: ففي اليوم التالي مرض إيفان تروفيموفيتش مرضًا شديدًا. يكتب الأخير عن هذا قائلاً: «في السادس من نفس الشهر لحقت بي وعكة صحية شديدة، وأصبت بمرض، و لو لم يكن الطبيب قد تمكن من وقف النزيف لكنت مت قطعًا». اضطر خبير التعدين للراحة لمدة تسعة أيام، فحالته لن تسمح بركوب السفينة عائدًا لوطنه. فقد إيفان تروفيموفيتش شهيته بشكل عام لما يقرب من ثلاثة أيام.

في تلك الظروف لعب صديقه دورًا كبيرًا في إنقاذ حياته. يشير خبير التعدين الأورالي في مذكراته بشكل مباشر إلي مدي عرفانه لي. ب. كافاليفسكي: لم يكتف كافاليفسكي بإحضار طبيب واحد فقط إلي بارودين، «ولكنه استدعي طبيبًا

218 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 5.

آخر ودفع بدلاً منه أجر الأطباء بالإضافة إلي مصاريف شراء الأدوية من الصيدلية»[219].

بمجرد أن تحسنت حالة بارودين الصحية في الرابع عشر من سبتمبر، انطلق أعضاء البعثة الروسية في النهاية علي متن السفينة إلي أوديسا.

من جديد علي أرض الوطن

وصلت البعثة الروسية إلي المدينة الروسية الجنوبية في السادس عشر من سبتمبر. أخيرًا وصل بارودين وأصدقائه إلي الأراضي الروسية! إلا أنهم وجدوا أنفسهم أمام حجر صحي مجددًا في أوديسا: كان الجميع متخوفين من الوباء الذي اجتاح مصر. ولهذا فقد أشار إيفان تروفيموفيتش إلي أن تدابير الحجر الصحي كانت أكثر تشددًا هناك . فبمجرد وصول السفينة إلي المرفأ استقبلهم الحراس الذين جردوهم من كل شيء («حتى الصليب لم يتركوه»، - يتحدث بارودين لاحقًا بامتعاض). وقاموا بفحصهم بدقة وسلموهم ملابسًا رسمية. وقضوا اسبوعين في غرفهم يفصل بعضهم عن الآخر قضبانًا ثنائية . يذكر إيفان تروفيموفيتش، ان موظفو ميناء أوديسا «حرصوا علي عدم إقتراب أحد من أي شيء – فقد كانوا متخوفين من الكوليرا»[220]. تمكن أعضاء البعثة التي توجهت لمصر من العودة إلي الديار فقط بعد انتهاء الحجر الصحي.

يمكنك أن تتخيل مدي الراحة التي شعر بها أفراد البعثة في تلك الأيام. انتهت أصعب بعثة إفريقية! كتب "ن. س. فسيفالوجسكي" – أثناء عودته من رحلة بحرية طويلة أيضًا قبل عشرة سنوات من رحلة إيفان بارودين وأصدقائه – أنه كان يشعر «بسعادة»: «جبت جزءًا كبيرًا من أوروبا، وكنت متواجدًا في آسيا وأفريقيا وعدت إلي وطني سالمًا...»[221]. وهكذا يبدو أن "ن. س. فسيفالوجسكي" لم يقض أغلب وقته في النوبة أو في صحراء بيوضة ولكن في تفقد معالم باريس وروما ونابولي !

---

219 - نفس المرجع. ورقة 31.

220 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 31.

221 - ن. س. فسيفالوجسكي . رحلة عبر جنوب روسيا والقرم وأوديسا إلي القسطنطينية وآسيا الصغرى وشمال أفريقيا ومالتا وسيسيليا وإيطاليا وجنوب فرنسا وباريس في عامي 1837-1836. موسكو، 1839. المجلد الثاني. ص. 520.

إذا كان الأمر كذلك ، ترى كيف كان استقبال روسيا لأفراد بعثة تعرضت لخطر محدق فى أفريقيا ؟ كوفئ « ي. ب. كافاليفسكي « بمنحه وسام « القديسة آنَا » من الطبقة الثانية . ومع ذلك لم ينس أمر أصدقائه - خبير التعدين وعامل غسل الذهب ، وطالب الحكومة بمكافأتهم على مشاطرتهم رئيسهم « كل الأعباء والمخاطر والمعاناة». ولكن كان من العسير التفكير في هدية « إ. س. فومين » لأنه كان رجلاً رجعياً . فى نوفمبر عام 1848 عاد « بارودين وفومين » إلى مصنع مياس . وتم مكافأتهم على الإخلاص والتفاني فى العمل بمرسوم صادر في الأول من شهر فبراير عام 1849: مُنح « إيفان تروفيموفيتش » ميدالية تحمل توقيع « تقديراً لتفانيه « كي يحيط به رقبته فوق وشاح « القديسة آنا » ، كما منحوا « فومين» أربعون روبل من الفضة (على الرغم من أنه نفي كتابة ميوله الرجعية ، إلا أنهم لم يسلموه منحة الدولة). و بالإضافة إلي ذلك أرسل وزير الخارجية والتجارة الروسي إلي ي. ب. كافاليفسكي ألفي فرانك لمكافأة أعضاء البعثة الروسية. كما سلم إيجور بيتروفيتش ألف فرانك إلي إيفان بارودين و800 فرانك لإيفان فومين[222]، والمائتان الباقيتان كانا من نصيب مساعد المقدم. من المعروف أن مصر منحت ي. ب. كافاليفسكي وسام «الافتخار» علي هيئة ميدالية ذهبية بها صورة للسلطان مصنوعة من الماس ، وهلال و نجوم وكذلك علبة تبغ من الذهب[223].

كتب « إيجور بيتروفيتش » بمجرد عودته مدونتين ـ « عن الوضع السياسي والتجاري الراهن في شرق السودان وأثيوبيا » و« المشروع التجاري الروسي مع مصر وشواطئ البحر الأسود » . وأوصي في تلك الوثائق بتنظيم رحلات بحرية عبر خط سير أوديسا - القسطنطينية - الإسكندرية تستمر مدة خمسة إلي ستة أيام، كما أشار إلى السلع الرئيسية في التصدير والإستيراد الروسي . وبالإضافة إلى ذلك دعم بالبراهين ضرورة إنشاء مركز تجاري متخصص في أوديسا من أجل تدبير شئون التجارة مع الشرق . ولكن قوبلت مخططات « إيجور بيتروفيتش »[224] برفض من قبل تجار جنوب روسيا ، بعد أن وقف تدهور العلاقات السياسية بين

222 - أنظر: ب. أ. فالسكايا. ي. ب. كافاليفسكي و المهندسون المصريون... ص. 138.

223 - ج. ف. جارياتشكين. مصر في أعين الروس... ص. 269؛ ف. ف. بيليكوف. علبة التبغ الذهبية للمقدم كافاليفسكي// معادن أوروبا الآسيوية. 1996. رقم 6.

224 - انظر: الأرشيف الحكومي لأوديسا. صندوق 2. الفهرس الأول. ملف 282. ورقة 9-8؛ صندوق 2085. فهرس رقم 369. ملف 5712. ورقة 5. يشكر الكاتب البروفيسور ج. ف. جارياتشكين لتقديمه تلك المعلومات.

روسيا ومصر نتيجة مشاركة الجيش المصري في حرب القرم حائلاً أمام تحقيقها .

عاد « ي. ب. كافاليفسكي » و « إ. ت. بارودين » و « إ. س. فومين» منذ فترة إلى أرض الوطن ، بينما لا يزال رفيقهم في الرحلة الإفريقية وعالم الطبيعة « ل. س. سينكوفسكي » بعيداً عن روسيا . من المعروف أنه بعد عودة بعثة « ي. ب. كافاليفسكي » إلى الأورال بقي « ل. س. سينكوفسكي » فى منطقة نهر النيل لبعض الوقت. غادر « بلاد الأهرامات» بعد عامين فقط من إجرائه لدراسات ميدانية ، تاركاً « مجموعة كبيرة من مواد التأريخ الطبيعي» لدى القنصل الروسي العام في مصر. يبدو أن « ل. س. سينكوفسكي » لم يتوجه مباشرة إلي روسيا ، بل سافر فى البداية إلي تريستي (مدينة وميناء في شمال شرق إيطاليا قرب الحدود مع سلوفينيا. تعليق المترجم) ، حيثما كان متواجداً في فبراير عام 1850 ، وفقاً لما ورد في جلسة الهيئة الجغرافية التابعة للإمبراطورية الروسية (بتوصية من تلك الهيئة تم إدراج هذا العالم ضمن بعثة ي. ب. كافاليفسكي)[225] .

كان « ل. س. سينكوفسكي » يخطط للعودة من تريستي إلى روسيا عبر السويد وألمانيا . ونشر العالم فيما بعد فى الصحافة العلمية الروسية نتائج أبحاثه فى شمال شرق أفريقيا . تغير الكثير على أرض الوطن فى الفترة التى قضاها « إيفان تروفيموفيتش » فى أفريقيا . وفي صيف عام 1848 أصبح قائد الأركان وخريج معهد التعدين « أ. ف. ميفيوس » مدير مصنع زلاتؤوست . من المدهش أنه عاد فقط منذ وقت قريب (صيف 1846) من الخارج ، حيثما توجه بصفته مساعداً الناظر قافلة ذهب طاعن فى السن[226]. أسهب على صفحات « مجلة التعدين » عام 1849 فى وصف المصانع التى زارها في سليزيا (منطقة تاريخية في أوروبا الوسطى . تعليق المترجم) التابعة لمملكة بروسيا ، ودار صك النقود في فيينا ، ودار المدفعية في أوجسبورج والعديد من المصانع الألمانية الأخرى[227] . وبغض النظر عن التغيرات الوظيفية، جرت الأمور كالسابق ، وكانت الوفود الجيولوجية تتوجه صيفاً للتنقيب عن الذهب. وكان بطل كتابنا « الكابتن بلوم » – الذى رافق « عيسى الدهشوري » و «على محمد إبراهيم » من زلاتؤوست إلي أوديسا – يترأس أحد تلك

---

225 - أنظر: تقرير الهيئة الجغرافية الروسية خلال عام 1849//مدونات الهيئة الجغرافية التابعة للإمبراطورية الروسية. 1851. الكتاب 5. ص.15.

226 - أنظر: أرشيف مقاطعة زلاتؤوست. صندوق 2. الفهرس الأول. ملف 282. ورقة 6.

227 - أنظر: تقرير عن رحلة قائد الأركان ميفيوس الأول إلي الخارج//مجلة التعدين. 1849. الجزء الأول. الكتاب الثاني. ص. 238-133.

الوفود في صيف عام 1849 . تمكن وفد بلوم من اكتشاف تسعة «حقول غنية بالذهب» . وإجمالي ما تم استصلاحه خلال هذا الصيف فقط ثلاثة ملايين بود رمال تحوي ذهباً ، من المفترض استخراج أكثر من 23 بود ذهب منها[228] .

استمر التنقيب عن مكامن الحجر النفيس فى المناطق المجاورة لورش بيروزوف ، حيث كان يعمل « عيسى الدهشوري » على آلة الغسل المخصصة له قبل عدة سنوات . في صيف عام 1849 وجدوا أكثر من 23 بود من الذهب في المناجم الجديدة[229]. وبلا شك لم تمر الرحلة الإفريقية مرور الكرام علي خبير التعدين الأورالي. رأى أحد أفراد عمال مصانع الأورال البسطاء بأم عينه الإسكندرية والقاهرة والخرطوم وسنار . وعاش على مدار وقت طويل وسط متحدثين باللغة العربية، وتعامل مع المصريين . توضح مذكرات رحلته ، أن « إيفان تروفيموفيتش « تعلم بعض الأشياء عن اللغة العربية ، حتى أنه تمكن من تأليف كتاب محادثات مميز (بالروسية والعربية) ، ويحتوى علي 249 كلمة وتعبير[230] . تم إلحاق هذا العمل الرائع – الذى ألفه خبير التنقيب عن الذهب الأورالي – إلى مذكراته.

أظهر تحليل هذا العمل أنه يضم كلمات وعبارات لها علاقة بفترة سفر البعثة الروسية على متن المراكب عبر نهر النيل . لقد قضى « ي. ب. كافاليفسكي « وأصدقائه وقتاً طويلاً فى رحلتهم عبر النهر الإفريقي العظيم ، ولهذا كان من الطبيعي أن تترامى إلى مسامعهم عدد كبير من العبارات على لسان ممثلي أطقم هذه السفن . وهكذا علم « إيفان بارودين « المعاني المقابلة باللغة العربية لكلمات ، مثل « مركب » و« موجة » و« مياه » و« سفينة » وغيرها . كما سمع كيف كان القباطنة يصدرون أوامر للبحارة ، قائلين: « إلى أعلى » ، « أرفع لأعلى »، « إلى أسفل » ، « دَور » ، « امسك» ، « قف » ، « اسحب » ، «اربط » ، « ارجع » ، « أقطع » وغيرها . استفاد « إيفان تروفيموفيتش » من بعض هذه العبارات عندما ترأس لفترة مؤقتة العمل فى أحد مناجم فازوغلي في فترة غياب « ي. ب. كافاليفسكي « . وأثناء حديثه مع الخبراء المحليين تعلم فى نفس مكان المنجم كيف يصدر أوامر بمعنى: « تحرك للأمام » ، « أعمل » ، « لا تعمل » ، « تقدم

228 - أنظر: تقرير عن عمل ستة وفود للتنقيب عن الذهب في ضياع مصنع مياس في صيف عام 1849.//مجلة التعدين. 1850. رقم 2. ص. 244.
229 - أنظر: تقرير عن عمل وفود التنقيب عن الذهب في منطقة إيكاترينبورج في صيف 1849//مجلة التعدين. 1850. رقم 1. ص. 152.
230 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة 40-36..

إلى هنا!». فى هذا الإطار قام بتفسير المعانى المقابلة للغة العربية لكلمات ، مثل « مسمار » و« ذهب » و« حديد » و« ورشة حدادة » و« مطرقة » و« نار» و« منشار» و« نجار » و« إزميل » و« طوب أحمر» و« جهد » و« مسن » و« مقص» و« جاروف » وغيرها . بشكل عام كانت الصفة المميزة لكتاب محادثة « إيفان بارودين » توفر كلمات وتعبيرات مرتبطة بعملية الإنتاج وقاموس المفردات التقنية . من خلال تواصله مع عمال ورشة غسل الذهب ، كان يوجه أسئلة لمساعديه باللغة العربية ، مثل: « ما اسمه ؟ » ، « هل أنت نائم ؟ » ، « من يود تناول الطعام ؟ » وغيرها .

رأي « إيفان تروفيموفيتش » أكثر من مرة أثناء رحلته شواهد علي مدي قدم الأثر الذي خلفه المسيحيون في الثقافة المصرية . ولهذا ليس بغريب أن يعرف مقابل لفظة ديانته باللغة العربية وكيف ينطق بلغة السكان المحليين كلمة «دير» وتعبير «الصليب المقدس».

بالطبع لم يكن بمقدور خبير التعدين الأورالي فهم المعني الحقيقي للكلمات التي سمعها بدقة كافية . على سبيل المثال ، ترجمة كلمة « جلاب » في كتابه بمعني « قائد » . يبدو أن « إيفان تروفيموفيتش » قد سمع أكثر من مرة تلك الكلمة علي المراكب المتحركة عبر نهر النيل. علي الأرجح أن الذهبية (مركب صغير قديمًا. تعليق المترجم) كانت تؤجر بواسطة التجار العرب الجلابة - الذين كانوا بمثابة قادة حقيقيون - لابد أن يخضع لهم طاقم السفينة بأكمله. انطبعت في ذاكرة « إيفان تروفيموفيتش » من خلال تعامله مع الموظفين العرب في المدن التي مرت بها البعثة كلمة « مأمور » ، والتي ترجمها بمعني « قائد الحرس»، ووظيفة دواة الحبر عند العرب ، والتي تمثل رمز النظام البيروقراطي في مصر والسودان .

تكون لدى الخبير الأورالي مخزون من الكلمات نتيجة لمراقبته لطبيعة السودان الخلابة . فعلى سبيل المثال ، تعلم معني اسم "الأسد" ملك الحيوانات باللغة العربية ، وكيف يقول كلمة « ذبابة » و« طائر » و« سمكة » ، وكيف ينطق باللغة المحلية فعل « لسع » .

تعلم « إيفان تروفيموفيتش » العديد من الكلمات والتعبيرات العربية أثناء مسيرته الطويلة عبر الصحراء ومبيته بالقرب من الآبار فى الواحات . ففى تلك المناطق تحديداً سمع كيف كان السكان المحليون ينطقون اسم أكثر الحيوانات نفعاً فى الصحراء وهو الجمل ، كما أدرك أيضاً القيمة المجردة التي تمثلها كلمة «مياه » . وليس من قبيل الصدفة أن نرى فى كتاب مفردات بارودين أفعالاً، مثل « ارتوي» و « روي ظمأه » و« شرب» . كما علم « إيفان تروفيموفيتش »

ماذا تعني باللغة العربية كلمة « زمزمية » و« خيمة » . وللأسف كان مضطراً لمعرفة كيف يعني للسكان المحليين تعبير « أنا مريض »، بل ينطقون باللغة العربية كلمة « متوفي » : رأت قافلة « ي. ب. كافاليفسكي « فى طريقها عظام موتى فى الصحراء أكثر من مرة. وتعرضت البعثة الروسية في طريقها للعديد من المخاطر ، وأكثر من مرة أنقذتهم الحراسة من تطفل السكان المحليين . ولهذا من المنطقي أن يعرف خبير التعدين الأورالي معاني تلك الكلمات : « سلاح » و«جندي» و« سيف » .

و تمكن خبير التعدين الأورالي من التواجد في مدن وقرى شمال شرق أفريقيا، وساوم على الأسعار فى الأسواق ، وتواصل مع السكان المحليين. وهناك علم ماذا تعني باللغة العربية كلمات: « بطيخ » و«حديقة» و« عنب »، و« خمر» و «قهوة» و«لحم بقري » و« ملح » و«جبنة» و« خبز مجفف » و« بلح » و« خبز» و«قرنفل». كما ضم قاموس مفردات « إيفان تروفيموفيتش « كلمات، مثل: « مدينة » و«مسجد» و«حائط » و« نقود » و« صرة نقود » و« مرآة » و«إبرة» و«كتب» و«قلم رصاص » و« مقطف » و«مفتاح » و«إبريق » و«ملعقة» و«منضدة» و«كوب» و« صندوق » و« حصان » و« زيت » و « خيوط» و« فوطة» و«منديل » و«قفاز» و«قماش كتان» و« قميص» و « قبعة» و« ورقة » و« قبقاب » و« فرشاة » و« أواني » و«فنجان» و « ساعة يد » و« حذاء » و« مشط » و« شمعدان » و« معطف» و«حزام» و«كلب» و«لجام» و« مصباح » و« حمام » و« لحية » . استفاد « إيفان بارودين» أثناء تعامله مع التجار فى أسواق مصر والسودان من معرفته بلغة أهل المنطقة كلمة « أشكرك » أو كيف يوجه سؤال عن سعر السلعة : « كم قرشاً ؟ » . كما تكون لدى خبير التعدين الأورالي فكرة عامة عن مسائل الحساب باللغة العربية ، بعدما تعلم التعداد من واحد إلى عشرين وكذلك مضاعفات الرقم عشرة وحتي الرقم مائة . من خلال تعامله مع سكان الإسكندرية والقاهرة تمكن من التعبير باللغة العربية عن معني « صباح الخير» و« مساء الخير» و« لا أعلم »، كما تعلم كيف تعني بلغتهم كلمات- « أب » و«أم» و«فتاة» و«صبي » و« أبن » و«عجوز » و« شاب » .

وبهذا الشكل تمكن « إيفان تروفيموفيتش بارودين » بصعوبة من التواصل مع أصدقائهم المصريين ، المهندسين « علي محمد إبراهيم » و« عيسي الدهشوري » . كما يعتبر كتاب المحادثة شاهداً علي توجه « إيفان بارودين » إلى أصدقائه بعبارة « أنت ، يا أخي » ، وعند افتراقه عنهم في فازوغلي كان يقول بالعربية « وداعاً »[231] .

231 - الأرشيف الحكومي لمقاطعة سفيردلوفسك. صندوق 101. الفهرس الأول. ملف 559. ورقة40.

يمكننا ملاحظة الخاصية المميزة لقاموس المفردات الصغير الذى وضعه « إيفان بارودين » أثناء مسيرته أو فى الزيارات الميدانية عند مقارنته بعمل مشابه صادر بعد خمسة عشر عاماً من إنتهاء بعثة «ي. ب. كافاليفسكي». في بداية الستينيات وضع « ف. كيلزي » قاموس محادثة (روسي ـ عربي) لطلاب كلية الدراسات الشرقية التابعة لجامعة سانت بطرسبورج . حيث عرض على سبيل المثال فى الجزء الذى يحمل اسم « الطعام والشراب » المقابل باللغة العربية لتلك التعبيرات والأسئلة : « هل تشرب نبيذ أحمر أم أبيض؟ » ، « هل تشرب القهوة مع الزبد؟ » أو « تناولنا اليوم المحار » . وفى الجزء الذى يحمل عنوان « الملابس » تمكن الطلاب الروس ، الذين كانوا يتعلمون اللغة العربية فى منتصف القرن التاسع عشر، من معرفة كيفية نطق بعض الجمل باللغة العربية ، مثل: « حجزت دستين من القمصان» و « يعجبني صيحة هذه البلرين » و« الجوارب رخيصة جداً في لندن »[232] .ليس بغريب أن تغيب تلك المفردات بشكل كامل لدى « إيفان بارودين»، الذى عرف كلمات وجمل باللغة العربية ليس فى تعاملاته مع الفرنجة الأرستقراطيين ، ولكن علي متن الذهبية ، وبالقرب من آبار منطقة مورات ، وفى أسواق الإسكندرية والقاهرة . إلا أن العمل الذى كتبه خبير التعدين الأورالي كان الأكثر قيمة ، من وجهة نظرنا .

نعتقد بشكل عام أن الحقيقة الأكثر أهمية تتمثل في مدي اهتمام خبير التعدين الأورالي باللغة العربية . حيث تعلم أثناء الفترة الطويلة نسبياً التي قضاها فى مصر والسودان مئات من الكلمات والتعبيرات باللغة العربية. يذكر « أ. أ. رافالوفيتش « – الذى ورد ذكره أكثر من مرة علي صفحات هذا الكتاب – والذى قابل مؤسس مصر العظيم فى العشرين من مارس عام 1848 ، أن « محمد على » كان مندهشاً من سعي الرحالة الروسي لتعلم اللغة العربية . وفقاً لما ذكره « أ. أ. رافالوفيتش » ، بعد أن علم حاكم مصر بهذا ، نظر إليه « نظرة ثاقبة ومشرقة ، مصوباً نحوه إحدى تلك النظرات ، كما لو كان يسعي من خلالها إلى الكشف عن بواطن النفس واستطلاع الأفكار الدفينة داخل الشخص ، الذى يحاوره » . بعد هذا نطق « محمد على » ، قائلاً : «إنني أحكم مصر منذ أربعين عاماً ، ومع هذا لا أجيد اللغة العربية»[233] .

للأسف ، لم تطل قصة ورشة استخراج الذهب بالسودان ، التى بُنيت بمشاركة

---

232 - ف. كيلزي. التعبيرات الروسية العربية الاجتماعية الدارجة، التي كتبت لطلبة كلية الدراسات الشرقية التابعة لجامعة سانت بطرسبورج، الذين تأقلموا علي استخدام اللهجة العربية الدارجة المستخدمة في سوريا والمحافظات التركية والفارسية. سانت بطرسبورج، 1863. ص. 17-16، 30-28.

233 - أ. أ. رافالوفيتش. رحلة عبر صعيد مصر... ص. 268.

المتخصصين الروس . واتضح أن بعض من شرعوا في هذا العمل مع « ي. ب. كافاليفسكي » سرعان ما حاولوا التقليل من قدرة رئيس البعثة الروسية علي تطوير صناعة استخراج الذهب في مصر والسودان . فعلي سبيل المثال أكد « خالد باشا » فى خطابه إلي «إبراهيم باشا » خليفة « محمد على » أن جميع مخابئ الذهب تم إفتتاحها حتى قبل وصول « ي. ب. كافاليفسكي » ، كما أن الماكينات العربية كانت تفوق في جودتها تلك التي كانت تُستخدم في ورش الأورال . ومع هذا فقد قال القنصل الروسي العام في مصر « أ. م. فوك » أن حاكم مصر رد قائلا: إن خالد باشا « جاهلٌ ومغفلٌ » ولا يمكنه أن يعرف عن أمور التعدين أكثر من الشخص، الذى « قضى حياته كلها فى المصانع ، وأرسل من قبل الإمبراطور الحاكم»[234] .وعلي أية حال كان « إبراهيم باشا « فى البداية يولي اهتماماً كبيراً للعمل الذي بدأه « ي. ب. كافاليفسكي» . يشير « أ. م. فوك « نفسه في أحد خطاباته إلى «ي. ب. كافاليفسكي » أن « إبراهيم باشا » «أقبل بحماس على صناعة الذهب وطالب ببعض المعلومات ، وكان يعطي التعليمات ويرسل العمال » . ولكن بحلول خريف عام 1848 «هدأ كل شيء » ، وبدأ « أ. م. فوك » فى التعبير لرئيس البعثة الروسية عن تخوفه البالغ من « ضياع كل الجهد والعناء والأعمال هباءً » . وأشار بعد عدة أشهر وتحديدًا فى يناير عام 1849 أنه « لا وجود لأي أثر للذهب في أي مكان »[235] . أشار كل من المبعوث الإيطالي (وكاردينال في المستقبل) ماساين والرحالة الفرنسي « ج. بيلترام » فى مذكراتهم أن عملية غسل الذهب فى كاسان أخذت في التداعي شيئاً فشيئاً [236] . سرعان ما أغلق « محمد سعيد باشا » الورشة في فازوغلي .

على أية حال تركت بعثة « ي. ب. كافاليفسكي » أثرها علي تاريخ العلاقات الروسية المصرية . فلأول مرة يتواجد في ذلك البلد الإفريقي البعيد خبراء بسطاء للتنقيب عن الذهب ، ويرون طبيعته الغريبة ، ويتمكنون من التعرف علي بعض عادات وتقاليد شعوب شمال شرق أفريقيا . ومن المؤكد أنهم أخذوا بعد عودتهم إلى حدود الوطن يقصون لأقاربهم وأصدقائهم شيئاً ما عن مصر والسودان ، فظهر أمام ناظري سكان وادي الذهب بجنوب الأورال صورة عن أرض الشرق العربي البعيدة .

234 - ب. أ. فالسكايا. كافاليفسكي والمهندسون المصريون... ص. 143.
235 - نفس المرجع.
236 - أنظر: تاريخ السودان في العهد الحالى .. ص. 31



السيرة الذاتية

ولد ألكسى أنتوشين فى 17 أغسطس 1975م فى مدينة إيكايتربنورج (روسيا) .انهى دراسته فى كلية الدراسات التاريخية بجامعة أورال عام 1997م .

فى عام 1998 م ناقش رسالة الماجيستير فى موضوع " تاريخ الإمبراطورية الروسية"،وفى عام 2010 ناقش رسالة الدكتوراه والتى كرسها لمشكلات الحرب الباردة . أستاذ فى جامعة أورال الفيدرالية و يلقى محاضرات خاصة بموضوعات " تاريخ روسيا" ، "روسيا - * و دول الشرق" ، و "روسيا وأفريقيا" .

عضو المجلس العلمى لأكاديمية العلوم الروسية الخاص بمشكلات أفريقيا.

شارك أكثر من مرة فى المؤتمرات العالمية للأفارقة أعوام (2005، 2008، 2011).

شارك فى مجال البحث العلمى فى جامعة ستانفورد، كولومبيا، جورج تاون ، والجامعة الأمريكية فى الولايات المتحدة الأمريكية ، والمعهد الدولى للتاريخ الاجتماعى (امستردام، هولندا) ، وجامعة ليدز (بريطانيا العظمى)، وجامعة باريس - نانتير (فرنسا) ،جامعة بريمن (ألمانيا) وغيرهم ، وعمل فى مجال الوثائق التاريخية لأكثر من 30 أرشيف لروسيا ، الولايات المتحدة الأمريكية، ألمانيا، هولندا ، فرنسا، بريطانيا العظمى والمجر . لديه أكثر من 130 من الإصدارات العلمية ، من بينهم أربع دراسات متعددة.



الفهرس